محمد كاظم مكي

الحركة الفكرية والأدبية

في جبل عامل

دار الأندلس

محمد كاظم مكي

الحركة الفكرية والأدبية

في جبل عامل

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

دار الأندلس - بيروت . لبنان
هاتف ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص. ب ٤٥٥٣ - ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

مقدمة الطبعة الثانية

منذ تسعة عشر عاماً، كان هذا الكتاب أطروحة جامعية.

وقد دفعني إلى اختيار «الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل» موضوعاً لهذه الأطروحة، دافعان اثنان: واحد وطني، وآخر ثقافي.

فلقد نشأت في أرض جبل عامل، وشدني جماله المتواضع، وأسرتني مسحة الخشوع، تطبع فيه كل شيء: تلاله الهادئة الارتفاع، ووديانه المتئدة الأعماق، ومنبسطاته المحدودة المدى، صورة واحدة تطالعك أينما اتجهت، حتى أصبح الاعتدال والتواضع، سمة مميزة للجبل، انعكست على وجوه أهله قناعة وارتياحاً.

وكنت في هنيهات الأماسي، في الطفولة والصبا أسترق السمع إلى مجالس العلماء والفقهاء، والمغفور له والدي، كان واحداً منهم، فعرفت أن هذه الأرض العاملية، قد أنبتت العديد من المفكرين، وأخرجت قوافل الشعراء والكتاب، واحتضنت حلقات العلماء والباحثين، واتسعت لمناقشات الدارسين، واجتهادات الفقهاء، ومع تقدمي في الدراسة الابتدائية والثانوية، ازدادت معرفتي بقدامى رجال الفكر العامليين، وتوثقت علاقتي بالكتب الصفراء، وبالمخطوطات التي تضم نتاجهم.

وكنت أقيم المقارنة في ذاتي، وداخلي، بين المفكرين والأدباء والشعراء، في سائر أرض العرب، والذين كنت أقرأ عنهم في كتبي المدرسية، وفي كتب المطالعة على هامش الدراسة، من جهة، وبين من سمعت لهم وقرأت عنهم في الجبل العاملي من جهة أخرى، فأتساءل: لماذا لم ينشر نتاج العامليين في كتب السوق المتداولة؟ ولماذا نقرأ كل شيء، لكل ناس العالم العربي، ولا نقرأ لناس بلادي في جنوب لبنان؟

ومع الأيام، والسنوات، كان السؤال يزداد وضوحاً في ذاتي، ويتسع في داخلي، ويتعمق في خواطري، ووجدتني معنياً بالجواب، في إطار الجامعة اللبنانية، وأنا طالب في معهد المعلمين العالي، فدفعت على استحياء، موضوع التراث العاملي، أمام أستاذي المشرف، الدكتور جبور عبد النور، رجل العلم المعروف، فوجدت لديه القبول والتشجيع، وتكلل عملي في حزيران ١٩٦٢، أطروحة كاملة مقبولة، عبرت بها جسر الاعتراف الجامعي، بالبحث العلمي، في تراث الجبل العاملي!

وبعد العبور الجامعي، كان لا بد من العبور إلى الجمهور، قراءً ودارسين، فأقدمت سنة ١٩٦٣ على نشر الأطروحة كتاباً، بعد إضافة فصول جديدة إليها، وقد قدم للطبعة الأولى الدكتور البستاني، رئيس الجامعة اللبنانية آنذاك، وكان هدفي من نشر هذا الكتاب، أن أضع أمام القراء والدارسين أمرين اثنين:

ـ هيكلاً متكاملاً لحركة الفكر والأدب في جبل عامل، منذ نشأتها حتى عصرنا الحاضر.

ـ ثبتاً جامعاً للمصادر والمراجع عن هذه الحركة، تسهيلاً للباحثين والمتتبعين الراغبين في دراسة التراث العاملي، مؤملاً أن يكون هذا الكتاب منطلقاً لغيري من الدارسين، فيكمل عملي بأعمالهم.

والحق إن شعور الغبطة والارتياح يغمرني، كلما ازداد عدد الباحثين، والمتخصصين بوضع الدراسات والأطروحات، سواء أكان ذلك في لبنان، في إطار الجامعة اللبنانية وجامعة القديس يوسف، أم في خارج لبنان، في مصر وإيران وفرنسا وأميركا، وكل هذه الدراسات تتناول التاريخ العاملي، والفكر العاملي، والأدب العاملي، في قضاياه وأعلامه، وفي مراحله وشخصياته، لتحقق ملامحه، عبر تاريخه، ولتكشف عنه ما أطلقت السنون، بعشرات المؤلفات في الموت والحياة والبحث العلمي، العلمي المنهجي، لا جعل حقيقة الاعتراف والتعرف بالتراث العاملي، ويجيب السؤال عن عدم انتشار هذا التراث تحقيق، وإسهام العاملين في العطاء الفكري في لبنان، وفي العالم العربي بالتأكيد، ففي جبل

عامل، لبنان حكى، ولغة الضاد عبرت وتعبر اليوم بصوتها الجهير.

واليوم، وبعد مرور ثمانية عشر عاماً، على صدور الطبعة الأولى، نرى الأسباب نفسها التي دعتنا لوضع هذا الكتاب، تدعونا لنشره في طبعته الثانية، فالبواعث ما زالت هي إياها ثقافية ووطنية.

فقد راجعنا العديد من القراء والدارسين، كما راجعوا الدار التي نشرت الكتاب، طالبين إعادة طبعه، بعد نفاد نسخ الطبعة الأولى، وها نحن نستجيب للطلب، آملين أن يظل هذا الكتاب ـ كما هو في رأي بعض الباحثين ـ المدخل للتراث العاملي، والدليل الأمين إليه، والمختصر النافع لمن يريد، فيؤدي المهمة الثقافية التي وجد من أجلها.

وفي يقيننا، أن أي دراسة تتعلق بالجبل العاملي، وهو اليوم يجتاز أصعب ظروفه التاريخية، التي تطال مصيره، وتمتحن وجوده، هي استجابة وطنية قبل أن تكون ثقافية، خاصة وأن الجبل العاملي كان المجاز الذي عبرت منه، وتفاعلت فيه، أعرق حضارتين في الدنيا، وأوسعها انتشاراً على الأرض، عنيت المسيحية والإسلام.

وإن الكلام على تفاعل هاتين الحضارتين في لبنان، لا ينفصل عن الكلام على بقعة المجاز الحضاري، عنيت الجبل العاملي، الذي لا بد من إبراز الأهمية الحضارية التي يمثلها، بإقامة الدراسات، ونشر الكتب، وتوسيع الأبحاث، التي هو محورها، علنا نتمكن أن نبرز أمام العالم العربي والأجنبي الدور الحضاري للبقعة العاملية، فيهبوا للمحافظة على الجبل العاملي، حصن لبنان في جنوبه، حفاظهم على الحضارة المشتركة، والتراث الواسع.

آملاً أن أكون بهذه الطبعة الثانية، قد أديت قسطاً من المسؤولية الثقافية ومن الواجب الوطني في آن، كما قصدت في الطبعة الأولى، والله المستعان!

جنوب لبنان، الخامس من أيار ١٩٨١

محمد كاظم مكي

مُقـدّمَة الطّبعَة الأولى[١]

منذ أفاق لبنان من غفوة التاريخ ، فتح على الحرف عينيه ، وحمل الكلمة الى الغرب معلماً ، فأدى بها اليونان للعالم فلسفتهم ، واوروبا ثقافتها ، وبسري الانشاد نظم ملاحم وقصائد أودعهـا التاريخ في رأس شمرا لتظل حديثاً على لبنـان الشاعر منذ صباح الدهر [١] .

وعلى شاطئه ترامت حضارات هي الصفوة في مدنية العالم القديم ، وسن قبل ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام شرعة الرفق بالحيوان ، وألف التعليم الجامعي قبل ألف وسبعماية سنة [٢] . ففي مدنه قامت معاهد علم راقيـة بيروت منه (تميزت على غيرها بأنها كانت مركزاً لأشهر معهد للقانون الروماني) يدرس فيه اولبيان ابن صور السـاحلية التي قدمت مكسيموس في القرن الثاني وفرفريوس في القرن الثالث للميلاد [٣] .

لبنان في الوقت الذي كان فيه الغرب مركز الثقل في دنيا المعرفة منذ القديم كان مركز اشعاع وما زال الى اليوم ليستند الى (ستة آلاف سنـة من الصبر والفكر وامتهان المادة والكفران بالذات والتطلع الى فوق والتريث بالبـادرة قبل وعي لكل) [٤] .

وفي النهضة الحديثة للفكر العربي كان وما يزال لبنان في طليعـة الرواد ، يعطي بحرارة ويبذل باخلاص ، بين أبناء الضاد كلهم اليوم في نتاج الفكر ، وحده

١) أسد رستم محاضرات : النهضة العربية في لبنان ص ٢٨ .
٢) فؤاد افرام البستاني تاريخ التعلم في لبنان محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٢ .
٣) نبيه أمين فارس مجلة الأبحاث السنة الثالثة عشرة ٢/٢٥٤ .
٤) سعيد عقل . قدموس المقدمة صفحة ٢٢ الطبعة الثانية .

سامت القمم .

بين إسهام في حضارة القـديم ، وبذل بناء للعطاء الحديث تبرز في تاريخ لبنان حلقة مفقودة طويلة في مداها الزمني إنها الفترة بين قديم العالم وحديثه في التاريخ ، إنها زمن عصوره الوسطى ، هل توقف الإشعاع وتضاءل مد العطاء في لبنان منذ نزل اللسان العربي في ربوعه حتى مطلع النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر ، قرابة عشرة قرون من الزمن ، فراغ متطاول في مداه ، هل يسمح للبنان أن يبقى جديراً بتسميته وطن الإشعاع ؟

هذه الفترة وإن أغفلها تاريخ الفكر والثقافة فلم يغفلها عطاء لبنان ، إن جبل عامل طوال هذه الحقبات من الزمن تحمل مسؤولية العطاء فما انقطع الإشعاع في أرض الوطن بجراه .

وجبل عامل بقعة غامضة التاريخ ، منسية الأدب ، مهملة في مفاخر لبنان ، تآزر على نسيانه طبيعته المعتزلة ، وتقيته المذهبية ، فراراً من طغيان الحاكم ، راغباً أن يحيا في خفية ، وأن ينتج لنفسه ما كانت المفاخر هم ذاته ، وانما كان عليه أن يؤدي واجبه فتقر عينه إن استطال مذهبه على البقـاء ، وأمن عاديات الحاكم فما تطلب يوماً من التاريخ أن يشار له بالبنان ، حسبه من بقـائه أن يبقى سالماً ومن حياته أن يداوم آمناً .

ما عاش على هامش العطاء ، وانما على هامش الجلبـة وصخب التاريخ ، فاستنفذت من ابن الشرق العربي طاقته إزاء التنافس الحـار على السلطة ، إبان القلق الاجتماعي والسياسي وعصور الانحطاط ، بينما سفح العامـلي جهوده على أعتاب العلم ، فدون شبح التاريخ صخبهم ، وصمّت أذناه عن الجهد المتئـد . بالنسبة للانسانية جهدهم على السلطة ذهب مضاعاً ، أما في الجبل العاملي فقد أصبح لنا اليوم منه في لبنان كنز مفخرة ، يطلع علينا بغنى حضاري يضاف الى إرثنا العريض .

ولقد شكل نتاج الفكر في جبل عامل لنفسه ميزات اكتنزها من واقعـه وعبر التاريخ . لقد أعطى يوم توقفوا عن العطاء ، وبذل في سبيل ذاته عصامياً ، مترفعاً عن التزلف ، فكان الصدق في العاطفـة ميزته الأولى ، والتجرد في العلم

خاضعاً لا تباری ، يوم عفر الفكر جبينه على أعتاب الحاكم ، واختفى الأدب عنتاً في كنف ثلاثة العاربات ، فاستتبع على الجديد ، يوم تطاول الأدب في الحياة ربيباً للقصور .

في سبيل الكشف عن الحلقة المفقودة والعطاء الضائع أضع كتابي هذا ، وفي ضميري إلحاح رغبة في تقديم خفايا النتاج اللبناني في جبل عامل ، من أدب ما تعرض له التاريخ بهمسة وعطاء فكر ، لو عرفناه لأكدنا وللأزل أن لبنان بلد الإشعاع الدائم .

وغاية الكتاب هي التي تملي طريقة البحث والعمل ، وبما أن حركة الفكر والأدب في جبل عامل ، مستجدة الدراسة كان لا بد من عرض هذا النتاج وتبيان خصائصه بمباشرة النتاج نفسه ، وبذا يلزمنا دراسة الأعلام في بذلهم الفكري ونشاطهم الأدبي . وقد تنقلت الطريقة بين عرض مجمل تارة ومفصل حيناً لابراز مناحي الجمال في الشعر والأنق في الفكرات ، وجديد الثقافة ، كل هذه الطرق تنضوي تحت غاية الكشف وإثبات وجود حركة العقل والعاطفة في جبل عامل فكراً وشعراً ودوام الاشعاع في لبنان .

ان تفرد هذا الجبل بحثاً خاصاً ليس عملاً إقليمياً ، وليس هو دعوة جاحدة للوطنية ، بل هو في صميم الاخلاص والاعتزاز ، ولاعجب فأقلام كتابنا اليوم تتناول بالبحث شخصاً فرداً ، وانساناً واحداً ، ولا يعتبر عملها المتناهي في الفردية ، وهو من دواعي الاختصاص – اقليمياً أو شخصياً ، انما هو الآن دراسة جهد بشري غير مضاع ، ورافد يصب في يم العطاء اللبناني ، إنه جزء من بذل العرب والانسانية ،

فهو أدب وفكر البيئة المعتزلة الصامتة ، والانسان الذي يتداول التقية حبة البقاء ، ويخلص للعقيدة بالعلم .

وقد ألفت تسمية دراستي هذه بالأدب العاملي ، فقد أنتج الجبل أكثر في الفقه والتشريع والفلسفة والعلوم ، ثم هو نشاط الفكر والشعر في جبلنا من لبنان وباللسان العربي فهي اذاً حركة فكرية وأدبية قامت في الربوع الجنوبية من لبنان.

الفَصْلُ الأوّل

مَوطن الحَركة وَاطارها التّاريخي

أ – موطن الحركة :

- أصل التسمية .
- الحدود العاملية .
- طبيعة الأرض وجمال البقعة .
- السكان والعنصر الفارسي في لبنان .

ب – الاطار التاريخي

موطن الحركة

اصل التسمية :

في جبل عامل ، الجنوب اللبناني اليوم . قامت حركة فكرية ونشاط أدبي منذ اكثر من عشرة قرون ، ومازال العطاء مستمراً ينمو ويزدهر على غير توقف وانقطاع .

وسمي موطن الحركة جبل عاملة ، أو جبل عامل على الأغلب – تخفيفاً لكثرة الاستعمال – نسبة لعاملة القبيلة القحطانية التي نزلت الديار الشامية عندما هاجرت من اليمن بعد سيل العرم . مع من هاجر من قبائل الجنوب ، كلخم وغسان وجذام ، وهؤلاء اخوة لعاملة ، وهم جميعاً أبناء سبأ بن يعرب بن قحطان [1] .

ويبدو أن القبيلة سكنت أولاً الجنوب الغربي من بحر الميت ثم بدأت تسلك السير صعداً نحو الشمال فبعد الفتح الاسلامي بقليل حلت القسم الأعلى من جبال الجليل ، الذي سمي منذ ذلك الحين جبل عامل [2] . وبعدها بقرون قليلة انتشرت القبيلة في بلاد الشقيف من جنوب لبنان اليوم [3] .

الحدود العاملية :

وهو هذا الجبل القائم على ساحل البحر الأبيض المتوسط في الامتداد بين صيدا وصور وأبعد ، ينتظم آكاماً تطرد ، وتلالاً تتماسك وتتالى ، وتبالغ في العلاء كلما اتجهنا شرقاً حتى تلقي برأسها في أحضان جبل لبنان عند سفوح التومات .

---

١) الزبيدي تاج العروس ٨/٣٥ – القلقشندي – صبح الاعشى ١/٣٣٦ – الاصفهاني – الاغاني جزء ٨ قسم ١/٣٥١

٢) Encyclopédie de l'Islam. A I/330

٣) » » » 330-331

وجبل عامل في ماضيه أكثر اتساعاً منه الآن [1] فقد اشتط في امتداده نحو الجنوب حتى أشرف على طبرية محاذياً للاردن وباتت جبال الجليل تنمى اليه وهي الاماكن الاولى التي حلتها قبيلة عاملة . وفيما يستفاد من تراجم الرجالات والاعلام ، وتوجيه نسبة العاملي ، ما يسمح بأن نضيف اليه صيدا وصور في الساحل ، وجزين ومشغرة في الجبل . ولتعيين مكانه واتساعه يشير بيت من الشعر جاء في هجاء الشاعر العاملي عدي بن الرقاع :

ولسنا نبالي نأي عاملة التي أجد بها عن أرض بصرى انحدارها [2]

وعلى هذا يتحدد مدى البقعة العاملية حسبما يجمع المؤرخون ممن تصدى لتحديد [3] الأرض العاملية التي يشير اليها الخط الذي يبدأ في الشمال عند مصب نهر الأولي ويعتبر هذا النهر الفاصل بين جبل عامل وبلاد الشوف [4] . وينطلق الخط من المصب حتى تومات نيحا ليتجاوز روم وجزين وينحدر بعدها الى مشغرة حتى يتصل بنهر الليطاني شمالي قرية سحمر ثم يتابع حتى ينبوع الحاصباني ويتبع مجرى هذا النهر حتى ينتهي عند بحيرة الحولة ، ويسلك الخط ضفتها الغربية ، ثم ينعطف غرباً حتى مقام النبي يوشع وينتهي عند مصب وادي القرن ، وعلى هذا تتشكل الحدود كما يلي : نهر الأولي شمالاً ، ونهر القرن الجاري شمالي قرية طير شيحا جنوباً ، والبحر بين هذين الحدين غرباً ، ومن الشرق الحولة ووادي التيم والبقاع . وتزيد مساحة الجبل على ثلاثة آلاف كيلو متر مربع ، فمتوسط طوله نحو ثمانون كيلو متراً أما متوسط العرض فهو اربعون [5] .

طبيعة الارض وجمال البقعة :

الجبل العاملي منبسط يشتمل على هضاب متعددة ، وأودية كثيرة وسحيقة ،

---

١) ياقوت الحموي – معجم البلدان ٢/١٤ و ٥/٤٣٠ .

٢) اي بصرى الشام ، والارض العاملية تنحدر عن بصرى متجهة نحو البحر .

٣) احمد رضا / العرفان ٣١/٣٧ – ٣١/٢٢٠

٤) انظر الخارطة الملحقة بتاريخ بيروت لصالح بن يحيى

٥) احمد رضا العرفان ٣١/٢٢٠

وجبال يشارف بعضها الألفين من الأمتار علواً كقمم التومات وجبل الريحان وفيه سهول داخلية وساحلية عندهـا أنهار وجداول .. وينقسم الجبل الى قسمين [1] قسم شمالي يدعى بلاد الشقيف الواقعة بين نهر الزهراني شمالاً ونهر القاسمية جنوباً وقسم جنوبي يسمى بلاد بشارة وهي تشمل المناطق التي تلي القاسمية ، ومن صور شرقاً وجنوباً .

وعلى هضاب هـذا الجبل تنتثر قرى ومزارع يخيم عليها سكون دائم ، وفي التلال قباب صوامع للنساك العباد رابضة في القمم كشارات ايمان ، تضفي على تلك البقعة روحانية وجمالاً خاوياً ، فعلى قمم تلالنا مقامات أنبياء من يوشع جنوباً الى سجد وصافي وأبي الركب في الشمال الشرقي ومقابر صالحين وأديرة للنساك ، ففي جبل عامل اليوم أكثر من عشرين قرية تبدأ بكلمة دير ، عدا المقامات العديدة وقرى اسمها ظاهر بنسبته للأولياء والصالحين [2] ، وكثير من هذه المقامات عائد الى أديان مختلفة وعديدة ، تشير الى ان هذه البقعـة كانت موطن حضارات قديمة [3] .

وعلى الروابي وعند الشواطىء قلاع عديدة ترقى الى فترات من التاريخ البعيد والقريب ، والبقعـة على جمال ساحر ، هو وليد التناسق الخلاب بين الهضاب والتلال ، رتابة مستحبة في مرتفعاته ، لا تجد إلا تلالاً متواضعة الارتفاع عندها أودية لا تبالغ في العمق ، وسهول منبسطة في الامتداد ، مخضرة الجنبات ، جارات البحر من التلال تشرف على مناظر ولا أجمل ، بحرها أزرق رجراج ، والباقيات من الجهات روابي نضرة وتتآخى في الشكل والمظاهر ، عدد وافر من زوار الجنوب اللبناني الأجانب أعجب بجمال الجبل العاملي ، فحرك فيهم نفحة الأدب [4] .

سكان الجبل :

قد يتبادر الى الذهن لأول وهلة أن السكان في الجبل العامـلي كلهم عرب

١) فانديك ، المرآة الوضية ص ٢٠١ .
٢) محسن الأمين خطط جبل عامل ٢٢٣/١ - ٢٢٥
٣) E. Renan. Mission de phénicie page 130
٤) D. Lortet. la Syrie d'aujour d'hui p. 130

خالصو الدم لأنهم ينتمون الى عاملة القبيلة العربيـة الواضحة النسب ، إن جبل عامل كان عرضة لهجرات عربية ، ونزوح جماهير أجنبية اليه ايضاً ، خـلال العصور الطويلة منذ حلت عاملة فيه حتى يومنا هذا ، ومن الصعب جداً أن نقف في الحاضر على شعب حقق لنفسه صفاء الدم ووحدة العرق [1] .

العنصر الفارسي :

ولكن كثيراً من الباحثين والمؤرخين يعزون السكان في هذا الجبل الى العنصر الفارسي لما يلاحظونه من وحدة المعتقد بين أهليه والشيعة في ايران ، وكذلك يردون الى هذا العنصر الفارسي سائر الشيعة الموجودين في لبنان [2] . ويذهب بعض المؤرخين والباحثين الى أن الشيعة أوائل أتوا من البلاد الفارسية بعد هجرات عظيمة في القرن الثالث عشر الميلاد فقد كان (المتاولة في لبنان يحفظون شعار الرأس التركماني) [3] واعتقد رنان أن بعض العائلات في جبل عامل نقلها معه صلاح الدين الايوبي وهي كردية الأصل [4] . والى هذا اتجه الأب لامنس في اول أمره [5] ليقول ان (مما يشير الى هذا الزعم نص نشره « Christie » وهو في اللغة العربية الجارية في بلاد الجليل العليا [6] لما في الكلام من آثار اللفظ الفارسي .

إننا أمام هذه الادعـاءات نضطر لأن نمضي في التحقيق والبحث عن صحة هذه المزاعم التي أوردوها . إن الأب لامنس وجـد اول امره أسباباً تدعوه الى رد الشيعـة في جبل عامل الى الأصل الفارسي فقد حاول أن يعزوهم الى الفرس الذين أسكنهم معاوية في السواحل اللبنانية وهؤلاء كانوا جنوداً مرتزقة قبل ان يقيموا في بلاد ما بين النهرين وقد دانوا بالاسلام ظاهراً وظلوا وأبناءهم غرباء عن المجتمع العربي إذ بقوا موالي ، وكانوا يلبون الدعوة الى الثورة وينصرون كل من

١) علي الزين مع التاريخ العاملي ص ٣٤ ، ٥٣ - خطط جبل عامل ج ٥٩/١ .
٢) الشدياق اخبار الاعيان - ٢٠٦/١ .
٣) Lortet . La Syrie d'aujourd'hui P. 116
٤) Renan. Mission de phénicie P. 633
٥) Lammens : Sur la Frontière nord de la terre promise. P.6et46
٦) المشرق ٢٠/ ٧٣٣ .

حاول القيام بحركة ولاسيما بعد موت علي (١) . وقد كان الروم يهددون والمردة السواحل اللبنانية فعمل معاوية على تهدئة العراق وتأمين سورية بوقت واحد فسير الفرس الى السواحل اللبنانية وعهد لهم بحفظها .

ثم واجع الأب لامنس عن رأيه وحاول دحض مزاعم سابقيه من المستشرقين المذكورين أعلاه ، والذي يثبت بطلان ادعاء هؤلاء ، ومزاعمهم بأن مجيء الشيعة الى لبنان كان في عهد صلاح الدين الأيوبي هي الوثائق التاريخية التي تحكي عن الشيعة في جبل عامل منذ عصور سبقت العهود الصليبية فقد كان هناك شيعة لهم صلات بشيعة العراق ، والمذهب الامامي وهذا ما يثبته رثاء عبد المحسن الصوري (قرن ٤ هـ - ١٠ م) للامام المفيد المتوفى في بغداد ، وهو النعمان (٢) .

يا له طارقاً من الحدثان ألحق ابن النعمان بالنعمان
صيحة أصبحت تبلغ اهل الشام صوت العويل من بغدان

ولهذا أشارت رحلة ناصر خسرو عام ٤٣٧ هـ بالقول (وأكثر اهل صور شيعة والقاضي فيها سني المذهب) وفي طرابلس (جميع اهل هذه البلدة شيعة والشيعة في جميع البلاد بنوا مساجد لطيفة) (٣) . ولهذه الحقائق الواردة في رحلة ناصر خسروا أشار الأب لامنس (٤) .

اما فيما كان قد زعمه لامنس فاننا لانجد مجالاً للكلام بعد أن رد الاب لامنس على نفسه ، بعد تساؤله في أول أمره : الا يمكن الأخذ بنظرية الأصل الفارسي او العراقي بأن ننسب المتاولة الى الجماعات الفارسية التي جلاها معاوية الى لبنان يقول لامنس (لقد خلنا هذا الأمر فيما مضى (٥) ، ذاكراً الأسباب التي دفعته الى التردد في أخذ هذا الرأي ، وانكاره له نوجزها بالأمور التالية :

١) المشرق ٦٣٧/٣٠
٢) أعيان الشيعة ١١١/٣٩
٣) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٤٨ مخطط جبل عامل ٦٧/١ .
٤) المشرق ٧٧٢/٣٠
٥) المشرق ٧٧٤/٣٠

١) في زمن معاوية لم تكن الشيعة قد كونت بدعة دينية مستقلة كما نراها بعد ذلك .

٢) ان انشاء الحزب العلوي يعود الى العرب لا الى الفرس كما يزعم بعض المستشرقين فالعرب لم يكونوا يعتبرون الفرس الا موالي .

٣) كان المدافعون عن أهل البيت في تلك الحقبة عرب خلص كالمقداد والاشتر وأبي ذر وعمار .

٤) ان شعراء الحزب العلوي في الـ ١٥٠ سنة الاولى امثال الكميت وكثير والسيد الحميري ، كانوا عرباً متعصبين لاصلهم معاكسين للشعوبية .

٥) اشترط الفرس ان لا يتدخلوا بالنزاعات القائمة بين العرب بعد اعلان اسلامهم (١) .

ولعل الاب لامنس قد أخذ فكرة مجيء الفرس الى لبنان عن البلاذري في تاريخه (٢) . وفي الواقع لم يكن هؤلاء الفرس من انصار علي ولا من أنصار معاوية ، ولو كانوا يؤيدون علياً لكان من الأولى لهم أن يخوضوا معاركه الفاصلة مع معاوية ولكنهم (أقاموا مع المسلمين يقاتلون المشركين ولم يشهدوا معهم الجمل ولا شيئاً من حروبهم ...) (٣) .

ويبدو لامنس بعد ذلك وقد تخلى عن فكرته القديمة يؤيد بعض الآراء القائلة بإصالة الشيعة في هذا الجبل ليقول « وبينما نحن ننتظر ابحاثاً جديدة لا نرى بأساً في الموافقة على ماقال ايبرس (Eberse) وكوطه (Guthe) في الموضوع وهو (من الممكن ان يكون المتاولة اعتزلوا عن سائر سكان لبنان وانكليلبنان بسبب معتقداتهم الخاصة وانهم لايمثلون قطعاً بقايا أمة كبيرة (٤) .

وقد قال Volney بهذا الرأي قبل لامنس، ويبدو أن لامنس لم يطلع عليه.

وبعد أن يتحقق لامنس من دراسة العناصر الساكنة في جبل عامل يخطو

١) المشرق ٧٧٥/٣٠ - ٧٧ . ٣) المرجع نفسه ٥٢١ .
٢) البلاذري فتوح البلدان ١٦١ و ٢٠١ و ٥٢٢ و ٥٢٤ ٤) المشرق ٧٧٨/٣٠ .

خطورة جديدة بإقلاق بحر أو وضوح (يجب ان نعد بقية عاملة من سلفاء متاولة لبنان) [1] وكان قد قال في بحث سابق له « متاولة بلاد الشام يتعلقون كالفرس بالمذهب الامامي أو الاثني عشري ولكنهم من عناصر شامية أصيلة » [2] . أما زعم « Christian » في أن لغة العامليين العامية فيها آثار من اللفظ الفارسي فقد يكون أمراً نتج عن اتصالهم بجامعات النجف وكربلاء وزياراتهم لحواضر الشيعة التي اكثرها من سكانها فرس [3] . فقد كانوا يقصدون هذه الحواضر صغاراً طلباً للعلم ويعودون للوطن بعد اكتهالهم .

هذا وان منشأ التشيع في الاسلام ليس فارسياً وانما كان على ايد عربية ولقد أبانت لنا مباحث فلهاوزن بصورة أدنى الى الصواب ان مذهب الشيعة ليس كما يعتقد البعض رد فعل من جانب الروح الايرانية يخالف الاسلام ومما يؤكد ابحاث فلهاوزن التوزيع الجغرافي للشيعة في القرن الرابع [4] .

ولقد كان التشيع في ايران متأخراً عن التشيع في البلدان العربية اذ كان غالباً حتى القرن الرابع الهجري في الكوفة وسائر الجزيرة العربية ما عدا المدن الكبرى كتهامة ومكة وصنعاء [5] . والتشيع في فارس كان على السواحل القريبة من العراق لاتصالهم بالعرب المتشيعين أما في الاقسام الباقية فقد كانت الغلبة للسنة الا أهل قم والسبب في تفردها انه قد احتلها من قبل أصحاب ابن الاشعث وكان رئيسهم قد أدب ابنه في الكوفة [6] التي رحل عنها كثير من العرب الى قم ، وكذلك كان في قم قبر ابنة الامام الرضا المدفون هو نفسه في خراسان من أقصى ايران . أما اصفهان فقد كان في أهلها بله وغلو في معاوية ويحكي المقدسي في كتابه (ص ٣٩٩) أنه وصف له رجل بالزهد والتعبد فقصده

١) المشرق ٢٠/٢٢٨ .
٢) La syrie à la page 182.
Lammens . Précis historique .
٣) مع التاريخ العاملي ص ٥٥ .
٤) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز ١/١٠٢ .
٥) المرجع نفسه ص ١٠٣ .
٦) الحضارة الاسلامية : متز ص ١٠٤ .

ليسأله قرآءة يقول بأن معاوية نبي مرسل [1] . ولقد كانت فارس مركزاً غلب عليه أهل السنة ، واحتوت حواضر علمية نبغ منها الكبار في التشريع الاسلامي ، ولقد كانت بخارى ونيشابور وهي المراكز العلمية الكبرى في ايران ونبغ منها في القرنين الاولين بعد الهجرة أئمة المذاهب السنية ، وائمة الأدب منهم احمد بن حنبل المرزوي صاحب المذهب الحنبلي ومحمد بن اسماعيل البخاري صاحب الصحيح وابو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه الاصفهاني صاحب المذهب الحنفي والمتوفى سنة ١٥٠ هـ [2] .

وعلى هذا يبدو التشيع في جبل عامل بعيداً عن التأثر الفارسي ولقد كان التشيع فيه قبل القرن الرابع [3] الهجري في الوقت الذي كانت فيه إيران سنية المذهب في غالب بقاعها. ويذكر آدم متز أن المناطق القريبة من جبل عامل كان أهلها شيعة، وكان اهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة، ولا أدري كيف كان ذلك ، ورغم قيام الدولة الفاطمية نلاحظ ان حزب الشيعة لم يتقدم إلا قليلاً [4] . واذا عرفنا ان لرواد التشيع في الاسلام وصحابة النبي والإمام علي مقامات في فلسطين والاردن ففي السهوة مقام لسلمان الفارسي ، وفي اللجاة لعمار بن ياسر [5] عرفنا مصدر التشيع في طبرية ونابلس وقدس . وهذا ما يتآزر مع الروايات القائلة بأن التشيع في جبل عامل كان قد قام على أثر علاقات بسيطة أو زيارات الصحابة وكبار الشيعة لهذا البلد كأبي ذر الغفاري [6] وسلمان الفارسي الذي زار دمشق ثم جاء الى بيروت ليسأل عن صاحبه ابي الدرداء المرابط

١) المرجع نفسه ص ١٠٤ .
٢) رحلة الزنجاني ٣٧١ .
٣) شكيب ارسلان العرفان ٢/٤٤٩ .
٤) الحضارة الاسلامية ١/١٠٣
٥) عيسى اسكندر المعلوف – دواني القطوف ص ٣٨ .
٦) الحر العاملي : امل الآمل ص ٣ .

فيها [١] . وعلى هذا يكون التشيع قديم العهد في جبل عامل ولعل وجود مقامين لأبي ذر الغفاري في كل من الصرفند وميس الجبل في جنوب لبنان ، يدل على بذر الغفاري لبذور التشيع في هذا الجبل .

•

الاطار التاريخي

لسنا بصدد وضع تاريخ عام لجبل عامـل ، كل ما يرجى هو ان نوضح قدر الامكان الاطار الزمني الذي أحاط بالبقعة العاملية منذ حلت عاملة فيه ، ومنذ نسب اليها ، ولا مجال لنزعم بأن العامليين كان بوسعهم إقامة دولة ذات سياسـة وأنظمة بتشكل عنها بعد ذلك تاريخ سياسي [٢] مستقل ، ولكن الذي يلقي عليه التاريخ ضوءاً فيبدو واضحاً هو ان العامليين استطاعوا مؤخراً الاحتفـاظ بمقاطعاتهم ردحاً من الزمن في ظـل مشايخ اقطاعيين يؤدون للسلطات العليا التي تحكم سورية مراسم الولاء بالطاعة ودفع الجزاء .

والتاريخ السياسي لجبل عامل هو التاريخ السياسي للبنان بأجـله بل للشام عامة أما التاريخ الخاص والداخلي فهو تاريخ القرى والحواضر وتاريخ الأعيان البارزين في هذه المنطقة ، ويبدو انه لابد من رسم حدود التاريخ السياسي للجبل العاملي ، لما يكشف عن اثر الأوضاع الاجتماعيـة والسياسية في الحركة الفكرية والأدبية هنا وإن المصادر التاريخية لا تقدم للباحث إلا شذرات قليلة عن عاملة وجبلها وسكانها وتاريخهم السياسي .

ومنذ حلت عاملة بر الشام كانت كما يبدو موالية لدولة الروم كاخوانهم الغساسنة في جلق . (وقد توجه رسول الله الى تبوك من أرض الشام لغزو من

١) تاريخ ابن عساكر ج١/٤٠٢ .
٢) مع التاريخ الشامل صفحة ٦٠ .

انتهى اليه انه تجمع له من الروم وعاملة ولخم وجذام وغيرهم وذلك في سنة (٩ للهجرة [١]) وبعد الفتح الاسلامي تصبح بلاد عاملة جزءاً من جند فلسطين [٢] . ويهتم الفتح بالسواحل اللبنانية و كذلك الدولة الاموية توليها العناية لحاجتها اليها في الفتح البحري . ويرمم معاوية وعبد الملك صور وعكا ، وقد كانت صـور المرفأ الرئيسي عهد بني مروان [٣] . ثم دخل لبنان في عهد الدولة العباسية ، وبعدها قضى نحو ثلاثة قرون باضطراب دائم إثر تطاحن الاخشيديين والطولونيين والحمدانيين في سهوله وسواحله [٤] . وفي عهد الفاطميين قامت ثورة في صور أعلنها احد بحارتها المدعو علاقة مطالباً بالاستقلال عام ٩٩٧ م . ثم تغلب الفاطميون عليها في نهاية القرن الخامس الهجري ، ثم يبرز جبـل عامل كوجه جديد في التاريخ بقلاعه في تبنين وهونين ، وكانت أراضي الجبل وسواحله مسرحاً لمعارك عديدة نصرها سجال بين العرب والصليبيين حتى سنة (٥٨٤هـ-١١٨٨م) يفتحها السلطان صلاح الدين تبنين وهونين بالأمان وكذلك شقيف ارنون وصفد [٥] وتتالى بعدها الحملات الصليبية والقلاع العاملية تبقى هدف ضرباتهم .

ولما حل المماليك في بلادنا كان بينهم وبين الصليبيين حروب وتطاحن تخوف المماليك من الصليبيين المقيمين في الجزر القريبة من الساحل اللبناني فهدموا الموانيء [٦] . (ففي عام ٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م) طرق صور زهاء عشرين مركباً من الفرنج نهبوا مافيها فادركهم ابن بشارة مقدم العشير بالبلاد الشامية فقاتلهم قتالاً شديداً حتى أزاحهم عن البلد) [٧] .

وفي سنة (٩٢٢هـ-١٥١٦م) أصبح جبل عامل كسائر المناطق الشامية داخلاً

١) البلاذري فتوح البلدان ص ٧٩ .
٢) خطط جبل عامل ١/٣٧ .
٣) البلاذري ١٦٠ - ١٦١ .
٤) النهضة العربية في لبنان محاضرات اسد رستم صفحة ٧ .
٥) كرد علي خطط الشام ٢/١٩ - ٢٣ .
٦) محاضرات اسد رستم صفحة ٨ .
٧) كرد علي خطط الشام ٢/٢٢٩ .

في حكم العثمانيين الاتراك .. وقبل نزولهم كان يحكم جبل عامل حسام الدين بشارة وانتقلت إمارة البلاد بعده الى محمد بن هزاع الوائلي من عشيرة عنزة . وابن هزّاع هو الجدّ الاول لآل علي الصغير . وفي عهد الاتراك كانت مقاطعات جبل عامل تارة مضمومة الأقسام يحكمها أهلها ، وتارة مقسمة يُضم الجزء الجنوبي الى صفد والشرقي الى بانياس وكلها تابعة لإيالة الشام . لأن صيدا لم تصبح إيالة إلا في عام (١٠٧٠هـ - ١٦٦١م) ففي هذا العام أصبح الجبل العاملي تابعاً لصيدا[١] . وفي عام (١٠١٨هـ - ١٧٠٨ م) يتبع جبل عامل الى جبل لبنان وحكامه المعنيين ، وتقوم بينهم وبين العامليين معارك لمدة نصف قرن من الزمن ظهر خلالها الزعيم الوائلي مشرف بن علي الصغير سنة (١١١١هـ - ١٦٩٧ م) معلناً الاستقلال .

وفي عهد الشهابيين ظلت المعارك كما هي مع العامليين حتى قام الجزار وقضى على سطوتهم بقتل زعيمهم ناصيف النصار (١١٩٥هـ - ١٧٨١م) ثم يعود العامليون الى سابق عهدهم من الاستقلال بعد وفاة الجزار (١٢١٩هـ - ١٨٠٤م) وعندما يحاول الشهابيون بمعاونة المصريين حكم جبل عامل والضغط عليه تتوالى الثورات فتقوم ثورة بقيادة حسين الشبيب (١٢٥٦هـ - ١٨٣٦م) ، وثورة حمد البك سنة ١٢٦٠هـ - ١٨٤٠ م . ويحكم هذا الاخير البلاد باستقلال تام ، ويخلفه ابن أخيه علي الاسعد (١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م) وبعدها تصبح البلاد تابعة للحكم التركي مباشرة[٢] وتقسم الى ثلاث قائمقاميات هي مرجعيون وصيدا وصور تتبعها مديريتان هما النبطية وتبنين ، وبعد الاحتلال الفرنسي جعلت صيدا متصرفية ثم أبدل الاسم فأصبحت محافظة وتبعها جبل عامل[٣] ، حتى انتظم في دولة لبنان الكبير وهو اليوم يشكل الجنوب من الجمهورية اللبنانية .

---

١) محمد جابر العرفان ٢٦/٧٢١ .
٢) القلب جبل عامل في التاريخ ٢/٥٠ - ٢٠١ .
٣) خطط جبل عامل ١/١١٣ - ١١٤ .

الفصل الثاني

عوامل الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل

- الدين والتطلع الى النشاطات الفكرية المجاورة .
- الرحلة العلمية .
- المدارس .
- المكتبات .

عوامل الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل

تعرفنا فيما سبق الى منبت الحركة وحيزها الطبيعي وأدركنا الاحداث الزمنية التي أحاطت بجبل عامل، واحتضنت الحياة العلمية فيه، بقي ان نتساءل هل نشطت الحركة دون مقومات، وهل تابعت متطاولة في الزمن بغير اعتماد على ركائز؟ إننا نعلم أن لكل حركة أسباب وفي ضمير كل نشاط دوافع، والعوامل تتضافر لخلق حياة الفكر وتشكلها والسير بها نامية متجددة، وحركة الفكر والادب منذ بزوغ فجرها في جبل عامل ازدحمت عندها الأسباب وكثرت عواملها بالتتالي يضاف عامل لاحق لسابق، فما هي هذه العوامل الزاخرة بزخم حياة طويلة الأنفاس دفعت الحركة منذ عشرة قرون وحتى الآن تنمو وتعطي. هذه العوامل نجملها: بالدين والتطلع الى النشاطات الفكرية المجاورة – الرحلة العلمية – المدارس – المكتبات؛ نفصلها فيما يلي:

الدين والتطلع الى النشاطات الفكرية المجاورة:

عرفت السواحل اللبنانية الإسلام مع الفتح، وفي أساس العقيدة الاسلامية ضرورة تعلم الكتاب وأحكام الشريعة فالعلم والدين يبدوان متساوقين في الوجود، ولكننا لا نقع بعد الفتح في حواضر الساحل مظاهر حركة تعليم ديني في القرنين الأولين عدا بروز اسم هشام بن الغازي بن ربيعة الجرشي الصيداوي (١٥٦هـ – ٧٥٧م) الذي روى عن مكحول ونافع وابن المبارك [١]. بينما تغرس بذور الوجه الشيعي للاسلام منذ أواسط القرن الاول على أيدي أبي ذر الغفاري [٢] لمّا

١) عارف الزين: تاريخ صيدا ص ٥٣.
٢) كرد علي: خطط الشام ٦/٢٥٢.

سُيّر الى الشام من المدينة مغضوباً من عثمان، فأبعده معاوية فتجول هذا في قرى الساحل والداخل ناشراً دعوته العلوية تاركاً من آثاره حتى اليوم مسجدين، احدهما بالصرفند والآخر في ميس الجبل، وقد كان من عادة معاوية ان يحبس في موضع من هذا الجبل (من يظفر به ممن يتهم بقتل عثمان بن عفان) [١]. ثم تنمو بذور التشيع ويزداد العامليون تعلقاً بالدعوة العلوية ويفسر هذا حديث مرسل ذكره الحر العاملي وهو للإمام الصادق القائل: «اعمال الشقيف ارنون، بيوت وربوع تعرف بسواحل البحار وأوطئة الجبال هؤلاء شيعتنا حقاً [٢]».

وتبرز صيدا وصور والصرفند كقواعد علمية بعد القرن الثاني ويجتمع فيها كثير من محدّثين وحفاظ كابن جميع الحافظ المحدّث الصيداوي وأبي عبد الله محمد ابن علي الصوري [٣] ومحمد بن النعمان بشير بن معن الانصاري الصرفندي، في القرن الثالث، واشتغل بالحديث أحمد بن علي بن مزاحم الصوري حدّث سنة (٣٦٦هـ) وابراهيم الصرفندي حدّث بصور [٤]. ولم يبق العامليون بمعزل عن الحركات الشيعية العلمية في العراق فان أخذهم بالجعفرية مذهباً يفرض عليهم الأخذ برأي الاكثر علماً والأوفر فقهاً، لأن المذهب الجعفري وهو الفاتح للاجتهاد بابه على مصراعيه، يسمح للنموّ المتزايد في حقل العلم والفقه لتفسير المظاهر المستجدة في الحياة، وهذا ما كان يدعو العامليين للاتصال بحواضر المعرفة والفقه الشيعي لتيسير أمورهم الدينية ويشير اليه رثاء عبد المحسن الصوري للشيخ المفيد محمد بن النعمان كما سبق. وكذلك فان الفئات الدينية المقيمة في العراق بذلت الكثير من عنايتها العلمية في جبل عامل، فان الشريف المرتضى صنف لأهل صيدا مسائل فقهية سميت بالمسائل الصيداوية عدا عن تصنيفه المسائل الطبرية

١) ياقوت ٢/١٥٨.
٢) امل الآمل ص ٣.
٣) خطط الشام ٤/٣١.
٤) تاريخ ابن عساكر ٢/١٩٨.

والطرابلسية (١) . وإن أبا الفتح الكراكجي المتوفى سنة ٤٤٩ هـ تنقل في مصر والشام وأقام في طرابلس وصيدا وصور ، ومن مؤلفاته لأخوانه أهل صيدا كتاب أسماه انتفاع المؤمنين وكتاب الاصول في مذهب آل الرسول لاخوانه في صور وقد أقام بينهم (٢) .

ولعل وقوع جبل عامل في حكم الخلافة الفاطمية في القرنين الرابع والخامس الهجري متن صلاتهم الفقهية بالفقه الامامي في الأزهر (٣) وبقيت صور مركزاً علمياً في القرن الخامس والسادس الهجري وقد جاءها نصر بن ابراهيم المقدسي النابلسي فأقام بها عشر سنين وتوفي سنة (٤٩٠ هـ – ١٠٩٧ م) وسليم بن أيوب (٥٤٧ هـ – ١١٥٠) م أحد أوعية العلم،صنف الكثير في التفسير والحديث والفقه ونشر العلم في صور (٤) . وخرج من صور الطبيب رشيد الدين بن علي الصوري (٦٣٩ هـ – ١٢٤٠ م) وقد تردد على القدس ودمشق (٥) . وهكذا يبدو لنا ان هذه المنطقة كانت تساير الحركات العلمية القائمة في دمشق وبغداد ومصر تتأثر بها وتأخذ عنها ، وكانت أحياناً مركزاً علمياً يجتمع فيه فقهاء ومحدثون وحفاظ وأدباء أكثر الاحيان ، وقد كانت مدنه كصيدا وصور والصرفند مما يرحل اليها في طلب العلم وكان جبل عامل قريباً من الشام والرملة وغزة والقدس وكانت هذه مراكز للعلم (٦) . في هذه الحقبة من الزمن كان جبل عامل يمر بدور التطلع الى المعرفة متصلاً بحواضر العلم من جهة ويقصده العلماء من جهة ثانية وكانت الثقافة فيه دينية محضة حتى تمركزت الحركة الفكرية في الجبل منتشرة في جميع أصقاعه في القرن السابع معتمدة على الرحلة العلمية وعلى المدارس القائمة في البيئة العاملية .

١) امالي المرتضى القسم الاول . المقدمة ص ١٥ .
٢) ابن العماد شذرات الذهب ٢٨٣/٣ .
٣) العرفان . سليمان ضاهر ١٢٢/٣١ .
٤) خطط الشام ٣١/٤ .
٥) ابن ابي اصيبعة عيون الانباء في طبقات الاطباء ٣٦٠/٣ .
٦) العرفان ٣١ / ١٢٢ .

الرحلة العلمية :

الأماكن التي رحل اليها العامليون طلباً للعلم كانت حواضر فكرية ومراكز اشعاع منتشرة في العراق وإيران والهند وحيدرآباد ومصر .

اتصالهم بحواضر العراق الفكرية :

ان الحواضر العلمية المقصودة في العراق هي التي تعتمد فقه الامامية وأصوله ولقد بدأت الحركة الفكرية في العراق أولا بحاضرة الكوفة ، وانتقلت منها الى بغداد بعد أن سادت الحرية الفكرية في العهود العباسية الأولى ، وبلغ الفقه الجعفري أوج رقيّه عهد الشريف الرضي والشريف المرتضى في القرن الخامس الهجري وقد كان لابناء جبل عامل صلة بهذا الاخير كما كانوا على صلة بالشيخ المفيد وتلميذه الكراجكي الذي نزل في مدينة صيداء ، وبعد مجادلات طائفية عديدة انتقلت كلية الفقه الجعفري من بغداد الى النجف مع الطوسي (٤٤٨هـ – ١٠٥٧م) ثم مالبث أن انتقل فرع منها الى الحلة القريبة من النجف عهد الأمراء المزيديين من الشيعة سنة (٤٩٥ هـ – ١١٠٢م) ويعتبر إسماعيل أبن الحسين العودي الجزّيني العاملي (٥٨٠ هـ – ١١٩٠ م) رائد الرحلة العلمية الى العراق فلقد وصلها وزار المشاهد المقدسة فيها وأخذ عن حلقات العلماء في الحلة ثم رجع الى بلده جزين (١) . ثم ذهب الشيخ طومان المناري في أواسط القرن السابع الهجري الى الحلة وأجازه علماؤها (٢) . وممن قصد الحلة بعده أيضاً الشيخ صالح بن مشرف جد الشهيد الثاني وهو من تلامذة العلامة الحلّي . وكذلك جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي العاملي تتلمذ على المحقّق جعفر بن سعيد ، وابن الحسام العاملي عز الدين كان تاريخ اجازته سنة (٧٥٣هـ – ١٣٥٢م) من الشيخ فخر الدين ابن المطهّر العلامة (٧٧١ هـ – ١٣٧٠ م) (٣) .

١) محسن الامين اعيان الشيعة ٢٨٢/١١ .
٢) المرجع نفسه .
٣) العرفان ١٢٣/٣١ .

ومن رحل في طلب العلم الى العراق الشهيد الاول محمد بن مكي ومن شيوخه ابن معية (٧٧٦هـ ـ ١٣٦٥م) وقد أجازله ولأخويه ولاخته فاطمة . وما لبثت الحركة العلمية في العراق أن اصيبت بنكسة إثر الحوادث التي نتج عنها سقوط بغداد إذ تراجعت الحركة وتوقفت حتى بداية القرن التاسع الهجري وبعدها استؤنفت من جديد . وهذا ما دعا علماء جبل عامل الى التفكير بإقامة المدارس على الارض العاملية لتسد مسد الحواضر العلمية في العراق . على ان العامليين عادوا الهجرة العلمية الى النجف بعد هدوء الاحوال السياسية ليتخرج ابناؤها على أيدي أساطين الفقه الجعفري وأصوله ، وما زالت الهجرة حتى اليوم تتجدد في سبيل طلب الفقه وعلوم الدين فقط .

الرحلة العلمية الى ايران :

لم تكن ايران في بداية امرها مركزاً علمياً شيعياً بل كانت مدنها العلمية كبخارى ونيشابور مراكز علم سنّية ومنها خرج البخاري وابن حنبل وأبو حنيفة ولم يغلب التشيع على إيران بشكل رسمي ترعاه السلطة حتى عهود متأخرة على يد السلطان اولجايتو محمد خدا بنده [1] وكان القرن العاشر الهجري في عصر الدولة الصفوية في ايران مجالاً واسعاً لبروز علوم الشيعة ، وأصبحت ايران ملجأ الشيعة الهاربين من ظلم الاتراك . وفي هذا القرن توافد العامليون على بلاد فارس ونالوا الحظوة لدى ملوكها وأصبح عـدد جم منهم شيوخ الإسلام فيها ومنهم حسين عبد الصمد (٩٧٤هـ ـ ١٥٧٦م) والمحقق الكركي صاحب الفتية لدى عباس الصفوي (٩٢٧هـ ـ ١٥٢١م) والبهاء العاملي وقد كانت لمشيخة الاسلام في عصره وتوفي (١٠٣١هـ ـ ١٦٢٢م) ومنهم حبيب الله الموسوي العاملي الذي أقام بخراسان وكان شيخ الاسلام فيها وتوفي (١٠٥١هـ ـ ١٦٤١) وحسين بن محمد بن علي الجبعي ومحمد المشغري أقاما في خراسان وطوس . ومن الذين أقاموا هناك فيما بعد محمد بن الحسن الحر العاملي (١١٠٤هـ ـ ١٦٩٢ م) . وكذلك علي بن محمد أحد احفاد الشهيد الثاني

١) رحلة الزنجاني صفحة ٣٧٦ .

وصاحب كتاب الدر المنثور وقد سمي بالاصفهاني لسكناه اصفهان وتوفي سنة (١١٠٣هـ ـ ١٦٩١م) . وعلى أثر حادثة الجزار وانقضاضه على جبل عامل وفتكه بأهاليه هربت عائلات عاملية عديدة في بلاد فارس ومنهم من طاب له المقام هناك وما زالوا يقيمون . وفي ايران أضرحة ومدافن لشخصيات عاملية وهي مع المؤلفات التي تركها العامليون في الفقه والأصول والفلك والرياضيات تشكل جزءاً لا يستهان به من التراث اللبناني على الارض الايرانية وتبيّن الوجه البعيد أثر العامليين اللبنانيين في الحركة العلمية الايرانية ، هذا وإن عدداً من العلماء العامليين قد كتبوا بالفارسية ونظموا بها شعراً كالشيخ البهائي [1] . ويلاحظ من تواريخ الاعلام العامليين أن رحلاتهم العلمية الى ايران كانت مزدهرة في القرنين العاشر والحادي عشر هـ (١٦ ـ ١٧ م) على أن هذه الرحلات لم تنقطع ابداً إنما تضاءل الاقبال عليها خاصة بعد ان اصبحت المدارس في جبل عامل متعددة في القرنين الأخيرين وقد أفاد العامليون من فارس كما أفادوها فبثوا فيها العلم ودرّسوا الفقه والأصول على أنها يسرت لهم رحب المقام وأمنت لهم حرية الفكر .

الرحلة الى الهند وحيدرآباد :

تعشق العامليون حرية الفكر فتفتشوا عنها في أبعد الأصقاع فقصد أعلام كبار منهم الهند وحيدرآباد حيث نالوا المكانة الرفيعة في العلم والحكم ، فإن جمال الدين ابن علي الحسيني الجبعي سكن في حيدرآباد وكان مرجع فضلائها وأكابرها [2] توفي (١٠٠٨هـ ـ ١٦٨٧ م) ، وكذلك محمد علي بن خاتون قد قصد ايران والهند ثم أقام في حيدرآباد ورحّب به ملكها محمد قطب شاه السابع ثم تولى في عهد ولده السلطان عبد الله سنة (١٣٠٨ هـ ـ ١٦٢٨م) منصب الصدارة العظمى وتولى السفارة بينه وبين ملك ايران عباس الصفوي وما زال رسمه في المتحف البريطاني [3] .

١) القمي الكنى والالقاب ٢/٩٠ .
٢) امل الامل ص ٥ ـ العرفان ٢٨/٢٣٠ .
٣) العرفان ٢٨/٢٢٦ .

ويذكر محسن الأمين منها مدرسة الكرك في البقاع، وقد أسسها العلامة علي بن عبد العالي الكركي ([illegible]). كما قامت مدرسة في بعلبك سميت بالمدرسة النورية وكانت تقية البهية ونالت شهرة طائرة، وقد درّس فيها الشهيد الثاني على المذاهب الخمسة بعد سنة (٩٥٣هـ – ١٥٤٦م). وهكذا فقد خرّجت هذه المدرسة كثيراً[1]، وساهمت في سد الفراغ الذي تركته مدارس جبل عامل.

مدرسة شقراء:

أسسها في أواخر القرن الثاني عشر موسى الحسيني (الأمين) كانت تضم ما يزيد على أربعين غرفة، «طلابها أكثر من أربعمائة طالب»، وقد ازدهرت في عهد مؤسسها ازدهاراً كبيراً. ويعتبر أنها المدرسة الوحيدة في جبل عامل التي تعتمد على أوقاف تدر عليها ومازالت بعض أوقافها حتى اليوم. توفي مؤسسها عام (١١٩٥هـ – ١٧٨٠م) وكان العلم قد راج فيها[1] وبعد وفاته خمدت فيها أعواد المعرفة حتى جدد شباب هذه المدرسة حفيده علي الأمين ولكن الضعف الاقتصادي أثر على حالة طلابها فقل الكثير والدرس فيها ودب فيها الانحلال. ونال من بنائها الخراب حتى جددها علي محمود الأمين فاستعادت شيئاً من أمجادها السالفة ثم أقفلت نهائياً بوفاة هذا الرجل. تخرج منها حسين بن موسى الحسيني من العلماء والشاعر الكبير ابراهيم يحيى الذي سنعود للحديث عنه مفصلاً.

مدرسة الكوثرية:

قامت هذه المدرسة في فترة يسودها الهدوء والاطمئنان بعد نهاية الجزار الذي أقلق جبل عامل وقضى على وجوه السياسة والعلم، وقد انفرجت الأزمة عام (١٨٠٤م – ١٢١٩هـ) بوفاة الجزار. وشهد بعد هذه الفترة قيام مدارس عديدة ونهضة أدبية فكرية متجاوبة وقد كان تأسيس هذه المدرسة في العقد

١) خطط جبل عامل ص ١٥٠

الرابع من القرن الثالث عشر الهجري[1]، على الأرجح [illegible] المدرسة [illegible] نخبة من الدارسين [illegible] النجف الأشرف[2]. وقد تهافت عليه الطلاب من كل حدب وصوب [illegible] هذه المدرسة [illegible] الشعراء والشخصيات الأدبية والفكرية، وقد كان من طلابها [illegible] جبل عامل [illegible] والعالم [illegible] علي السبيتي (١٣٠٣هـ – ١٨٨٥م)، والشاعر علي بن [illegible] بن حمدان الشرقي سنة (١٨٣٣م)[3] وعلي ابراهيم الحسيني الفقيه في جبل عامل والد علي عز الدين مؤسس مدرسة حنويه.

مدرسة جبع:

التعليم في جبع قديم في تاريخه، ففي منتصف القرن التاسع الهجري بدأت حلقها العلمي يتقدمها الكثير من الرجالات والأعلام كالشهيد الثاني ووالده وأبنائه وأحفاده حتى تعاقب من ذريته اثنا عشر عالماً حول سلسلة النسب[3]. وكانت جبع تعتبر بعد جزين من المواطن العلمية القديمة في جبل عامل وأشهرها التي تخرج منها ورثة الشيخ أبنائها من مؤلفات وما تركوا من آثار علمية قيمة[4]. وقد ذكر محسن الأمين من أعلامها ما يزيد على ثلاثين شخصية كبيرة[5]. وظلت جبع تعتني بالعلم والمعرفة، ومرت في مرحلة فتور علمي حتى قام مؤخراً الشيخ عبد الله نعمة[5] فأسس فيها مدرسة جديدة، أنفق في سبيلها أحد الوجهاء وهو الحاج سليمان الزين كثيراً من المال. وتخرج من هذه المدرسة عدد وافر من

١) سليمان ظاهر العرفان م٣٣/٢٦٣. ٣) العرفان ٣٣/٦٣٠.
٢) العرفان م٩ ج٥/٢٥٣. ٤) خطط جبل عامل ١/٢١٣.
٥) هو عبد الله بن علي بن حسين بن عبد الله بن علي بن نعمة المشطوب العاملي ولد (١٢٢٣هـ – ١٨٠٤م) درس في الكوثرية ثم ذهب الى العراق وإيران وعاد فأسس المدرسة في جبع وكان له دور كبير في احتضان النصارى بعد حادثة ١٨٦٠ في لبنان وقد توفي سنة ١٣٠٣هـ. وكان الى جانب مكانته الفقهية شاعراً أيضاً.

وقد تخرج من هذه المدرسة عدد وافر من الطلبة كان لهم أثرهم فيما بعد بالحركة الفكرية الناشطة في جبل عامل منهم محمد علي ابراهيم [1]، ومهدي شمس الدين [2]. ولقد تابعت مدرسة حنويه سيرها في طريق التثقيف بعد وفاة مؤسسها (١٣٠١ هـ – ١٨٨٥ م) اذ تولاها حفيده ابراهيم عز الدين بعد انهاء تحصيله في النجف وسار بالمدرسة على نهجه غير انه توفي سنة (١٩١٤ هـ – ١٣٣٣ م)، وقد كانت هذه المدرسة سوقاً عامرة للأدب والشعر قدمت من الشعراء والأدباء العدد الكبير، كما نالت عناية السياسيين خاصة اهتمام امير البلاد علي بك الاسعد مما بعث في نفوس طلابها حب الأدب وكسب الفوائد [3].

مدرسة بنت جبيل :

أسسها أحد طلبة مدرسة حنويه سابقاً : سنة (١٢٩٨ هـ – ١٨٨١ م). وجذب تقدم هذه المدرسة الطلبة اليها فأصبحت بنت جبيل محط رحال الأدباء والعلماء، كما جمعت عدداً وافراً من أفاضل الطلاب، وقد توافد اليها تلامذة مدرسة حنويه التي كانت قد ضعفت بعد وفاة مؤسسها [4]. وتعتبر من المدارس التي (جددت العلم بعد دروس مدارسه من القطر وخرّجت من العلماء والأدباء على قرب عهدها من حفظوا فيه الميراث العلمي العاملي وأحيوا مواته، ولو فسح في أجل مؤسسها الذي اخترم في منتصف العام الرابع من تأسيسها لاعادت له أيامه الزاهرة.) وقد تخرج من هذه المدرسة العلامة محسن الامين صاحب أعيان الشيعة

---

١) محمد علي ابراهيم درس اولا على أخيه العلامة حسن ابراهيم ثم أتم تحصيله في حنويه وعمل على تأسيس النهضة العلمية ثم توفي (١٣٣٤ هـ – ١٩١٥ م).

٢) مهدي شمس الدين علامة كبير اشتهر بسعة الاطلاع وحبه للأدب كان شاعراً توفي في سنة (١٣٣٤ هـ – ١٩١٥ م) عن خمسة وثمانين عاماً.

٣) احمد رضا . العرفان ٢/٣٩٠.

٤) موسى شراره ولد سنة (١٢٦٧ هـ – ١٨٥١م) ثم سافر الى النجف في السابعة عشر من عمره ورجع منها في الثلاثين من العمر عالماً فاضلاً مكتمل المعرفة وأسس المدرسة في بنت جبيل وتوفي سنة (١٣٠٤هـ – ١٨٨٦م) وترك مؤلفات في الفقه وعلم النفس كما ترك شعراً أيضاً.

العلماء منهم حسن يوسف مكي، مؤسس المدرسة الحميدية في النبطية، وموسى شراره مؤسس مدرسة بنت جبيل. ولم يستفد الطلاب من هذه المدرسة كثيراً لأن رئيسها قد أوكل ادارتها والتدريس فيها الى غيره، وكان يقتصر على اعطاء دروس الفقه فيها، يلقيه على شيوخ الطلبة فقط، ويقول محسن الامين ان طريقة التدريس فيها كانت عقيمة، قضى الطلاب فيها عمرهم في تدارس النحو والصرف ومع ذلك تخرج منها جلة من أهل العلم [1].

مدرسة حنويه :

حنويه قرية قرب مدينة صور أسس مدرستها محمد علي عز الدين بعد أن أخذ قسطاً كبيراً من المعرفة في النجف، وقد بثّ فيها مؤسسها الروح آخذاً من العلوم العصرية بطرف مدرساً فيها علم النفس والاخلاق، وقد كان له مؤلفات عديدة في هذا الباب كروح الايمان في علم الكلام وكتاب سوق المعادن. وقد زار هذه المدرسة الدكتور لورته (Lortet) عميد كلية الطب في ليون خلال رحلته التي دامت من (١٨٧٥ – ١٨٨٠ م) اذ أقام في القرية مجريا قريباً منها حفرياته.. وقد قال حول المدرسة بأن «الثقافة منتشرة جداً بين المتاولة في حنويه القرية الصغيرة ذات الاربعمائة نسمة تقريباً، ويوجد في حنوية ليس فقط مدرسة ابتدائية يقصدها كل الأطفال الذكور ولكن مدرسة عليا عامرة،» [2] وقد زار لورته هذه المدرسة عام (١٢٩٧ هـ – ١٨٨٠ م).

كما كتب الشيخ محمد علي عز الدين للطبيب كتاباً جاء فيه : «عام ١٢٩٧ هـ شرف بزيارته بلدتنا الدكتور لورته مصحوباً بزوجته وعندما زار مدرستنا كان لي معه مقابلة سألني خلالها أسئلة تتعلق بالمذهب الشيعي. وطلب مني أن أعرفه الزمن الذي غرس فيه المذهب الجعفري في البلاد وتلبية لرغبته، أنشأتُ هذه الخلاصة الصغيرة لتاريخنا ليستطيع ان يحملها معه» [3].

---

١) خطط جبل عامل ١/١٥١.

٢) D. Lortet : La Syrie d'aujourd'hui 134.

٣) Lortet. Page 132.

وقد درس معه أيضاً الشيخ محمد دبوق الشاعر ، والعلامة الكبير والشاعر الأديب الشيخ عبد الحسين صادق ، والشيخ عبد الكريم الزين ،وغيرهم ممن كانوا الخيرة الصالحة في جبل عامل .

المدرسة النورية :

أسست هذه المدرسة منذ عهد قديم في النبطية الفوقا منذ حل فيها آل نور الدين الذين أتوها من قرية سكيك في الجولان، ولم يشر أحد الى هذا التاريخ وقد عاشت حتى زمن العلامة محمد نور الدين ، كما تخرج منها علماء كثار . وكان آل نور الدين قد هجروا سابقاً كفرحونا في جبل الريحان ليسكنوا في سكيك في الجولان وفي هذه المدرسة درس مؤخراً العلامتان الفاضلان احمد رضا وسليمان ظاهر عضوا المجمع العلمي في دمشق في المرحلة الابتدائية من تحصيلها . توفي مؤسسها سنة (١٣٢٥ هـ – ١٩٠٧ م) .

المدرسة الحميدية :

أسست هذه المدرسة في (النبطية التحتا) ، نسب اسمها للسلطان عبد الحميد جرياً مع العادة المتبعة في ذلك العهد تيمناً باسمه . اسسها العلامة حسن يوسف مكي[1] وهو من طلبة مدرسة جباع سابقاً ، وقد أسس مدرسته في النبطية بعد عودته من النجف سنة (١٣١٠ هـ – ١٨٩٢ م) . بنى المدرسة نفر طيب من أبناء النبطية وقد لمع اسمها وذاعت شهرتها فقصدها طالبو العلم والثقافة من سائر البلدان ، وضمت مايزيد على ثلاثماية طالب ، وكانت العناية بالطالب كثيرة وكان

١) هو حسن بن يوسف بن ابراهيم بن علي مكي ولد في قرية حبوش سنة (١٢٦٠ هـ – ١٨٤٤م) تلقى علومه الاولى في جبع ثم أكمل تعليمه العالي في جامعة النجف حيث أقام فيها اثنين وعشرين عاماً أحرز درجة عليا في الاجتهاد ورجع الى وطنه عام (١٣٠٩ هـ – ١٨٩١ م) وبعدها بعام واحد أسس المدرسة الحميدية وتولى القيام بالشؤون العامة الى جانب عنايته بالتدريس وأمور الدين فطارت له شهرة واسعة وتوفي سنة (١٣٢٤ هـ – ١٩٠٦ م) كما كان جريئاً في المدافعة عن حقوق أبناء وطنه تجاه الدولة العثمانية .

مؤسسها يسهر على دراستهم وتوجيههم والمدرسة تعتني بلبسهم ومأكلهم ومنامهم، كما كانت تقدم مساعدة مالية للطلبة الفقراء ، وقد أدت هذه المدرسة خدماتها العلمية طيلة أربعة عشر عاماً من حياة مؤسسها حتى سنة (١٣٢٤ هـ – ١٩٠٦م) فأغلقت المدرسة وتفرق طلابها . ثم مالبث أن باشر تعميرها يوسف بك الزين وأخوه (سنة ١٣٤٢ هـ – ١٩٢٣ م) .وتولى التدريس والادارة فيها العلامة الشاعر الشيخ محمد رضا الزين وقاضي النبطية فيما بعد . ثم ان المدرسة الحميدية انقلب اسمها الى المدرسة الدينية العاملية وأخذت عمدة المدرسة بأسباب النهضة الحديثة وحاولت السير مع نظام التعليم الرسمي المتبع ، وقد رعتها المفوضية الافرنسية وأعطتها مساعدة مالية قدرها ٨٠٠٠ فرنك لتنفق على معلمي اللغة الافرنسية فيها[1] .

وقد كان طلاب هذه المدرسة يعفون عهد الحكومة العثمانية من التجنيد الاجباري ، انما كانت تخضع لاشراف مفتشي المعارف من قبل الحكومة العثمانية .

وفي الربع الأول من القرن العشرين غيرت المدرسة العلمية الدينية العاملية منهاجها ، فان عمدتها أبقوا على التعليم الديني وأدخلوا مناهج التعليم الجديد كما يشير بيان أصدرته ادارة المدرسة ، وقسم فيها التدريس الى قسمين قسم مطلق يعنى بالشؤون الدينية واللغة على الطريقة القديمة،وقسم مقيد ينتظم في الامتحانات الرسمية . وكانت الامتحانات في الدروس تجري مساء كل يوم فيها عدا الامتحانات الشهرية والسنوية .ومدة التدريس ست ساعات يومياً، كما كان فيها قسم داخلي يقضي الطلاب أيامهم ولياليهم في المدرسة ويسمح للخارجيين منهم قضاء فترة العشاء فيها للمطالعة والمذاكرة ، وكانت ساعات انتباه الطلبة من النوم تعين قبل شروق الشمس لأداء فريضة الصلاة ، وكانت تضم من الطلبة مايزيد على ١٧٠ طالباً وقد أشرفت عليها جمعية المقاصد الخيرية ثم هي مازالت ببنائها حتى يومنا هذا تسمى بالمدرسة العلمية وتشرف عليها الجمعية المذكورة . وتعتبر هذه المدرسة ركيزة كبرى في أساس النهضة العلمية الحديثة في جبل عامل ، فقد قدمت كبار العلماء والفقهاء كالشيخ محمد علي نعمة والشيخ علي حلاوة ومن

١) سليمان ظاهر العرفان ٨/٦٥٦ .

اللغويين والمؤرخين أحمد رضا وسليمان ظاهر والمؤرخ محمد جابر صفا ، وهو أديب له كتاب الشذرات في الفلسفة والطبيعة ، كما تخرج منها صاحب مجلة العرفان وجريدة جبل عامل الشيخ أحمد عارف الزين ، ومن القضاة أسد الله صفا ، وعلي فحص ، ورضا الزين ، والسيد علي زين ، وكان الحوماني الشاعر الكبير من طلابها كما تخرج منها عدد وافر من أدباء وعلماء[1] .

هذه هي أهم المدارس التي حملت العلم ونشرت الثقافة في جبل عامـــل طيلة قرون ، عدا عن مدارس صغيرة كانت منتشرة في أنصار ، وعيناثا ، وطيردبا ، وشحور ، وعيثا الزط . والنميرية ومجدل سلم ومدرسة آل خاتون في جويا .

وجميع هذه المدارس كانت تتداول خدمة العلم والمعرفة واحدة بعد أخرى . فما أن تخبو الأنوار في إحداها حتى تبرز واحدة ثانية تتحمل عنها أعباءها . وهكذا كانت سلسلة المدارس محكمة العلاقة وجميعها مدارس دينيـة تعتني بالأوليات من الدروس العامة وتتعمق في الفقه والأصول ، وكانت تقوم على أكتاف العلماء فهم الذين يوجهونها ويصرفون عليها ولم تشرف على مدرسة من هذه المدارس مؤسسات عامة وجمعيات تحميها وتنطلق بها في سبيل أفضل ، فتجدد إن كان لها التجديد ، إنما كان هم كل مدرسة أن تبلغ المكانة التي وصلت اليها سالفتها ، فلم يكن لاحداها حظ من التجديد الدائم . وقد كانت هذه المدارس تطبق مناهج جامعة النجف بل إن أكثرها كان يؤمن للطالب المرحلة التحضيرية لهذه الجامعة ، حيث يكمل تخصصه العالي فيها ، ولقد قامت مدارس اخرى تحميها الدولة ولكن بعـد مدة طويلة من بدء تأسيس المدارس الدينية . كما قامت مدارس أهلية على الطريقـة الحديثة .

مدرسة النبطية الحديثة :

هي مدرسة أهلية أسست عام (١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢ م) عهد رضـا الصلح عندما كان مديراً لناحية النبطية ، وقد أدارها مصطفى العكاري من طرابلس

---

١) العرفان ٢٨/٢٢ - ٢٣ .

وكانت هذه المدرسة تحت رعاية جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ، وقد انتقلت بعدها لوزارة المعارف ، وقد كان رضا الصلح يزورها ويعتني بها وكثيراً ما كان يلقي بعض الدروس فيها ، وقد ضمت في عهدها الأول أواخر القرن التاسع عشر نحو ستين تلميذاً ، ثم ما لبث أن استقال مديرها مصطفى العكاري فتولى التدريس فيها محمد علي ابراهيم أحد تلامذة مدرسة حنويه سابقاً فوسع دائرة التدريس فيها ولقن طلابها الأدب ، ودربهم قرض الشعر وأعطاهم الدروس في المنطق والبيان وفلسفة ابن سينا وبعض الطبيعيات ، كما درسهم كتاب النقش في الحجر للمفكر كرنيليوس فانديك .. ودامت الحال في هذه المدرسة على رقي تام رغم العوامل المعاكسة من التعصب والحكام .

مناهج التدريس في المدارس العاملية :

بعد حفظ القرآن وتعلم الكتابة ينتقـل الطالب لدراسة النحو فيحفظ متن الأجرومية غيباً ، ثم ينتقل الى كتاب قطر الندى لابن هشام الأنصاري ، وهو كتاب في النحو أرقى من الأجرومية . ثم ينتقل الى ألفية ابن مالك وغيرها من الكتب المتعلقة بالنحو والصرف والاعراب . وهذه المرحلة مخصصة لدراسة اللغة ونحوها . ثم يوجه الى دراسة البيان والبلاغـــة والبديع فيقرأ كتاب المطول في المعاني والبيان ويقرأ معه حاشية اليزدي ، ثم الشمسية في علم المنطق للشيرازي . هذا وما زلنا في المقدمات ، ولما تبدأ بعد الدروس الفقهية . وبعد انهاء هـذه الدراسات التي تعد الطالب ليتمكن من وسائل التفكير بلغة صحيحة ، ومنطق سليم ينتقل لدراسة أصول الفقـــه في مؤلفات عاملية وغيرها ، يتعمق فيهـــا دون توقف .

وكان يدرس في هذه المدارس عـلم الكلام بقسميه الجواهر والعروض ، والالهيات وعلم التفسير وعلم الحساب وفن الأدب . ويقتصرون في الأدب على حفظ الأشعار خاصة لامية العرب ويفسرونها عملاً بالحديث : علموا أولادكم لامية العرب[1] فانها تعلمهم مكارم الأخلاق .

---

١) خطط جبل عامل ١/١٥٣ - ١٥٥ .

طرق التدريس :

ليست الطريقة المتبعة في هذه المدارس بدعة حديثة فهي تقليد المدارس المنتشرة في بلاد الشرق آنذاك . (ليس هناك صفوف منظمة) فالدراسة كانت كما رأينا تتعين مراحلها بالكتب المدروسة . ويقوم التدريس على انتباه التلميذ بدافع رغبته في العلم وحبه لمكانة المتصدين في عهده . وقد وصفهم الدكتور (Lortet) في مدرسة حنويه : يبدأون دروسهم بانتباه قوي رصينون ويضمون على ركبهم القرآن الكريم[1] .

وكان التدريس يقوم على استعداد من الطالب والمعلم ، ويبدو أن المعلم كان يرغب في تحضير دروسه قبل إلقائها على تلامذته ، ويحضر التلامذة كذلك دروسهم قبل أخذها لتثير فيهم التساؤل عن غوامضها فيسألون معلمهم ويناقشونه في يومهم التالي . (ويبدأون بالفاتحة وينتهون بها)[2] ولقد كانوا يحاولون إيصال المعرفة الى طلابهم بشكل سهل التناول . وقد ألف زين الدين الشهيد الثاني الجبعي كتاباً في التربية اسماه منية المريد في آداب المفيد والمستفيد ، تناول فيه بالشرح واجبات المعلم والمتعلم .

ولم يكن لديهم كما يبدو وسائل إيضاح لمعارفهم نظرية بحتة ، تعتمد الانتباه الفكري وانشغال ذات الطالب في الدرس المعطى ، ولقد أثار هذا الانتباه القوي ملاحظة الدكتور لورته الفرنسي . ويطلب المعلم من تلامذته اللجوء الى المذاكرة والمناقشة فيما بينهم . وكان مساء الخميس من كل اسبوع وقتاً مناسباً لامتحان اسبوعي يجريه المعلم ، ولقد كان التدريس يعتمد على جهود متناهية في البذل ورغبة صادقة في العمل تعتبر أساساً للنشاط العلمي الذي يمكننا القول أنه كان يعتمد على الفعالية الذاتية للطالب ، والتلقائية في أخذ المعارف .

الدوام والعطل في المدارس :

نهار الجمعة هو العطلة الاسبوعية ، يطلب من التلامذة قضاؤه بالدرس والمراجعة .

---

(1) Lortet Page 134 .

(2) مخطط جبل عامل ص ١٥٦ .

والعطل الباقية الكبيرة موسمية ، ترتبط بمواسم دينية ، فشهر رمضان كان عطلة كاملة وكذلك الاعياد واليوم العاشر من المحرم في كل عام . . والمدة التي يقضيها الطالب في المراحل الأولى من دراسة اللغة والنحو والصرف والبيان والبلاغة والمنطق وأوائل الفقه تبلغ هذه المرحلة نحو ست سنوات يضاف اليها خمس سنوات في دراسة الفقه الاستدلالي ، وهكذا فان المدة اللازمة لانهاء الدروس والوصول الى مرحلة الاجتهاد تتطلب مايقارب اثني عشر عاماً[1] .

لقد أسهمت هذه المدارس إسهاماً كبيراً في نشر جو من المعرفة والثقافة المشوبة بصفة دينية واضحة ، فالعلوم الأخرى التي كانت تأخذ بها المدارس كانت وسيلة لغاية ، والغاية هي العلوم الدينية التي كانت تقصد غاية أخرى وهي الحفاظ على المذهب في وسطهم بين طوائف متعددة غير طائفتهم ، بعيدين عن زملائهم واخوانهم في المذهب ، ولعل هذا الشعور بالحفاظ على المعتقد والدين هو الذي حدا بهم لافتتاح هذه المدارس ونشر المعرفة .

المكتبات :

هي عامل آخر أسهم في الحركة الفكرية ورقي الأدب ونشر المعرفة ، ولم يكن أثره كبيراً في وسط العامليين كما برز في أوساط أخرى . لقد كانت هذه المكتبات عامرة بالكتب القيمة ونفائس المخطوطات للعلماء والأدباء العامليين . وكان العلماء يقتنون هذه المكتبات ويحرصون على توسيعها ولكن الأحداث السياسية قضت على الكتب ونفائس المخطوطات . وكانت حادثة الجزار واقتضاضه على جبل عامل يوماً أتلفت فيه معظم الكتب ، فقد نقلت الاحمال الكثيرة الى عكا على ظهور الجمال فأوقدت بها الأفران في عكا مدة ستة أيام ، وسرق منها الكثير ، وباع بعض أهالي عكا للعامليين جزءاً من هذه الكتب ، وحفظ ما هرب به العامليون الى العراق وايران والهند . والملاحظ في هذه المكتبات انها كانت خاصة ولم يوجد مكتبة عامة واحدة ، لذا قلّت الفائدة الا لمستغ تعميمها . ولم

---

(1) مخطط جبل عامل ص ١٥٥ و ١٥٦ و ١٥٧ .

يحافظ العامليون على مخطوطاتهم لاستهتارهم بها[1] .

والمكاتب التي بقيت قليلة ، أما المعروف منها فهي :

١) مكتبة عبد الله نعمة مؤسس مدرسة جبيع كانت تضم مخطوطات عديدة بيع بعضها بالنجف .

٢) مكتبة آل الحر في جبيع تقاسمها الوارثون .

٣) مكاتب آل الأمين في شقرا حيث نفائس المخطوطات بيع قسم منها وتقاسم الآخرون بعضها .

٤) مكتبة آل السبيتي في كفره ، كانت تضم من المخطوطات مهاجاة جرير والفرزدق وديوان الشريف الرضي .

٥) مكتبة آل خاتون ، أخذ منها أحمد محافظي صور ٣ كتب مخطوطة .

٦) مكتبة آل عز الدين في حنويه ، كان فيها كتب كثيرة نهب بعضها في حوادث جبل عامل بعد الاحتلال الفرنسي .

٧) مكاتب النبطية لأحمد رضا وسليمان ظاهر . ومكتبة الأول مازالت محفوظة ولها فهرس ، وكذلك مكتبة الثاني فان فيها نفائس من المخطوطات عدا عن مكاتب كثيرة منتشرة في شقرا وصور والبياض . وقد بيع قسم من هذه المكتبات لمكتبات عامة كبرى منتشرة في لبنان .

ولم يعرف جبل عامل المكتبات العامة الا في النصف الأول من القرن العشرين وسنعود لذكرها في مكان لاحق .

هذه هي أهم العوامل الفاعلة في خلق حياة علمية دائمة . وقد رافقت هذه العوامل الحركة الفكرية وما زالت . وقد نجد تغير هذه العوامل الدائمة دوافع عابرة في تاريخها أسهمت في فترة من فترات النشاط العلمي في الجبل ، أو في دور من أدواره ، ذلك أن الحركة ما مرت في دور واحد توحدت خصائصه ، وتجمعت ميزاته ، بل عبرت أدواراً ومرت في مراحل ، وهذا ما سنجده في الفصل اللاحق .

---

(١) خطط جبل عامل ص ١٠٨ – ١٠٩ .

الفصل الثالث

أدوار الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل

ب – دور النشأة والتطلع الفكري :

– البواعث وعوامل الحياة العلمية في هذا الدور .

– مظاهر الحياة العلمية :

نشاط الفقهاء والمحدثين .

النشاط الأدبي : عبد المحسن الصوري .

الحياة بالفعل بفضل الأمور التالية :

١) تردد ابناء الجبل على المراكز العلمية القريبة كدمشق مثلاً فقد سمع فيها كل من محمد بن رواحة الصرقندي بدمشق وحدث سنة ٢٢٦ هـ وكذلك ابراهيم ابن الدرداء الصرقندي وابن احمد السلمي الصوري ، والحسن بن عطية والحسن بن جرير البزاز الزنبقي قدم دمشق ايضاً سنة ٢٨٣هـ. عدا الجموع الغفيرة التي قصدتها من المدن الساحلية لأخذ الفقه والحديث واللغة من أئمتها وتردد الشاعر عبد المحسن الصوري على حلب ودمشق والمعرة كما زار بعضهم العراق ومصر .

٢) تردد العلماء والفقهاء من البلاد المجاورة على حواضر جبل عامل بقصد التوجيه والتعليم والاسهام في النشاط الفكري والاستفادة منه ، فقد نزل في صور ابو عبد الله الزاهد شيخ الصوفية وكان شيخاً في دمشق وسبق أن أقام ببغداد دهراً طويلاً قبل ان ينتقل الى صور ويقيم فيها [1] ، وتوفي سنة ٣٦٩هـ – ٩٨٠م . ثم ان أبا الفتح الكراجكي حضر الى صيدا وصور واقام فيهما بدافع بث وتنشيط الفقه الشيعي ، وتعليم اهلها السنن على المذهب الجعفري وقد ألف لهم كتباً ورسائل كما فعل ذلك في المدن اللبنانية الأخرى لمن يقيم فيها من الشيعة كطرابلس [2] . وكذلك فعل الشريف المرتضي الذي ألف كتب الفقه لأبناء السواحل في العقيدة.

وقد قصد صور الحافظ ابو القاسم علي بن الحسن بن عساكر (٥٧١هـ – ١١٧٦م) (بعد درسه العلوم ببيت المقدس فأقام بها عشرة سنين ينشر العلم مع كثرة المخالفين له من الرافضة)[3].

٣) التأثر بالجو العام للنهضة الفكرية في العالم العربي ، والتطلع الى العراق حاضرة النهضة الفكرية ، وكانت قد بلغت الأوج في النشاط الفكري خلال القرن الرابع الذي سماه آدم متز عصر النهضة الفكرية العربية الأولى .

وقد قصد العامليون العراق كموطن لحركة علمية نشيطة لاقامة طويلة طالبين العلم فيه ، متأثرين بأجوائه كاسماعيل بن الحسين العودي والشيخ طومان المناري

١) ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب ٣/ ٦٨ .
٢) سليمان ظاهر العرفان ٣١ / ١٢٢ . ٣) خطط جبل عامل ١/ ٦٧ .

العامليين[1] . ثم تقوم خلال هذه الفترة علاقات مع مصر والفاطميين الذين ينزلون السواحل اللبنانية وخاصة صور . ويذهب بعضهم الى أن وقوع جبل عامل في حكم الخلافة الفاطمية متن علاقاتهم خلال القرن الرابع والخامس الهجري ومتن صلات الشيعة بالفقه الامامي بالازهر[2] . وبالقرب منهم بنو عمار الطرابلسيون الذين اقاموا حركة فكرية ، وان القاضي جلال الملك ابا الحسن علي بن احمد بن عمار (جدد في طرابلس دار العلم ودار الحكمة وذلك سنة (٤٧٢هـ – ١٠٨٠م) لتكون مركزاً من مراكز التشيع فنشرت العلوم والآداب واصبحت طرابلس مباءة علم ودرس ومباراة في التعلم وجهز هذه الجامعة بمائة الف مجلد)[3] .

مظاهر الحركة :

إن الحياة العلمية الناشطة في هذا الجبل خلال دور النشأة والتطلع برزت في مظهرين اثنين مهمين من النتاج والعمل الفكري .

١) النشاط الديني والعلمي الذي كان نتيجة طبيعية للجهود التي بذلها رجال الدين والحفاظ وأئمة الجوامع في صيدا وصور والصرفند ، ولقد كان عملهم توجيهاً وتفسيراً وشرحاً للعقائد والشرع ، ورواية للأحاديث . وقد اشتهر من المحدثين سواء كانوا من ابناء الجبل ام من قاصدي حواضره العلمية ، نفر كثير منهم ابو الفرج غيث بن علي الصوري الارمنازي الذي قصد صور من قرية ارمناز في حلب . وبرز منها جماعة صوفيون كأحمد الروزباري (٣٦٩هـ – ٩٨٠ م) . ومنهم نحويون ولغويون كعثمان بن ابي الفتح البغدادي النحوي ومحمد بن ابراهيم ابو عامر الصوري ومحمد بن الحسين الغراب وغيرهم من النحويين والوعاظ[4] . كما خرج من صور جماعة اشتغلوا بالطب والجراحة والنبات واشتهر منهم رشيد الدين بن علي

١) طومان المناري أحد رواد الرحلة العلمية الى العراق قصد الحلة واستجاز منها وعاد الى جبل عامل وتوفي في مطلع القرن الثامن هجري .
٢) سليمان ظاهر العرفان ٣١/١٢٢ . ٣) خطط الشام ٤/ ٣٨ .
٤) خطط جبل عامل ص ٢٥٨ .

الصوري الذي ولد بصور (٥٢٣ هـ – ١١٢٨ م) ونشأ بها واشتغل بالطب ثم رافق الملك العادل الى الديار المصرية ، ثم لما ملك الناصر داوود بن الملك المعظم ، عهد اليه برئاسة الطب وقد كان فوق هذا نباتياً وكثيراً ما صحب معه المصورين (والأصباغ التي بها النبات الى جبل لبنان وغيره يريها المصورين ويحسبها يجتهدون في محاكاتها) [١].

٢) النشاط الادبي :

ان النشاط الادبي كان على رقي في الحواضر العاملية خلال هذا الدور ، رغم أن العامليين بالحديث والوعظ وعلوم الدين يفوق عددهم أضعاف الاعلام المشتغلين بالأدب ، وقد كان الشعر على رقي خارج الرحاب العاملية في هذا العهد سواء بحلب لدى سيف الدولة أم في العراق أم في مصر عند الفاطميين ، أم في دمشق . وقد نلحظ أسماء شعراء وأدباء قسم يحملون نسب العاملي وما عاشوا في الجبل وما شاركوا في نشاط الحركة الأدبية ، فنحن لا نستطيع اعتبارهم أعلام الحياة العلمية في البلاد العاملية ولا يمكن أن يدخلوا ضمن دراستنا هذه كالشاعر الكبير عدي ابن الرقاع العاملي وقد كان شاعر الامويين من أبناء مروان في دمشق . ولكنه لم يكن من سكان الجبل انه فقط من قبيلة عاملة ،وقد كان قسم من القبيلة يسكن الاردن ، وقد كان شاعر الوليد بن عبد الملك وكان معاصراً لجرير ، وكانت له معه أهاجي طويلة ، هذا الشاعر الكبير الذي يعتبر أحد القمم في الادب العربي كان من عاملة القبيلة ولم يكن من جبلها ، (كان منزله بدمشق وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم) [٢].

غير أننا نلاحظ ادباء عامليين كثيرين في هذا الدور او قد يكونوا من أصل غير عاملي وشاركوا في الحركة التي نحن ندرسها ولا ندرس أدب القبيلة . ومن أبرز هؤلاء عبد المحسن الصوري [٣] وتقية بن غيث الارمنازي ولدت (٥٠٥ هـ

١) ابن أبي اصيبعة عيون الأنباء في طبقات الاطباء ٢/٣٠٦ .
٢) الاغاني ، المجلد الثاني القسم الاول ص ٣٠١ .
٣) سنعود الى دراسته مفصلا .

– ١١١٢ م)بصور وأقامت فيها ثم هاجرت الى الاسكندرية وصحبت الحافظ احمد بن محمد السلفي الاصبهاني زماناً فيها . ولها شعر جميل في الخمر ووصف الحروب ومن شعرها وقد جرحت رجل صديقها الاصبهاني فشقت خادمة خمارها وربطت رجله فأنشدت تقيه :

لو وجدت السبيل جدت بخدي عوضاً عن خمار تلك الوليده
كيف لي أن أقبل اليوم رجلاً سلكت دهرها الطريق الحميده

وقد توفيت تقية في سنة (٥٧٩ هـ – ١١٨٤ م) [١] . ومن شعراء هـذا العهد اسماعيل ابن الحسين العودي العاملي الملقب بشهاب الدين والذي هاجر من جزين ليدرس في العراق . وغشي حلقات الحلة ثم عاد الى بـلاده وتوفي سنة (٥٨٠ هـ – ١١٨٥ م) وله شعر كثير وارجوزة اسمها نظم الياقوت ، نظم بها كتاب الياقوت لابن نوبخت في علم الكلام [٢] .

ونلاحظ أن الحياة العلمية في ختام هذا الدور بدأت تتجه صعدا لتحل في قرى الجبال والتلال مخلية السواحل ، ولعل مرد هذا الى الحروب القائمة بين الصليبيين والعرب ، والتي استهدفت مدن الساحل . ونحن نلاحظ في نهاية القرن السادس الهجري بروز جزين واسهامها في النشاط العلمي . ثم ان الشيخ طومان المناري هو من بلدة المنارة الداخلية في الجنوب الأقصى من جبل عامـل . وفي أواخر القرن السابع الهجري نرى شاعراً آخر من جزين وهو ابراهيم ابن الحسام العاملي الذي كان حياً سنة (٦٦٩ هـ – ١٢٧١ م) وقد رثى ابن العود الاسدي الحلي لما مات بجزين .

عرّج بجزين يا مستبعدَ النجف فضل من حلها يا صاح غير خفي
نور ثوى في ثراهـا فاستنار به وأصبح الترب منها معدن الشرف
لمثل يومك كان الدمع مدخراً بالله يا مقلتي سحي ولا تقفي

١) الخوري يوسف الدبس الربيع سورية ، ٢/٤٥٣ – ٤٥٥ .
٢) أعيان الشيعة ١١/٢٤٣ .

لاتحسبن جود دمعي بالبكا سرفاً ... بل شح عيني محسوب من السرف[1]

ولعل خير مميز للنشاط الأدبي في هذا الدور ، وممثل لخصائصه وميزاته ، عبد المحسن الصوري في نتاجه الواسع وسنتناول دراسته وشعره مفصلاً .

•

عبد المحسن الصوري

٣٣٩هـ - ٤١٩هـ

٩٥٠م - ١٠٢٨م

نسبه وحياته :

أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري . ولد في صور ونشأ فيها ، وكان منذ صباه ميالاً الى الشعر يقرضه فيجيد ، وينظمه فيبدع . فاتخذه صناعة له ، ووسيلة كسب عيشه التي منت عليه بها الحياة ، ولكن جميلها هذا كان سبب شقائه وبلواه :

وليس عند الليالي أن أقبح ما ... صنعن بي أن جعلن الشعر مكتسبي[2]

ولقد كان أخوه عبد الصمد وراقاً جميل الحال ، كثير المال ولكنه لم يكترث لفقر أخيه وعسر حاله ، وهذا ماتفشر عبد المحسن منه فهجاه أكثر من مرة .

ولقد اتصل في صباه بالحمدانيين في حلب ، ومدح أمراءهم كمبارك الدولة ومنير الدولة بن حمدان[3] . كما كان على صلة بابن الشيخ واخوانه وآله في صيدا وكان هذا عاملاً عليها[4] . ثم مالبث أن اتصل ببكجور والي حمص من قبل أبي

١) أعيان الشيعة ٣٣٥/٧ .
٢) الثعالبي يتيمة الدهر ٣٠٣/١ .
٣) الديوان ص ١٠ و ٢٥ و ٣٤ و ٥٣ .
٤) الديوان ص ٧٧ و ٩٠ و ٩٧ .

المعالي بن سيف الدولة ، والذي تولى دمشق ايضاً (٣٦٧هـ - ٩٧٨م) ، وما لبث أن تولاها من قبل الفاطميين (٣٧٣هـ - ٩٨٤م) ، وبقي فيها حتى (٣٧٨هـ - ٩٨٩م)[1] . ثم انقلب الى بنجوتكين يمدحه وقد تولى هذا امرة الجيوش الشامية الى ما بعد (٣٨٦هـ - ٩٩٦م) ، واتصل ببشارة الاخشيدي الذي ولي امرة دمشق من قبل برجوان الحاكم سنة (٣٨٨هـ - ٩٩٨م) ، وكان قد ولي طبريا قبل دمشق بسنين[2] . ولما ولي طبريا من قبل الفاطميين (٣٩٠هـ - ١٠٠٠م) مدحه عبد المحسن واتصل به[3] .

واتصل بأبي الجيش حامد بن ملهم ومدحه . وقضى معه أطيب ايام حياته ، اذ انقطع اليه يرافقه ويحضر مجلس شرابه وينادمه في خلواته ، ويملأ فراغه ونزهاته بالشعر ينظمه فيه ، وكان قد ولي حامد إمرة دمشق من قبل الحاكم (٣٩٩هـ - ١٠٠٨م) ، وقد نال منه خير الأعطيات ، وأجمل الهبات[4] . وكان ابن ملهم يبعث اليه يطلبه ليحضر مجلسه في طبريا أو الرملة او بيروت وقد ملأ مدح بن ملهم ديوانه كما ملأ حامد حياة الصوري في الفترة التي اتصل فيها به .

كما توجه في المرحلة الأخيرة من حياته لمدح الحاكم بأمر الله (٤١١هـ - ١٠٢١م) مشيداً بفضله[5] .

واعتزل في السنوات العشر الأخيرة من عمره المديد، الذي تجاوز الثمانين ، مقيماً في مسقط رأسه منقطعاً عن أصحابه ومعارفه ، وهذا ما دفع احمد بن سليمان صديقه الشاعر لأن يكتب له :

أعبد المحسن الصوري لم قد ... جثمت جثوم منهاض كسير
تحرك عل أن تلقى كريماً ... تزول بقربه إحن الصدور
فما كل البرية من تراه ... ولا كل البلاد بلاد صور

١) خطط الشام ٢٣٠/١ - ٢٣٥ .
٢) خطط الشام ٢٤١/١ .
٣) تاريخ ابن عساكر ٢٢٥/٣ - ٢٢٦ .
٤) ابن عساكر ١٧/٤ - الديوان ص ٣١ و ٣٩ و ٤٢ و ٤٧ و ٥٣ و ٥٧ و ٦٣ .
٥) خطط الشام ٢٤٩/١ .

فأجابه عبد المحسن :

جزاك الله عن ذا النصح خيراً   ولكن جاء في الزمن الأخير
وقد حدت لي السبعون حداً   نهى عما أمرت من الأمور (١)

ويبدو أنه في هذه المرحلة الأخيرة من حياته وقد صده العجز عن السعي ، شكا أخاه لجفوته إياه وهجاه . وقد توفي في صور نهار الاحد في التاسع من شوال (سنة ٤١٩ هـ – ١٠٢٨ ميلادية) (٢) . ولم يخلف إلا ولداً واحداً اسمه عبد المنعم وكان شاعراً مثله . ولقد غلب الفقر على حياة الصوري حتى بلغ حد الادقاع ، وتمادى الفقر في غيه حتى أجبره على بيع عمامته :

قالوا عسى ثقلت عليه فباعها من غير عدم
والله ما ثقلت عليّ عمامتي بل خفّ كمي (٣)

أسفاره :

تنقل عبد المحسن في دائرة من بلدان ومدن قصيرة القطر ، ومركزها صور التي كانت المنطلق ومحط الرحال بعد العودة ، وإذا فارقها يحن اليها . ولقد تردد على صيدا وبيروت وطرابلس وحلب ودمشق والرملة وطبرية وعكا ، ولم يتخط حدود هذه الدائرة ، ولقد كان يميل للسفر الى مصر وفيها الحاكم بأمر الله الفاطمي :

« جفني على شوك القتادة مطبق   وجوىً الى حيث الكنانة يسبق

ولكنه لم يستطع الخروج الى مصر مع كثرة الدواعي التي توجب الذهاب اليها ، ومن جملتها ان مصر يومئذ بلد الفاطميين ، وهو يكثر من مدحهم ويتعصب لهم ، وينصر دعوتهم ، كما أن مصر في عهدهم اجتذبت جماعة من اعلام الفكر والأدب والفلسفة ، والغالب ان الفاقة وسوء تأثيرها على مزاجه اقعدته عن الاسفار (٤) .

حصلت بمصر همتي واستوطنت   وافادني عدمي سواها موطنا

١) الديوان ص ٧٢ .
٢) ابن خلكان ٢/٤٠٠ .
٣) الديوان ص ١٨٣ .
٤) الشيبي ، العرفان ٣٢/١٦ .

كان عبد المحسن يخشى ان تعرضه اسفاره للمهانة ، وتنال من كرامته التي حافظ عليها فهو يفضل الفقر والفاقة مع الكرامة على الغنى مع المهانة والمذلة :

عجبت من نفسي ومن أنها   كأنها تكثر بالقلة
تمتاز بالفقر متى استشعرت   أن الغنى يؤخذ بالذلة (١)

الصوري والشعراء :

لقاؤه بأبي العلاء :

كان عبد المحسن على علاقة طيبة بمجموعة من الشعراء من معاصريه ، وكان له معهم اجتماعات أو مكاتبات ، منهم ابن لؤلؤ الكاتب (٢) ، والشاعر الكبير ابن وكيع التنيسي ، (٣٩٣ هـ – ١٠٠٣ م) وهو بارع وعالم جامع فاق أهل زمانه فلم يتقدمه أحد من أوانه ، وله كل بديعة تسخر الاوهام ، وتستعبد الافهام (٣) . واسحق ابن القوالة (٤) وابن بشر الشاعر وعبد الله بن العذري ، والشاعر الكبير أحمد بن سليمان الفخري الذي كان يكاتبه من دمشق (٥) . ولعل خير لقاء له كان مع الشاعر الكبير ، جليس المعرة ابي العلاء ، ولا يعرف مكان اللقاء فقد يكون في دمشق او في طرابلس او المعرة نفسها .

فلقد تردد المعري على هذه الاماكن ، كما تردد عليها عبد المحسن ، ومدح الصوري في طرابلس قاضيها ابن حيدرة ؛ وبعد يوم من لقائها نظم عبد المحسن أبياتاً أدعى فيها أن المعري قد وافقه على آرائه ، وتراجع عما كان قد اعتقده سابقاً :

نجا المعري من العار   ومن شناعات وأخبار
وافقني أمس على أنه   يقول بالجنة والنار
وانه لا عاد من بعدها   يصبو إلى مذهب بكار (٦)

١) الديوان ص ٢٤ .
٢) يتيمة الدهر ١/٤٢٢ .
٣) يتيمة الدهر ١/٣٥٦ .
٤) الديوان ص ٣٦ و ١٣٨ .
٥) اليتيمة ١/٣٠٩ ـ الديوان ص ٧٢ .
٦) الديوان ص ٨٧ .

ويظهر أنه يقصد بشاراً لا بكاراً ، وقد جاء هذا تحريفاً ، هذا مع العلم ان بشار كان يميل الى الالحاد ، والى هذا التعليل يذهب بعضهم (١) . وهذا اللقاء يدل على امكانية الصوري العلمية ، ومقدرته الكلامية ، ليواجه أبا العلاء ، ولعل عبد المحسن يكون قد رأى المعري في المعرة نفسها فقد مدح عاملها الناصح بن علي الهاشمي زمن سعد الدولة ، ومعروف أن سعد الدولة بقي الى مابعد سنة (٣٨٠ هـ - ١١٩٠ م) (٢) . ولا بد أن يكون الصوري قد زار المعرة ، اكثر من مرة ومدح عاملها (٣) .

مذهبـه :

الصوري شيعي المذهب ، متعصب لعلي ، يتردد مدح آل البيت في ديوانه ، وقد ذكر علياً في أكثر من قصيدة ، ولقد قاربت قصائده العشر في مدحهم (٤) ، ولعلها تعتبر أكثر المدائح اخلاصاً ، لأنه ما مدحهم أو رثاهم ليطلب مالاً ، أو ينتظر عطاءً ، وقد صار يرى أمامه الاشياء في حالات مختلفة فيتصورها تبكي علياً وآله :

بيننا شمعة تذوب كجسم ... لغريب ثوى بأرض الغري (٥)
دمعها هاطل كدمعي عليه ... وهي ما بيننا كجسم خلي
قلت ما ذنبك الذي منه أحرقـ ... ـت فقالت لفرط سر خفي
عذبوني بالنار عمداً لأني ... اعتقدت الولا لغير علي (٦)

ونلاحظ ان جميع من اتصل بهم من امراء وعمال كانوا شيعة ، أو من قبل سادتهم الشيعة ، كالحمدانيين والفاطميين . ولقد وجد في قيام الدولة الفاطمية متنفساً لمشاعره المكبوتة ، ومؤازرة لمذهبه ، وقد هتف في وجه أنصار أمية

١) الشبيبي - العرفان ٣٢/١٦ .
٢) خطط الشام ٢٣٥/١ .
٣) الديوان ص ١٠٤ .
٤) الديوان الصفحات : ١٣ - ١٥ - ٦٤ - ٢٧ - ١٠٩ - ١٦٣ - ١٨٩ - ١٩٠ .
٥) الغري : النجف .
٦) الديوان ص ٢٣٤ .

مذكراً بماضيهم :

مضت أعصر معوجة باعوجاجكم ... فلا تنكروا أن قوّم الدهر قائمه (١)

وهو يعتز بولاء علي ويعتبره خير ما تحويه الضمائر :

ولاؤك خير ما تحت الضمير ... وأنفس ما تمكن في الصدور (٢)

آثاره :

ليس من آثار عبد المحسن الصوري إلا ديوان مخطوط ، توجد منه نسخة فريدة في لبنان هي نسخة سليمان ظاهر ، عدد صفحاتها ٢٣٧ من القطع المتوسط ، كتبت في بغداد سنة (١٣٥٢ هـ) في ١٧ جمادى الأولى . وهي نسخة حديثة نقلت عن نسخة الشيخ محمد رضا الشبيبي ، التي نسخها والده عن نسخة تعود بتاريخها الى أوائل القرن السادس الهجري (٣) . وقد وجد الشبيبي هذه النسخة من ديوان الصوري في خزانة آل العطار في بغداد مع نفائس عديدة من المخطوطات (٤) . والنسخة التي بين ايدينا كتبت بخط واضح جميل ، بقلم الجواد بن عبد الحميد النجفي في كرخ بغداد (٥) .

لم يطبع ديوان عبد المحسن حتى الآن ، والمخطوطات الموجودة تحوي أغلاطاً عديدة ، عدا عن نقص واضح في قصائدها وقد ذكر صاحب اليتيمة قصائد لم توجد في الديوان (٦) . ويبدو أن ديوانه كان منتشراً حوالي القرن السادس والسابع الهجري ، فقد شك ابن خلكان في قصيدة نسبت لعبد المحسن كان قد ذكرها صاحب اليتيمة في كتابه ، فقال ابن خلكان : ولكني وجدتها في ديوانه (٧) . ويحوي الديوان ما يزيد على خمسة آلاف بيت من الشعر .

١) الديوان ص ١٨٩ .
٢) الديوان ص ٦٤ .
٣) أعيان الشيعة ١١٠/٣٩ .
٤) الشبيبي - العرفان ١٥/٣٢ .
٥) الديوان ص ٢٣٧ .
٦) يتيمة الدهر ٣٠٩/١ .
٧) وفيات الاعيان ٣٩٩/٢ .

شاعريته :

قال ابو منصور الثعالبي معاصره المتوفى سنة (٤٢٩ هـ – ١٠٣٨ م) يقيّم شاعرية الصوري وشعره : (احد المحسنين الفضلاء ، المجيدين الأدباء ، شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن اهل الشام[١]) .

ولقد ذكر ابن خلكان هذا القول بتمامه وأضاف اليه : (له ديوان شعر أحسن فيه كل الاحسان)[٢] .

وقال عنه الحر العاملي : عبد المحسن الصوري العاملي فاضل شاعر اديب .. وقد بيّن في كتابه من أخذ عن عبد المحسن من الشعراء العامليين[٣] .

ولقد أجمل الثعالبي وابن خلكان في وصف شاعريته ، ولم يبلغوا بهـا حد التفصيل ، واكتفى كل منهما بإيراد الجميل من شعره . ويبدو عبد المحسن شاعراً رقيق العاطفة ، ملتهب المشاعر ، يتأثر بالجمال من الشكل والفعل ، فينطلق لسانه معبراً عما يجيش في صدره . وانك لتلمس الصدق في مدائحه المتعددة ، وكأنه حاول أن يكون صادقاً مع الجميع . وانك لا تقع في شعره على ما يشيد بالقوة وحب العظمة شأن معاصره وسابقه أبي الطيب ، مع أنه رافق قواد الجيوش وآباءها . ولكنه مع ذلك كريم النفس ، رغم إملاقه ، فهو يمدح ولكنه يدرك أن هذا المديح الذي يتقاضى عنه مالاً يدفعه من كرامته وعفته :

الناس صنفان فمن قد ... مالاً ولا فيك بأفضاله

فواحد ينفق من وجهه ... وآخر ينفق من ماله

إنه شعر عذب ، من روح معذبة بالفقر والجمال ، تناهت في رقتها أوصافه حتى لم يسبقه اليها سابق ، فموصوفاته تبدو كأنها على لعوصة بالغة تشاكل رقة ذاته :

أومأت بالحظ الى جسمه ... فكاد أن يدميه إيمائي[٤]

(١) اليتيمة ١/٢٩٦ .
(٢) أمل الأمل ص ١٠٩ .
(٣) وفيات الأعيان ٢/٢٨٧ .
(٤) من شعره في اليتيمة ١/٢٩٩ .

وكمثل هذا الجسم تبدو شاعريته تؤثر فيها النظرة ، ويودي به الطرف ، وينفره بين الحبيب بفراق الحياة . وتبدو الشاعرية شيئاً ليس فقط تمكن من ذاته بل هي جبلت بهذه الذات ، فأصبحت جزءاً منها ، وشيئاً لا ينفصل عنها ، فهو ينظم الشعر وإن كان نائماً ، وليس أدل من اصالة الشاعرية فيه غير يقظتها الدائمة في ضميره ، التي تتعدى حدود يقظته[١] . ولأول مرة يتناهى الينا ذكر شاعر يقول الشعر ، وينظم القصائد في غفوته . لقد كان في شاعريته كصاحب المهنة المخلص ، أخذ على عاتقه إتقان هذه المهنة ، فوصل بها الى حد الإبداع . ولعلك لا ترى في شاعريته قمماً تتناهى في العلاء ، وأوطئة تتدانى في إذلال الرأس ، كان شعره يسير على وتيرة واحدة من المستوى ، تطرد فيه القصائد متشابهة في القوة ، متقاربة في العطاء ، فنفسه واحدة أبداً لا تتكلف الشعور ، وإن تكلفت اللفظ أكثر الأحيان . فكأن شاعرية الصوري مطبوع على الإجادة كما قال الشبيبي في أكثر أبواب الشعر غزلاً وتشبيباً (وشعره من ذلك السهل الممتنع يمتاز بجمال العبارة ، ومتانة الديباجة ، مع ميل ظاهر الى الإبداع والابتكار في المعاني)[٢] .

الفنون الادبية في شعره :

ليس غريباً أن يملأ المديح أكثر ديوانه ، لأنه ملأ كل حياته ، وكان وسيلة التكسب لديه ، فهو يبدو فنه الأساسي في انتاجه الشعري ، وإن لم يكن أساساً في بناء شاعريته ، ولم يكن في هذا الفن مبدعاً ومجدداً وإن كان مجيداً ، فأمثال عبد المحسن الصوري لا يجرأون على التجديد ، فمن كان همه أن يعيش منه يطلق شاعريته على سجيتها ، ويترك الأمور تسير على طبيعتها ، وينطلق لغرضه الأول حياته وعيشه . ولعل تشبث شاعريته بالمال يضفي على المديح لديه شكلاً مميزاً ، فهو وإن نهج طريقة المدح مبدوءاً بالغزل ، يتخلص منه بلطف الى ممدوحه وكرمه وعطائه ، فان التغزل بهذا الممدوح يكون البداية ، وقد تزيد أبيات الغزل في قصيدته على المديح ، وكأنه يظن إنما بالغ بوصف جمال الممدوح

(١) الديوان ص ٢٢٢ .
(٢) الشريبي – الفرقان ٥/١١٣ .

وفاه حقه من المدح ، فليس المدح بالكرم كما يرى فللجمال نصيبــــه . ويخيم على المدح عنده طيف المتنبي فتحس بأنه تأثر بأبي الطيب في شعره .

أبا الجيش حسب الشعر ما أنت صانع   وقد عجزت عن وصف ذاك القصائد
أما انصلحت للحال منك طوية   فتصلحه حتى متى أنت حــاقد
ولن يستطع المظهرون معايبي   سوى أن يقولوا ناقص الحال زائد (١)

لعل في هذا الشعر ما يذكر بمواقف مشابهة لأبي الطيب مع سيف الدولة وكافور .

ولعل الباب الثاني الذي يبـــدو أكثر انسجاماً مع شاعريته هو **الغزل والتشبيب** ، يقوله لا طمعاً بمال ، او خوفاً من سطوة ، فتبرز ذاته على حقيقتها امام موضوع الجمال منفعلة ، فتتكشف لنا صور من نفسه . وكل ما يهمه من هذا الجمال طرف سقيم ، اورث جسمه السقم وخلى بين عينيه والكرى ، وجفون تبدو له متوناً فاتنة ، أو بدر يشرق وجه جمالاً ، وكل عناصر الجمال هذه تبدو تقليدية لم يخرج عليها ، فهو لا يستطيع أن يتخطى حدود زمانه الذي تعارف أهله على حدود جمال معين ، ولكنه يبدو شعراً يمتلىء حياة إذ يسري فيه شعور صادق ، ولا يناسب غزله في صدق الانفعال إلا مدح آل البيت ورثاؤهم في جملة من قصائد . ولقد وصف الخمرة تقليداً فأجاد ويظهر أنه لم يعاقرها كثيراً ، على أنه كان يحضر مجالس ابن ملهم ، وقد وصف الشراب في أكثر من مقطوعــة وقصيدة (٢) . ولقد كان يعرف تحريمها ويدرك مآثمها ولكن :

للرحمن في يوم حساب النــاس غفران

ويصف شاربها فيقول :

شيــاطين تولى بسطهم في الغي شيطــان
أطاعوه وفي طاعتــه لله عصيــان (٣)

ولعلنا نلاحظ في هذا ظاهرة نواسية تملأ شعره ، كما أنه في مسلكه يبـــدو

١) الديوان ص ٢٧ .
٢) الديوان ص ١٣/٢١٨ - ٢١٩ .
٣) الديوان ٢١٩ .

شبيهاً بالحسن ابي نواس ، فقد كان يستحلي الجمال في الصبية والغلمان ، ولعله شذ بغزله فحاد عن طريقه الطبيعية ، فترك أكثر الاحيان التشبيب بالمرأة وتعلق بوصف الصبية :

ما بين جفنيك من هم وتسهيد   ما كنت مستحسناً من أعين الغيد

أو يشبب بصبي نصراني من صور :

بأبيكم المطران أو بالاسقف   وبيوسف أشرقت صورة يوسف
وبعقــد زنار عقدت قلوبنـــا   فيــه على خصر دقيــق أهيف
جد بالوصال أبا سعيــد لمدنف   بهواك واستغنم ثواب المدنف

ويبـــدع في هذا النوع من الغزل لأنه يرضي شيئاً من ذاته . ويزيد عدد غلمانياته على المقطوعات التي تغزل فيها بالمرأة وشبب ، وكل جميل من الصبية في بلد من البلدان يأخذ منه مأخذاً كبيراً ، ولعلك إن شئت أن تتعرف حــدود رحلة الصوري لوجدتها في غلمانياته ، فهو يصف صبياً في صيدا وآخر في عــكا والرملة والرقة ودمشق (١) . وقد قال في صبي من الرقة :

قلت وقد أولــع بي مقلة   نجلاء في صنعتها حاذقــة
رق من الرقة إن كنت من   سكانها وارفق من الرافقة

وله في الرثاء أبيات جميلة ، وأوصاف مستجدة ، ولكنها مقطوعات قليلة وقصيرة اذا استثنينا مراثيه في آل البيت التي تبلغ حد القصائد ، ولقد رثى من توفي من ممدوحيه كأبي الجيش حامد ، وكان رثاؤه مدحاً لا تفجعاً :

يا واحداً ميتــاً ولمــا   كان حياً كان ألفاً
لهفي عليك وحق لي   فيما ارى لو مت لهفاً (٢)

ولعل خير مرثياته قوله في أمه وقد تفجع عليها :

رهينة احجار ببيـــداء دكدك   تولت فحلت عروة المتمسك
وقد كنت اشكو إن تشكت وانما   انا اليوم أشكو أنها ليس تشتكي (٣)

١) الديوان ص ٣٦ - ٤٢ - ٩٥ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٩٨ .
٢) الديوان ص ١١٦ .   ٣) ص ١٣٠ .

وقال ابن خلكان إن هذه الصورة لتشبه الى حد بعيد ما قال ابو الطيب :

وشكيتي فقد السقام لأنه   قد كان لما كان لي اعضاء[١]

وقد رثى بدافع مذهبي وديني الشيخ المفيد محمد بن النعمان المتوفى عام (٤١٣ هـ - ١٠٢٣ م) وهو شيخ مشايخ الامامية في بغداد :

يا له طارقاً من الحدثان   الحق في النعمان بالنعمان
برأت ذمة المنون من الايـ   ـمان لما اعتدت على الايمان[٢]

وقد يرثي وفاة لمن أحسن اليه ، كما فعل لأحد اصحابه ابي يعلى الفضل ابن سلمة :

إن تبكه عيني فقد طالما   أبكيته حزناً على عيني
او تجري عيناي عليه دماً   فإنما أقضي به ديني[٣]

وقد عارض الدهر صفو عبد المحسن ، فكان فقيراً معدماً وكثيراً ما ناله الناس ، فانبرى يرد عن نفسه بالشعر سلاحه فيهجوهم وقد كان له في الهجاء شأن سائر الفنون الشعرية التي طرقها اجادات لا تحصى ، ولعل الهجاء في عدد مقطوعاته زاد على الرثاء . ولعل أول من هجاه بنفس معذبة أخاه الذي قلاه وتنكر لأخوته :

أخ ويا رب جراح له   لم يغن فيه دم الأخوين

وتطلع الى عمامة أخيه فوجدها مخزناً لحاجاته ، وموضوعاً لهجائه ، والنيل منه فقال :

عمامة تبدو بها جالساً   وجاهلاً مدرعا فيها
لو فتشوها وجدوا كلما   يملكه في بيته فيها[٤]

وكثيراً ما هجا العديل بن قتيبة الذي استشعر ونظم وعد نفسه أحسن من الصوري شعراً ، وقد أقذع عبد المحسن في هجائه في اكثر من موضع من ديوانه :

أراني كلما انكرت قولا   اعاب به يقال حكى العديل

١) وفيات الاعيان ٢/٤٠٠ .
٢) الديوان ص ٢٠٨ .
٣) الديوان ص ٢٠٩ .
٤) الديوان ص ٢٣١ .

رضيت الشعر دون الشعر هجرا   لكم فلكم به حرب وويل[١]

ولقد أطلق لنفسه العنان ، في هجائه ، فعمد الى استعمال ثقل الكلم ، وحاد عن سبيل الهجاء المعتاد الى ما تأبى الأذن سماعه . وخاصة في العديل بن قتيبة[٢] . وقد هجا مغنية بطبرية لم يعجبه صوتها وغناؤها :

حدثينا حديث نوح وكم كا   ن غداة الطوفان أهل السفينه
فاجعلي كلما تقولين وعظاً   واذكري الدهر سالفاً وقرونه[٣]

كما هجا بعض الذين تناهى الخطاطيم الخلقي من نساء ورجال ، ولعله تعرف الى هذا النوع من أبناء المجتمع وتعرف الى مساوئهم[٤] .

وقد هجا بعض البخلاء الذين نزل عندهم مستغلاً الحديث النبوي .

بت ضيفاً له كما حكم الدهـ   ـر وفي حكمه على الحر قبح
قال لي إذ نزلت وهو من السكـ   ـر والهم طافح ليس يصحو
لم تغربت قلت قال رسول الله   والقول منه نصح ونجح
سافروا تغنموا فقال وقد قا   ل تمام الحديث صوموا تصحوا[٥]

وقد استعمل الشعر للتعبير عن حاجاته الخاصة ، وحكى جميع أغراض حياته ، وكاتب به اخوانه الشعراء والكتاب والقضاة والأصدقاء ، كما له قصائد تحنيا حنينه لصور حين غادرها[٦] . وهناك نفحات خاطفة وصف بها الطبيعة عرضاً لا قاصداً ، وخير ما قيل في هذا الميدان وصفه النزهة في شاطىء نهر الليطاني .

لا يوم كان كيومنـا   في المعجبات بشاطىء ليطا
والطل ينثر كل وقـ   ـت لؤلؤاً فيها سقيطا
فاذا رأيت الدر ابصـ   ـرت العقيق به منوطا
والطير تسلق النشيد بها   بها وتقتضب البسيطا[٧]

واذا وصف البحر وصف الجود في ممدوحه ، والكرم في جليسه ، كما فعل لما

١) الديوان ص ١٥٠ .   ٢) الديوان ص ١٣٨ .
٣) الديوان ص ٢١١ .   ٤) الديوان ص ٦٩ و ٧٣ .
٥) ورد في يتيمة الدهر ١/٣٠٠ .   ٦) الديوان ص ١٣٦ .   ٧) الديوان ص ٩٥ .

ركب بمركب في بحيرة طبرية مع ابن ملهم ، فوصفها والليلَ وشبه حامـــد بن ملهم بها [١] .

وكما وصف المدن ومنها دمشق ، وفي كل هذه المجالات يبدو واحد الشخصية ، واحد الشاعرية في المستوى ، لأنه كان شاعراً بطبعــه لا يتكلف المعنى وإن تكلف شيئاً قليلاً في مبانيه .

مذهبه الشعري :

ديوان عبد المحسن مجموعة مقطوعات صغيرة ، تبرز بينهـا جملة من قصائد ، وتبلغ المقطوعات فيه أضعاف المطولات ، فهو يميل الى الإيجاز الذي اعتمده مذهباً في شعره ، يضمن القليل من اللفظ كثيراً من المعاني ، وهو يعتز بمذهبه هـذا ويدافع عنه ، ولقد وردت في تضاعيف ديوانه لمحات تشير الى هذا المعنى :

لقد انفردت فكنت وحـدك سامعا   وقد انفردت فكنت وحدي شاعرا
ولطالما كثرت أقاويل الورى   فأتيت بالنــزر القليل مكاثرا

وجاء في مدحه للأمير وهيب بن أبي رمادة ، يقول عن قصيدته :

أطلت معانيها وقصرت لفظها   واوردتها بكراً وتعذر أيّما [٢]

وقد تردد هـذا المعنى في أكثر من قصيدة ، يشير فيها الى ميله للاختصار والايجاز ، وقال في نهاية قصيدته بمدح الأمير لؤلؤ البشاري :

سأنظم من حبيك فيك عقدا   وأترك مـا تبقى للنثار
فربتما أطـال الناس قولاً   فطاول ذلك القول اختصاري [٣]

وقال مادحاً الأستاذ ابا الجيش البشارة مضمناً ميله الى هذا المذهب :

ابا حسن رب شـعر أطلت   وإن قيل أني اعتمدت اختصاره
اذا مـا معانيـه طالت فما   يضرك أن لا تطول العباره [٤]

وهكذا نرى المعاني تزدحم في أبيات قلائل ، وهو ليس من مذهب مشرّحي الفكرة الواحـدة والمعنى الفرد بأبيات قلية ، يقلبون المعنى ظهراً لبطن . فهو

١) الديوان ١٥١ .
٢) الديوان ص ٥٥ .
٣) الديوان ص ١٨٥ .
٤) الديوان ص ٥٦ .

يتبع المثل خير الكلام ماقل ودل .. ولعل في هذا الميل ما يفسر احتفال ديوانه باللامتناهي من قصائده الصغيرة ، وتضاؤل المطولات في ديوانه أمام مقطوعاته .

وهو يعتز كالمتنبي بشاعريته وشعره ، كما قال في مدح ابي نصر سعيد بن ماجد :

فسل القوافي السائرات ألم تكن   باسمي بشير ويستعاد نشيدها [١]
وان اختصرت ولم اطلها انه   سيطول في دار الثناء خلودها

يذكرنا هذا بقول المتنبي :

اجزني إذا أنشدت شعراً فانما   بشعري أتاك المادحون مرددا

هذا وان طيف المتنبي وابي نواس والشريف الرضي يحوم في شعره ، وأشباح نفوسهم ماثلة في ذهنه ، وانك لتحس اقامة العمالقة هؤلاء في نفس هذا الشاعر ، تدركها بحدسك اذا أطلت العيش مع ديوان الصوري ، فكأن في ذاته لمسات من ذواتهم ، ونغمات من شاعريتهم .

اسـلوبه :

يوشك شعر ابي محمد الصوري ان يكون سهلاً ممتنعاً ، يسيل فيه ماء الطبع فيعبر عن شاعرية عملاقة ليست أقل قيمة من طيبات المتنبي ، وبديعات الحمداني ، والشريف الرضي وأبي نواس ، وهو في معانيه عادي المورد ، لم تصقل ذهنيته فلسفة فترتفع بشعره الى الراقيات من مستويات الفكر ، على ان في شعره لمحات كلامية ، ولعله انطبع بمناخ فكري في صور يسوده الحديث لكثرة المحدثين فيها . وفي شعره لمسات من هذا :

قطع الحديث عن المكا   رم ثم صار اليـه يسند

ولقد أورد في بيت واحد من حديثين نبويين اثنين :

سافروا تغنموا فقال وقد قا   ل تمام الحديث صوموا تصحوا

وفي اسلوبه اختصار جميل لمعنى مطول ، وتبدو في بنائه صناعة مكدودة ، وجهد واضح ، يفسره لنا تراكم الوجوه البيانية ، والأساليب البديعية في

١) الديوان ص ٢٣ .

مقطوعاته ، فهو يورد الكلمات المتقاربة في شكلها اللفظي والمتقابلة من جناس وطباق .

كقوله :

افسدت دنياي ولا دين لي   تفسده فاصدع بما تؤمر

او :

ومعتذر العذار الى فؤاد   لجرم سابق من مقلتيه

او :

سلوا صدغه لم جرى ؟   ولما جرى لم وقف ؟

او في الجناس :

ظبي أقام قيامتي   من قبل أن تأتي القيامة

او :

وأخ مسه نزولي بقرح   مثل ما مسني من الجوع قرح

وفي الجناس ايضاً :

يا علة الأجفان كفّي كفى   ما حملت منك وما استوقفت

ويعمد الى وجوه بيانية كالكناية والاستعارة :

عندي حدائق شكر غرس جودكم   قد مسها عطش فليسق من غرسا
تداركوها وفي أغصانها رمق   فلن يعود اخضرار العود إن يبسا

ومن استعاراته :

تعلمت وجنته رقية   لعقرب الصدغ فما تلسع
صمت عن العاذل في حبه   أذني فما لي مسمع يسمع

وهكذا نراه يزيد على الإجادة التي طبع عليها جمال تركيب يتعمده فيزداد الشعر جمالاً بهذه التوشيات التي تكسبه موسيقى متآلفة ، والشعر في طبعه موسيقى فكيف اذا كانت الكلمات متآلفة فيها ، وهكذا تبدو الرقة التي تهيمن على شعره والتي هي اشعاع نفسه عني بأجزاء البيت ، بل بأجزاء صفة يتشبث بها أدبه ، هذه الرقة ممزوجة بجميل اللفظ المتخير عن قصد ، والتي

لا تقل في رفعة شأنها ، وشرف منبتها ، عن المعاني التي تحملها ، لذا فان عملية الاختيار والانتقاء في شعر الصوري صعبة ، فالاختيار بداية حيرة لا تنتهي او تنتهي بك الى عرض الديوان كله . فانك لا تمل العيش مع شعره لانه تعبير جميل عن شعور ساذج بالجمال ، فالصوري مترف الذوق ، وشعره مدرسة في تنمية هذا الذوق ، كلامه ساحر تنصل من خشونة البادية ، وأخذ شكله من ترف الحضر ، فهو قريب منا لا يختلط أبداً بغريب القول ، أو نافر الكلم الا لماماً .

انتشار شعره :

ان العذوبة التي وُسِم بها شعره أسهمت الى حد كبير في انتشاره ، خاصة في عهده وعصره ، وقد ذاعت قصائده الجميلة وسرت على كل لسان ، وأحلى قصائده الواسعة الشهرة قصيدة قالها في علي بن الحسين والد الوزير ابي القاسم المغربي :

أترى بثأر أم بدين   علقت محاسنها بعيني
في خصرها وقوامها   ولحاظها مافي الرديني[1]
وبوجهها ماء الشبا   ب خليط نار الوجنتين

وهي قصيدة طويلة جداً ولها حكاية طريفة ، وهي انه كان بمدينة عسقلان رئيس يسمى ذو المنقبتين جاءه بعض الشعراء وامتدحه بهذه القصيدة وجاء فيها :

ولك المناقب كلها   فلم اقتصرت على اثنتين

فأصغى الرئيس الى انشاده واستحسنها واجزل جائزتها ، فلما خرج من عنده قال له بعض الحاضرين هذه القصيدة لعبد المحسن الصوري ، فقال أعلم هذا وأحفظ القصيدة ثم انشدها ، قال له الرجل كيف عملت معه هذا العمل من الاقبال عليه والجائزة السنية ، فقال : لم أفعل ذلك الا لأجل البيت الذي ضمنها وهو قوله :

---

١) السيف .

ولك المناقب كلها فلم اقتصرت على اثنتين [1]

هذه الحكاية التي وردت في أكثر من مصدر ادبي تدل على انتشار شعر هذا الرجل ، فقد استعذبه أبناء عصره وحفظوه ، وقد كان ديوانه متداولاً بين الناس في القرن السادس الهجري والسابع [2] ، وقد اطلع عليه ابن خلكان . ويبدو ان من جاء بعد هذه الفترة لم يتكلم عنه أو يدرسه فقد بقي شعره مخطوطاً غير متداول حتى أيامنا هذه وكل ما يعرفه الناس عن عبد المحسن انه شاعر له بعض القصائد الجميلة ، ولولا ابن خلكان وابن العماد وصاحب اليتيمة ذو الفضل الاول لضاع اسم هذا الرجل وذكره ، ولم يعن به المؤرخون وقد أهمله المترجمون والمهتمون بأعيان الفكر ، وهكذا أوشك أن يعيش نكرة في تاريخ الفكر العربي مع أنه أولى من غيره في الذكر واكثر اجادة .

منزلتـــه :

شعر عبد المحسن الصوري جوهرة مطمورة تحتاج الى صائغ مبدع يزيل عنها شوائب القدم ، ويبرزها الى الناس على حقيقتها دون حجاب ، فتشع وتنير بين لآلىء الفكر اكثر من زميلاتها . ولو قدر لعبد المحسن أن يعيش في ظروف ابي الطيب ، ويكون له من الشخصية الاجتماعية ما لذاك لفرض نفسه على مجتمعه وعلى التاريخ بعده ، ولو عاش في بلاط احد الملوك اللامعين لبرز اسمه مع اسمهم ، ولكنه رافق المغمورين من القادة والولاة الذين تولوا الأعمال في الشام أو طبرية ليسير من الزمن لا يعتبر بعمله ومدته حدثاً تاريخيا . ولعل ميله الى العزلة في حياته اخمل من ذكره بين معاصريه وابعده عن حلبة الحياة :

أنست بوحدتي حتى لو اني رأيت الانس لاستوحشت منه

ولكن خلود عبد المحسن في شعره لا في حياته ، وبقاءه في جوهره الذي يبدو كخطفات من نور تدعو الرائي الى مطاردة هذا النور والبحث عنه . شاعريته الجديرة بالحياة ، تحفل بها الحياة فتمد لها يد العون لتبرز وتأخذ مكانها الحق .

---

[1]) ابن خلكان ٢/٢٩٨/٣٩٦ ـ ابن العماد شذرات الذهب ٣/٢١٢ .

[2]) ابن خلكان ١/٣٩٩ .

الفصل الرابع

دور المدارس والاتصال بالعراق وفارس

- تمهيد .
- ازدهار الحركة .
- وجوه النشاط العلمي :

الفقه والحديث – الفلسفة والنفس والتربية – العلوم العقلية والرياضيات – التاريخ والسيرة – علوم اللغة .

- النشاط الادبي :

كلاسيكية الادب العاملي – طابع الأدب وأغراضه .

- دراسات ونماذج :

ابراهيم الكفعمي – البهاء العاملي – حسن ابن الشهيد – محمد علي المشغري .

دور المدارس والاتصال بالعراق وفارس

تمهيد :

يمتد هذا العهد منذ أوائل القرن الثامن الهجري حتى نهاية القرن الحادي عشر من (القرن ١٤ م حتى الـ ١٧ م) . اربعة قرون زاخرة بحركة علمية ناشطة ، عملت في البداية على تركيز الثقافة في الأرض العاملية ، ثم انطلق بعض أربابها الى أجواء أرحب ينثرون المعرفة ، في بلاد عديدة ومجاورة . ولقد اعتمدت الحركة اساسين اثنين في بنائها الشامخ :

مدارس تشاد في ربى عاملة بين جزين وميس وجبع وعيناثا تنشر الثقافة بين أبنائه ، ضمن دائرة من معارف تزداد اتساعاً مع الزمن ، وعمقاً مع جهودهم التي ما عرفت الملل ولا داخلها السأم .

ثم تستمد هذه الحركة مواد بنائها من مياهات العلم المنتشرة في الشرق ، يسترشدون بها لحركتهم وتغدو مثال نشاطهم ، فيقصدون مراكز العلم في العراق ومصر والشام[1] ويعمرون بجهدهم حركة فتية في فارس يدعمها تأييد سياسي[2] .

ومن هذه الحواضر يتلقون مددهم العلمي ، وتأييدهم المعنوي ، ليعودوا الى بلادهم عقولاً ناضجة فيبثون بين أبنائها العلم فيرتفع على الزمن ثقله النوعي في نسبه العالية .

ولا نجد بعد عاملَيّ المدارس والرحلة عاملاً آخر إلا جهوداً عصامية المنى ، توثق العلاقة بينها فتدفع الحركة في سبيل مثالي ، فنحن لا نقع في محاولتنا تقييم هذه الوثبة العلمية على عامل سياسي يشد من أزرها في أرض الوطن ، هذا اذا لم نجد العكس ، فجبل عامل خلال هذه الفترة كان جزءاً من بلاد الشام ، تابعاً في

١) راجع فصل الرحلة العلمية والمدارس ص ٢٥ . ٢) الدولة الصفوية في ايران .

وضعه السياسي للسلطات الحاكمة في هذه البقاع ، أو المسيطرة عليها ، كالمماليك والعثمانيين ، ينالها ما ينال المناطق حولها من خير وشر[1] . ويبدو أن الحكومات القائمة ذاك العصر كانت قد ضيقت الخناق على علماء الجبل العاملي في إبلاغهم الدعوة الى الحرية الفكرية ، وذهب ضحية هذا الضغط شهيدان من كبار مفكريهم فأصبحا يعرفان بالشهيد الاول والشهيد الثاني ، لقبان اشتهرا بها في أصقاع الشرق وحواضره العلمية وكانت الخصومات المذهبية سبب مقتل هذين الشهيدين .

وبحثاً عن الحرية الفكرية وتحقيقاً لنشاط علمي في ظل دولة تؤمن حياتهم وتوفر لهم الطمأنينة ، قصدوا البلاد الايرانية وكانت الدولة فيها قد اصبحت شيعية المذهب منذ القرن العاشر الهجري (١٦ م) منذ استولى الصفويون على زمام الحكم[2] . ونحن نلاحظ في روح هذه الحركة اخلاصاً عقائدياً متناهياً يرقى بهم الى حدود الاستشهاد ، فغايتهم من بث هذه المعارف تحصين مذهبهم بسلاح عقلي وفكري في وسط اجتماعي تغاير مذاهبه مذهبهم ، وتفصل بينهم وبين من يشاركهم في المعتقد حدود وسدود ومسافات شاسعة ، فلا بد وأن تنبع قوة هذا المذهب من وطنهم ، ويقوم حصنهم في أرضهم متوكئاً الى حد كبير على التقية ، ولعل هذا هو الذي جعلها تتسم بالعزلة لا تساير الحركات الطارئة إلا قليلاً وبصعوبة . وازدحام الجبل بالمدارس وتعدد الرحلات الى الحواضر العلمية يسمح لنا بتسمية هذا العهد : دور المدارس والاتصال بالعراق وفارس .

ازدهار الحركة :

لقد بلغت الحركة الفكرية من النشاط أوجه في هذه القرون الأربعة ، فازدهر الجبل بالعلماء ، ويكفي أن يكون محمد الحر العاملي وهو من أبناء القرن الحادي عشر هجري قد ترجم لما يزيد على مائتين من مفكريهم الذين عاشوا في هذا العهد ، في كتابه أمل الآمل ، (وكم فاته ممن تقدم على عصره)[3] من

١) احمد رضا العرفان ٢/٢٢٦ . ٢) دائرة معارف بطرس البستاني ٤/٧٣٦ .
٣) اعيان الشيعة ٢٦/٢٠٢

رجال العلم ، وأرباب المعارف ، وقد تحولت أنظار العلماء في أقطار الإماميين الى جبل عامل في هذه الفترة ، وباتوا يعتبرون هذا الجبل منبت الفئة الخيرة من رجال الدين ، وعلماء العقيدة ، فان أمير خراسان علي ابن المؤيد (١) يرجو الشهيد الأول محمد بن مكي ، ويلح باستعطاف راغباً أن يوافيه الى خراسان لنشر العقيدة .

ثم يؤم الجبل طلاب العلم ، وعشاق المعرفة ، من كل صوب فيوافون حلقات العامليين ، ويبرزون في بلادهم مفكرين وشعراء متأثرين بهذا الوسط العلمي ، الذي كان على مستوى رفيع وهذا ما جعله محط انظار الراغبين من الطلاب .

ولقد نبغ من هؤلاء القاصدين من برز في مجالات الفقه والأدب . واذا كان رجالات العامليين يقصدون ايران طلباً للطمأنينة ، فإن الطلاب الايرانيين يقصدون جبل عامل تقتيناً عن المعرفة ، ولعل ناصر بن ابراهيم كان مثلاً على هؤلاء الطلبة (٢) فلقد أمّ جبل عامل وأخذ العلم على ظهير الدين بن الحسام العاملي في مدرسة عيناثا ، وبرز في الفقه والرياضيات كما كان شاعراً بليغاً (٣) .

وطارت للمدارس العاملية شهرة واسعة فكان يقصدها كل من يحل في الشام من العلماء وهذا ما دعا الطبيب الشهير داوود بن عمر الأنطاكي للقول (٤) : (ثم لما خرجت في رفقة كرام نؤم بعض المدن من سواحل الشام حتى اذا صرت في بعض ثغورها المحمية معتني همة علية او علوية أن أصعد منه جبل عاملة فصعدته

---

١) محمد جابر العرفان ٢٧/٣٦٤ .

٢) حسن الأمين ، مجلة الدراسات الأدبية سنة ٣ العدد ٣ ص ٣٠٧ .

٣) هو ناصر بن ابراهيم البويهي الملقب بالعاملي . هاجر الى جبل عامل من ايران في شبابه وأقام في عيناثا احدى قراه وحيث كانت تقوم مدرسة علمية شهيرة . وقد كان عالماً فقيهاً وأصولياً متضلعاً الى جانب معرفة رياضية واسعة ، وقد ألف رسالة في الحساب ، كما له حواش كثيرة في الفقه والأصول ، وهو في الوقت نفسه شاعر عاطفي مجيد . وقد توفي بمرض الطاعون سنة (٨٥٣ هـ - ١٤٤٩ م) ، وكان يهم بالعودة الى بلاده .

٤) هو داوود بن عمر البصير الانطاكي ، قام برحلات عديدة في الشرق رغم أنه أعمى ، وتعلم الطب على يد فارسي اعجمي هو شريف الفارسي ، وهو يعود في نسبه الى ملوك بني بويه الفرس . قصد مصر وأقام فيها وزار الشام ، وكان قد تطبب عليه فشفاه من مرض أقعده . وتوفي في مكة سنة (١٠٠٨ هـ - ١٥٩٩ م) .

منصوباً على المدرج وكنت عامله وأخذت عن مشايخها ما اخذت وبحثت مع فضلائها فيما بحثت) (١) .

وقد حضر الى جبل عامل عبد الله التستري المحقق الأصولي (٢) ، وصاحب المصنفات الفقهية الضخمة ، واستجاز من نعمة الله بن خاتون العاملي كما درس على ولده . وحضر من العراق احمد بن فهد الحلي وقصد جزين واستجاز من ابن الشهيد الاول العلامة علي بن محمد بن مكي ، كما أخذ عن طلاب الشهيد وروى عنهم ، وقد توفي سنة (٨٤١ هـ) في العراق (٣) .

وعلى هذا كان النشاط الفكري يستثير همم الطلبة فيقصدون جبل عامل وحواضره العلمية من بلادهم القصية .

مظاهر النشاط العلمي

•

لقد كانت الحركة في جبل عامل مطبوعة بطابع الدين فهي حركة فكرية عقائدية ، الدين فيها قطب الرحى ، وينحدر عنه معارف متعددة ، تتعلق فيه وتدور في فلكه سائر هذه العلوم والآداب ، وهذا لا يعني أنها كانت حركة محددة الجوانب ، قصيرة المدى ، بل انها قد طوفت في جميع العلوم والفنون ، وباستعراضنا لأوجه المعارف فيها نرى الى أي حد من النشاط كانت قد بلغت هذه الحركة .

---

١) المحبي خلاصة الاثر ٢/١٤٠ .

٢) هو عبد الله بن الحسين التستري كان من الفقهاء الاجلاء صاحب مصنفات عديدة في الاصول . تردد بين اصفهان وكربلاء ، وحضر الى جبل عامل للدرس وتوفي سنة (١٠٢١ هـ - ١٦١٢ م) . ودفن في مدينة كربلاء .

٣) خطط جبل عامل ١/٥٨ - كنى والقاب ١/٣٦٩ .

آ – الفقه والحديث :

من البديهي أن يبرز هؤلاء اللبنانيون في مجال أصول الفقه ، وعلوم الحديث ، فحركتهم الفكرية بأسرها معتقد راسخ ، وهمة وثابة للحفاظ على هذا المعتقد ، والذي يبدو أكثر اهمية ليس اشتغالهم في هذا المجال ، إنما بلوغهم القمة في بابه ؛ فقد تركوا من المؤلفات في هذا المضمار ما كان راقياً في موضوعه وتحليله ، مثالياً في طريقته ، وما زالت هذه الكتب معتمدة في جامعات العراق وايران وكليات الفقه في أقطار الاماميين ، رغم أنها تعود في تأليفها الى ما يزيد على خمسة قرون ، ومن كتبهم الأعلام في الفقه والحديث :

١ – اللمعة الدمشقية :

للشهيد الاول محمد بن مكي الجزيني ألفها وهو في السجن بدمشق ، وكان ذلك في سبعة أيام ولم يكن لديه من المصادر إلا كتاب المختصر النافع للمحقق الحلي ، وتأليفها في هذه المدة يكاد يكون من المعجز ولاسيا وانه لم يذكر فيها ما يخالف المشهور إلا نادراً ، ولقد أهدى منها نسخة الى علي بن المؤيد سلطان خراسان معتذراً عن المثول اليه .

واللمعة مؤلف فقهي في العبادات والمعاملات ، الفها سنة (٧٨٦ هـ – ١٣٩٤ م) في جزئين . ومن علق عليها شارحاً الشهيد الثاني في كتاب اسماه الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية ، وما زال الكتابان مرجعين في فقه الامامية وعماد طلاب جامعاتهم .

٢ – المدارك :

هو كتاب (مدارك الأحكام في شرائع الاسلام) وهو تتمة لكتاب المسالك للشهيد الثاني لذا كان هذا الكتاب استداركاً لما كتبه الشهيد الثاني ، ولهذا أطلق عليه هذا الاسم . وهو كتاب استدلالي ، وليس كتاب فتوى ، إذ لا يعطي

النتائج . (وقد بلغت المدارك من جودة التعبير وحذف الفضول منتهى ما يخطر في البال ، وما من فقيه يأتي بعده إلا ويعتمد عليه)[١] وقد طبع هذا الكتاب مرتين ، وجاء في ٣ مجلدات ، ومؤلف هذا الكتاب هو محمد نور الدين الجبعي[٢] .

٣ – المعالم :

كتاب في أصول الفقه ، يعتبر في طريقته جديداً في علم الأصول لأنه أول مؤلف أفرد بحثه بهذا العلم ، لأن المسائل الأصولية كانت قبله تذكر ضمن المسائل الفقهية ، وكان الفقهاء قبل صدور هذا الكتاب يدرسون كتباً فقهية عديدة لأئمة كبار ، ولما برز هذا الكتاب اصبح المعول في التدريس[٣] . ولقد كان كتاب المعالم موضع عناية الكثيرين ، فقد قامت حوله التعليقات والحواشي ثم ان مؤلفه حسن بن زين الدين الشهيد[٤] يعتبر صاحب (نظرية المعنى الحرفي في الفقه)[٥] .

٤ – الوسائل :

كتاب في الحديث يعرف بوسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة ، بست مجلدات في الأحاديث المأخوذة عن الكتب الأربعة ، وكتب غيرها متعددة تبلغ ٧٠ كتاباً وقد ذكر مؤلفه الحر العاملي[٦] الاسانيد واسماء الكتب .

---

١) الفقه جبل عامل في التاريخ ٧٧/١ – أعيان الشيعة ١٠٥/٤٦ .

٢) هو محمد بن علي بن الحسين العاملي الجبعي الموسوي ولد (٩٦٤ هـ – ١٥٤٣ م) درس في جبع . ثم انتقل الى النجف وأخذ عن مشاهير علمائها . ثم عاد الى بلاده فألف كتابه المشهور بالمدارك . توفي في بلدته جبع سنة (١٠٠٩ هـ – ١٥٩٨ م) .

٣) اعيان الشيعة ج١ ق ٢/ ٢٨ .

٤) سنعود لترجمته مفصلاً .

٥) جبل عامل في التاريخ ٨٠/١ .

٦) هو محمد بن الحسن الحر العاملي ولد سنة (١٠٣٣ هـ – ١٦٣١ م) في مشغرة حيث كان يقيم والده ويدرس . ثم انتقل الى مدرسة جبع ولما بلغ الاربعين من عمره قصد ايران سنة (١٠٧٣ هـ – ١٦٦٢ م) بعد أن زار العراق وحصل لنفسه من المكانة والمقام ما يغبط عليه =

وهذه الاحاديث المروية عن النبي والأئمة تختص بالتشريع والاحكام والاخلاق ، يعتمدها العلماء لاستنباط الفتاوى والمسائل في العبادات والمعاملات ، ولقد بوبها تبويباً حسناً ، وبحثها مستفيضاً ، باذلاً في هذا الكتاب ٢٠ سنة من عمره في البحث عن الأحاديث .

وكتاب الوسائل اليوم وقبل أكبر مصادر الحديث لدى الشيعة فهو (احد الاصول والمصادر الجامعة وقد دارت عليه أبحاث الفقه ، وأكبت عليه فقهاء الشيعة منذ ثلاثة قرون اتفقوا فيها على تناوله وتداوله ، وأجمعوا على النقل عنه والاستناد عليه وهو من الطف مصادر الفقه)[٦] . ومنذ تأليفه للآن لم يستطع أي مؤلف ان يحل محله فقد بقي خير المصنفات والفضل في هذا يعود لترتيبه وحسن تبويبه .

وقد ترك العامليون العديد من كتب الفقه والحديث التي ما زالت مراجع الباحثين من الاصوليين .

ب — في الفلسفة والنفس والتربية :

رقي العامليون بتفكيرهم حدود الفلسفة التي عرفت أرضهم ومدارسهم ، ولم تخرج في خطوطها الكبرى عن نهج الفلسفة الاسلامية ومواضيعها ، فأبحاثهم في هذا المجال لم تكن محاولة تجديدية ، وآراء مستحدثة لأن فلسفتهم كانت كلاسيكية المنهج ، دينية ، وصدى لفلسفة المفكرين المسلمين المتأثرين بفلسفة اليونان . وقد مسحت الفلسفة لديهم بصبغة أخلاقية وكان ذلك تبعاً لمنهجية تفكيرهم التي جعلت من المعارف والعلوم أداة لتكون في خدمة الانسان وأغراضه الخيرة ، فلا قيمة لعمل لا نعمل به وقد اهتموا من الفلسفة بقضية النفس دون

= واتصل بالشاه سليمان الصفوي الذي جعله قاضي القضاة وشيخ الاسلام . وترك من المؤلفات ما يقرب من ثمانية وعشرين مؤلفاً ويعتبر كتاب الوسائل اشهرها والحر العاملي يعتبر مؤرخاً وشاعراً له ديوان يشتمل على عشرين الف بيت ولكنه مفقود . ولم يبق منه الا القليل في مدح آل البيت والغزل ، توفي في ايران عام (١١٠٤ هـ - ١٦٩٣ م) .

١) حسن الامين مجلة الدراسات الادبية سنة ٩٥٩ عدد ٢ - ٣/٥٥

تعرضهم لمسائل الخلق والخلود والعقول ، ففي الدين الذي برعوا بفقهه وأصوله قد وجدوا الأجوبة الكافية على هذه المواضيع .

وقد خلفوا في هذا الميدان مؤلفات عديدة ما زال بعضها مخطوطاً ، وكثير منها قد حفظ في مكتبات ايران الخاصة والعامة . وسنعرض لبعض من هذه الكتب المطبوعة لنستجلي فيها ملامح فلسفتهم ومستواها .

١ — الباب المفتوح

رسالة في النفس وهي من مؤلفات علي بن يونس النباطي[١] ، وقد سماها (الباب المفتوح الى ما قيل في النفس والروح) وقد ذكرت هذه الرسالة في بحار الأنوار[٢] المحدث المجلسي[٣] في كتاب السماء والعالم . وفي هذه الرسالة بحث حقيقة النفس والروح ، وهل هي جوهر مجرد أم جسم لطيف ، وقد عرض أقوال الفلاسفة والحكماء والمتفوقين والثنوية في حقيقة النفس وماهيتها واحوالها ، كما ذكر أدلة كل من هؤلاء على ما يدعيه فيها ، ثم عرض رأيه وما يعتمد من الدليل عليه ذاكراً الآيات في النفس والروح ، وشرح ما ينبغي أن يفهم منها وما تدل عليه هذه الآيات ، وكان بحثه في هذا الموضوع كاشفاً عن عبقريته ومكانته بين الفلاسفة والحكماء .

٢ — آداب النفس

كتاب يعتمد على قاعدة فلسفية ينطلق منها الى أغراض أخلاقية وعظية ، وقد

١) هو علي بن يونس النباطي البياضي العاملي ، درس على الشيخ ناصر بن ابراهيم البويهي وقد كان فقيهاً محققاً ومتكلماً ، ترك مؤلفات كثيرة منها كتاب اللمعة في المنطق ورسالة في علم الكلام وكتاب مختصر جمع البيان وكان الى جانب هذا شاعراً اديباً توفي سنة (٨٧٧ هـ - ١٤٧٣ م) .

٢) بحار الانوار للمجلسي ٤١٢/١٤ .

٣) ولد محمد باقر بن محمد تقي بن المقصود علي المجلسي (١٠٣٧ هـ - ١٦٢٨ م) . كان كبير الفقهاء والاصوليين الشيعة في عهده ، الف موسوعة ضخمة اسماها كتاب بحار الانوار . كتب وصنف باللغة العربية والفارسية وتوفي سنة (١١١١ هـ - ١٦٩٩ م) .

بدأ بتعداد قوى النفس جاعلاً إياها ثلاثاً : ناطقة وحيوانية ونباتية ، عارضاً الى مسائل الخوف والأمل والرجاء ، ذاكراً مشكلة الجبر والشر ، وقد أورد فيها آراء الأقدمين ، وبحث بمسألة جوهر النفس وكيفية وجودها ، وعلاقتها بالجسد ، وارتباطها به وتأثير كل منها بالآخر ، وتكلم عن مراتب النفوس في السعادة ، كما بحث في الأفلاك والعناصر ، وعرض آراء أرسطو وهوبس وابن سينا . ولم يلبس أن يعقد فصلاً في طريقة معاملة الحيوان الوفاء وكيفية معاشرتهم متأثراً في آرائه باخوان الصفاء . ويبدو أنه اطلع على رسائلهم وأخذ مباحثه الفلسفية منها ، ورد على بعضها ، كما نلاحظ أثر الفارابي وابن سينا واضحاً فيما كتب .

وهو يعرض الى جانب هذه الآراء الفلسفية مواعـظ عديدة فيرغب في الطاعات ويدعو الى الزهد في هذه الدنيا الفانية ، ويحلل أمر العزلة والخلوة ، ويبحث في حقيقة الايمان والأحلام . وطريقة هذا الكتاب لطيفة ومغرية ، فهو يعرض المسألة الفلسفية ويعمد الى تأكيدها بالأحاديث النبوية سارداً وقائع تاريخية وامثلة ونوادر الحكماء بأسلوب طريف ، ويغمر هذا المؤلَّف روح دينية ، وتبرز منه غايته التوجيهية فكأن مؤلفه محمد بن الحسن العيناثي [١] رغب فيه الوعظ والارشاد .

ولقد كان هذا الكتاب غارقاً بين المصنفات المخطوطة في مكتبات ايران ، فابرزه الى الوجود وحققه كاظم الموسوي ، وطبعه في ايران بجزئين يزيد مجموع صفحاتها على ستمائة صفحة من القطع الكبير .

٢ – منية المريد في آداب المفيد والمستفيد :

كتاب تربوي جليل قصد منه مؤلفه الشهيد الثاني [٢] أن يوضح السبيل أمام

---

١) هو محمد بن الحسن الشهير بابن القاسم الحسيني وقد ينسب الى جزين فيسمى الجزيني ، او الى عيناثا وهو الغالب فيسمى بالعيناثي ، جدته بنت الشهيد الثاني ، درس في جبل عامل اولاً ، ثم هاجر الى ايران وقطن خراسان ، ولا يعرف مولده بالضبط بل انه قد بـدأ دراسته سنة (١٠٤٠هـ - ١٣٦٣ م) وتوفي بعد سنة (١٠٨٥هـ) وكان اديباً وشاعراً بارعاً ، وكان من مدرسة حسن زين الدين سلك دربة الحنين في الشعر .

٢) ولد زين الدين بن علي بن احمد الجبعي عام (٩١١هـ - ١٥٠٥ م) في جبع ودرس =

المعلم في مهنته ويزود الطالب بوصايا نافعة لأنه الطرف الثاني في عملية التعلم . ولقد قسم كتابه تقسيماً علمياً ، سائراً في مؤلفه بخطى منطقية ، وكانت مقدمة الكتاب اشادة بفضل العلم ووجوب الاقبال عليه ، مؤيداً آراءه بما ورد في القرآن والسنة ، وما جاءت به الكتب المنزلة ، والفلسفات القديمة ، وما أثر عن الرجال وما أوتيه بدليل العقل .

ولقد عرض في الباب الأول آداباً يشترك فيها المعلم والمتعلم ، محدداً الصفات الخلقية والعلمية التي يجب أن تتوفر في كل منهما ؛ وهي تتلخص باخلاص النية ووضع العلم في ميدان العمل لاستعماله ، مع حسن الخلق وعفة النفس والانقباض عن السياسة ورجالها وملازمة الدرس والتعمق في البحث والانقياد للحق عند الهفوة . ويعمد زين الدين الشهيد الى التفصيل في الباب الثاني فيتناول واجبات المعلم مفرداً لها ثلاثة فصول :

١) واجباته في نفسه : تزوده بالثقافة الشاملة النامية وبذل العلم واظهار الحق والمدافعة عنه .

٢) واجباته تجاه طلابه ، يوجزها في عشرين بنـداً كترغيبهم في العلم وتدريبهم على الآداب والشيم والاهتمام بهم والحرص على مصالحهم وتقديمها على مصلحته ، وكأني به أحد مربي القرن العشرين تراه يشدد على مراعاة الفروق الفردية بين الطلاب ، ومخاطبة كل منهم على قدر حاجته [١] محدداً مقدار الدرس ومستواه . وعليه أن يحرضهم على الاشتغال والدرس ومدح النشيط من طلابه وان لا يعمد الى تفضيل أحدهم فكلهم يجب أن يكونوا لديه سواسية في المودة ولو ظاهراً ، واذا ما اكتمل طلابه علماً فعلى المعلم ان يمدحهم ويطلب من الناس الاشتغال عليهم بالدرس .

= فيها ، ثم تردد على مدارس ميس وكرك نوح ودمشق ومصر والعراق وزار بلاد الروم والقسطنطينية فعينه السلطان استاذاً في مدرسة بعلبك النورية وقتل بسبب خلافه المذهبي مع قاضي صيدا عام (٩٦٦ هـ - ١٥٥٩ م) . وترك من المؤلفات ما يقرب من اربعة وعشرين مؤلفاً وتلامذة كانوا عماد الحركة الفكرية بعده .

١) الكتاب ص ٧١ .

٣) واجباته في التدريس: ينطلق اولاً مفصلاً آدابه في لباسه وهيأته في جلسته، والحركة والجهة التي يتوجه اليها ليتم له الاشراف على جميع تلاميذه، وعلى المعلم اعتياد أيسر الطرق وأسهل الألفاظ، واذا ما تعددت الدروس في النهار الواحد يقدم منها الاشرف فالاشرف، وعليه تقسيم الوقت وتقصير المدة درءاً للملل، ومساعدة الطالب في إبراز اسئلته متراجعاً عن خطئه اذا أخطأ، وقد ابرز هذه الآداب فيما يقرب من ثلاثين بنداً.

الباب الثالث: يتناول واجبات المتعلم في ثلاثة فصول مشابهة:

١) واجباته في نفسه: كانقطاعه عن الدرس واغتنام فرصة الشباب والامتناع عن الزواج حتى يقضي من العلم وطره.

٢) آدابه مع شيخه: تتلخص باتباعه وطاعته فهو ابوه الروحي، وعليه سلوك دربة اللباقة معه في سؤاله وجلسته وكلامه، وقد وردت آداب هذا الباب في جملة عديدة من بنود تبلغ الأربعين.

٣) آدابه في درسه: تتناول حفظ القرآن والبحث والمذاكرة واحضار ادواته كاملة، وعدم المزاحمة في المجلس، والاصغاء في الدرس، وهي في ثلاثين بنداً.

وهو في جميع آرائه التي ذكرها يبعد عن جفاف التقسيم فكل بند من البنود يحتوي على حكم وأمثال ونصائح وآيات قرآنية وأحاديث شريفة تؤكد رأيه، وتضفي عليه صبغة الوجوب فتثمن قيمته، ولا يقف في هذا الكتاب عند التربية فقط بل ينتقل الى أدب الفتوى وشروط المفتي والمستفتي متخلصاً الى البحث في المناظرة وآدابها، ذاكراً آفاتها وأخطارها، والكتابة وواجباتها، وإتمام العلوم الشرعية والأدبية. هذه الآراء جاءت في حلة ديقية عابقة بالأخلاق غايتها تهذيبية في مائتين من الصفحات من القطع المتوسط.

ج – في العلوم العقلية:

طرق العامليون أبواب العلوم العقلية والموضوعية كالرياضيات والفلك والمنطق

والطب... ولم تكن هذه العلوم فقط ضمن مقررات التدريس لديهم، أو أنها حاجة ماسة لفائدتها للدين كالرياضيات وعلوم الهيئة، بل انهم تعدوا حدود الحاجة الى العطاء وألفوا كتباً شهيرة تشير الى تعمقهم في هذه المجالات، وكان لهم في الرياضيات باع طويل، فقد ألف البهاء العاملي كتاب الجبر والمقابلة، وبحر الحساب، وخلاصة الحساب التي ترجمت الى لغات شرقية وغربية عديدة كالألمانية والفرنسية (١)، وهناك رسالة في الهندسة للحر العاملي، وشرح خلاصة الحساب لفرج الله الحويزي العاملي ورسالة أخرى لحيدر بن علي العاملي (٢).

أما في الفلك فللبهاء العاملي مؤلفات ورسائل عديدة في هذا الموضوع، وله كتاب مطبوع سمي بتشريح الأفلاك، ورسالة في أشكال عطارد والقمر، ورسالة أنوار الكواكب مستفادة من الشمس، الى رسالته في نسبة أعظم الجبال الى قطر الأرض. ولعل أهم هذه المؤلفات هو كتاب خلاصة الحساب، ويقع في مقدمة وعشرة أبواب ولقد استعمل فيه البهائي الأرقام الهندية المستعملة لدينا حالياً إلا أنه استعمل للصفر (الشكل الذي نستعمله للرقم خمسة وللخمسة شكلاً يخالف شكلها الذي نعرفه الآن). ولقد جمع كل المواضيع الحسابية والكسور والمجهول في أبواب خمسة، أما الباب السادس فقد اقتصر فيه على الأشكال الهندسية المسطحة والمجسمة، وفي الأبواب الباقية عالج مواضيع في الجبر ومسائل يدعي ابتكارها، ففي الباب التاسع (قواعد شريفة وفوائد لطيفة). وهو ينهي كتابه بخاتمة ويذكر مسائل سبع اعجزت العلماء (وبقيت على عدم الانحلال في قديم الزمان مستعصية على سائر الاذهان الى هذا الآن) ولقد كان البهائي على اعتزاز بهذه الرسالة التي قال بأنه جمع فيها من نفائس عرائس قوانين الحساب ما لم يجتمع الى الآن في رسالة ولا كتاب (٣).

أما في المنطق والطب فقد برز حسين الكركي (٤) وكان له مؤلف طبي كبير

---

١) جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٣٥٤
٢) الاميني الغدير ١١/٢٦٥.
٣) أعيان الشيعة ٤٤/٢٧٧.
٤) ولد حسين بن شهاب الدين الشامي الكركي العاملي سنة (١٠٠٨ هـ – ١٥٩٩ م) ثم=

ومختصر هذا الكتاب مع رسائل عديدة في الطب وكتاب في الاسماك ورسالة في طريقته، أما المنطق فكانت له فيه أرجوزة كبيرة .

في التاريخ والسيرة :

لا نجد لدى العامليين مما بقي من آثارهم في هذا الوقت مؤلفات تتناول الأحداث الكبرى التي تهم شعباً أو جماعة، فيروون الوقائع ويقيمون الحركات، ولعل في ظروفهم السياسية ومحنهم إبانها وعدم رضاهم عن واقع الحكم الذي يعيشون في ظلاله ما يعلل انصرافهم عن التأليف في مضامير كهذه، فقد حولوا رغبتهم في التأليف التاريخي ناحية السير والرجال، لا يتناولون إلا شخصيات الدين والعلم في غالب الأحيان .

وقد شهد هذا العهد مؤلفات عديدة كالتحرير الطاووسي ومنتقى الجمان في الأحاديث، والذي ينطوي على مسائل رجالية كثيرة لحسن بن زين الدين الشهيد . وهناك رسائل في علم الرجال والكنى والألقاب لمحمد بن جابر العاملي المشغري، وليوسف بن محمد الحسيني كتاب جامع الأقوال في علم الرجال[1] وكتاب تاريخ وفيات العلماء للكفعمي[2]، ولعل خير هذه المؤلفات وأجمعها كتاب الحر العاملي .

أمل الآمل في علماء جبل عامل :

جاء هذا الكتاب في قسمين الأول يتناول علماء جبل عامل والآخر علماء البلاد الأخرى . ولقد قدم علماء جبل عامل على غيرهم (قضاءً لحق الوطن) كما ذكر المؤلف، ولفضلهم وتقدمهم على علماء الامامية في الأقطار[3] . وقد ترجم

= هاجر من بلاده الى ايران وقطن منها بإصفهان، وما لبث أن تركها واتجه الى حيدرآباد وتوفي هناك سنة (١٠٧٦ هـ – ١٦٦٦ م) . ولقد كان حسين الكركي الى جانب اشتغاله بالعلوم العقلية أديباً بارع النظم طويل الباع في عالم الغزل ومدح آل البيت .

١) أعيان الشيعة ج ١ ق ٢/ ٨٩ .

٢) الغدير ١١/ ٢١٤

٣) أمل الآمل ص ٤ .

فالتي ونسخة من رجالات العامليين مع أنه لم يطلع على الجميع ولا على مؤلفاتهم كلها. وكتب عن غير العامليين لعدد يبلغ أضعاف رجالات القسم الأول من كتابه وتعود الشخصيات المترجم لها الى القرون الاسلامية الأولى، وتنتهي بنهاية القرن الحادي عشر الهجري زمان مؤلفها، ولعل عدد من ترجم لهم من العامليين قبل القرن الثالث الهجري يعتبر ضئيلاً وباهتاً في ثبت ولا يرضي رغبة الباحثين . ولقد اعتمد الترتيب الأبجدي في أسماء الرجال، متخطياً ذكر كنيتهم ومن غلب عليهم وتلقب عليهم، وفي ترجمة الأشخاص يشير الى الأحداث الرئيسية في حياة المترجم له، مهملاً التفاصيل منها، وقد يشير اشارة عابرة الى الاسم فتتلاشى عليه قصر الترجمة[1] . ولعل هذا الكتاب مناط شهرة الحر العاملي في الشرق والغرب رغم ضآلة حجمه[2] . ولقد أشار المؤلف الى الكتب التي أخذ عنها، والمصادر التي رجع اليها، في مقدمة كتابه الذي بات مرجعاً لكل من يحاول أن يدفع غبار الزمن والنسيان عن شخصيات عامة وأعلام الفكر في العصور الغابرة .

وما زال هذا الكتاب رغم ضرورته وأهميته وطبعاته الحجرية القديمة يحتاج الى ترتيب كبير، وعناية فائقة، فهو يذكر بكتاب القاضي ابن خلكان وفيات الأعيان .

هـ – في علوم اللغة :

من البديهي أن تكون علوم اللغة بفقهها ونحوها والصرف وفنون البيان موضع عناية العامليين، فدراستها تعتبر الخطوة الأولى التي يفترض التمكن بها قبل البدء بعلوم الدين والفلسفة والأدب، فهي ضرورة حتمية، ومعرفة علوم اللغة ماسة جداً في دراسة علم الأصول . ونحن واجدون في تراث العامليين العائد الى هذا العهد مؤلفات في هذا الباب، فإن الكفعمي في القرن التاسع قد ألف كتاب فروق اللغة، وكتاب زهر الربيع في شواهد البديع[3] . ولقد ألف البهاء

١) الدراسات الأدبية سنة ١٩٥٩ عدد ٢ – ٣/ ٥٧ .

٢) Encyclopedie de L'Islam I A - B 330

٣) أعيان الشيعة ٥/ ٢٩٠ .

العاملي في إيران كتباً في اللغة ، ومنها كتاب الفوائد الصمدية في النحو يعتمده الإيرانيون في تعلم اللغة العربية، وله كتاب تهذيب البيان . وقد ألف الحر العاملي كتاب العربية العلوية واللغة المروية ، ولعل الذي ترك مؤلفات جلية وعديدة في النحو هو محمد الحرفوشي العاملي[1] ، منها كتاب اللآلىء السنية في شرح الأجرومية ، ومنح النحاة ، والتهذيب في النحو ، وشرح القطر ، وعلى كثرة مؤلفاته اشتهر باسم (النحوي اللغوي الكبير)[2] .

هذا الى جانب اشتغال العامليين بضروب البيان وأفانين البديع ، فشعرهم يبدو عابقاً بالتحسينات اللفظية التي تشهد على براعتهم في علوم اللغة والبلاغة ، ولإغراقهم في هذا النحو بات التكلف صفة الكثير من شعرهم .

النشاط الادبي :

إن النشاط الأدبي هو الوجه الآخر للحركة الفكرية في جبل عامل ، الوجه الذي بقي ماثلاً أمام دورة الزمن ولم تعف عليه الأيام ، بينما لا يشكل النشاط العلمي إلا نزراً قليلاً من مؤلفات أصولية وفقهية بالنسبة لنا اليوم . فالعلوم الأصولية والرياضية قد تكدست بعدها جهود واسعة في هذا المضمار ، تخطتها جدة وابداعاً ، ذاك أن نتاج العقل يبقى عرضة للتطور ، وهو أمام ما اكتشف من جديد لا يحتمل البقاء ولا يقوى على الخلود ، كل ما له اليوم أنه كان خطوة ضرورية في آنه .

بينما الأدب وهو لسان العاطفة لا يأبه لكر الليالي وتوالي الأيام ، لأن السلك الشعوري المورى في الأدب هو ضمانة دوامه ، فالعاطفة الانسانية واحدة في لسجها ، ومشاعر الحب والأسى ، والشوق والرجاء ، هي في طبيعة النفس

---

(١) بدأ محمد الحرفوشي العاملي دراسته في دمشق ثم هجرها الى حلب فايران وزار مكة فقرأ فيها على علي بن الحسين الموسوي العاملي وهو من مشاهير اللغويين ، وبارع بالفقه ، ويبدو أنه قد شاعر مدح وغزل ، توفي (١٠٥٩ هـ - ١٦٤٩ م) .

(٢) المحبي خلاصة الأثر ج ٤ (الترجمة) .

البشرية ، لا تحتمل التطور إلا في وسيلة التعبير عنها . فنحن ما زلنا نردد شعر الجاهليين ، ويردد العالم شعر اليونان في الالياذة ، فشعرهم بين أيدينا اليوم أو أنبهم جلة ، هو وجه الحركة الفكرية في هذا العهد الطويل ، فأدب العامليين هو سفر خلودهم ، وصك من الزمن على بقائهم .

أ – في غالبه شعر لا نثر :

كان الأدب العاملي في هذا العهد شعراً لا نثراً ، فنحن اذا استثنينا المجاميع الأدبية كالكشكول والمخلاة وأسرار البلاغة البهائي ، وبعض الرسائل للكفعمي ، نكاد لا نعثر طيلة هذه القرون على نتاج أدبي نثري ، فقد شغل العامليون عن النثر الفني بالشعر ، يعبرون به عن عواطفهم ويظهرون براعتهم الأدبية حتى أن الشعر قد دخل نطاق العلوم الموضوعية كالفقه والأصول ، وأن الحر العاملي كان له ارجوزة في الهندسة وفي المواريث والزكاة .

ب – كلاسيكية الادب العاملي :

لا نجد في الأدب العاملي محاولة تجديدية في الشكل ، فقد أبقوا على وحدة القصيد العربي إلا ما أدخله البهائي من نمج الرباعيات على طريقة الإيرانيين ، وله موشحات تدل على أخذهم بالجديد المستحدث في الأدب العربي ، وعدا هذا فليس هناك ظاهرة جديدة في الشكل بل هو استطالة للأدب في الأقطار العربية بشكله وأغراضه ، ولقد كان الجبل في هذه الفترة زاوية استراح فيها هذا الأدب ، وألقى بعاعه بعيداً عن أتوار الاضطهاد في العواصم الكبرى ، وحواضر العلم ، ولكن العامليين وإن ورثوا هذا القصيد بشكله وشروطه ، فقد حافظوا على هذا الإرث دون أن يتقيدوا بطريقة القدماء في محتوى القصيدة ، إذ أطلقوا لألسنتهم العنان للتعبير عنها بهذا الشعر الذي جاء صورة واقعية تمثل حالهم ومشاعرهم ، وتكرس أغراضهم الدينية . وبهذا كان للأدب في جبل عامل أصالته ودوامه .

ولعل الملاحظة الغريبة أن الشعر منذ أن عرف هذا الجبل لم يفارقه ولم يشهد

مرحلة انقطاع أو تراجع ، فالشعر العربي كما نعلم مرّ في مراحل قوة وانهيار ، ولم يغرب ظله ، إنما تنقل في البيئات العربية المختلفة مطوفاً لا مستقراً ، ولعل مرد بقائه الدائم في جبل عامل أنه لم يتأثر بالأحداث السياسية الكبرى التي كانت عاملاً في نشاط الأدب واضمحلاله وتنقله الى موطن الراحة والهدوء ، فانعزال هذا الجبل سمح للشعر أن يختبيء في رباه بعيداً عن المخاطر ، لذا لم يكن الأدب في جبل عامل سيلاً موسمياً محدود الآن ، بل هو نبع دائم التدفق ، ترفده طبيعة شاعرة ، ونفوس فطرت على الشعر ، ومعتقد يفترض حركة علمية لأنها ضرورة بقائه ، وفي ظلال هذه الحركة ينشط الأدب .

ج – طابع الادب واغراضه :

لم يخرج الشعر في هذا العهد بميزاته عن حالة الأدب في معظم الأقطار العربية التي سادتها العهود التركية ، فمال الى الزهد ومدح الأولياء ، أما نسبة الاتجاه الديني في الأدب العاملي فقد كانت مرتفعة جداً . وكان الطابع الديني هو الصفة المتعلقة به ، والمتشبثة في مواضيعه ، وحلته الخارجية ، فهو أدب يقوم على أكتاف رجال الدين ، فنحن لا نجد أديباً إلا وكان عالماً فقيهاً ، أو أصولياً محققاً ، أو فيلسوفاً متعمقاً بالرياضيات ، عاملاً بالطب ، فبات لهذا الأدب صفتان : صفة الدين وصفة العلم . ولما كانت علومهم دينية في غالبها كان طابع الدين هو الغالب عليه ، البارز في أغراضه التالية :

١ – الغدير ومدح آل البيت :

الغدير موضوع جاهز ، ونقطة مهمة ذات أثر في تاريخ الشيعة السياسي ، فهو الحدث التاريخي الذي كرس فيه محمد علياً خليفة من بعده ، ولقد تعاقب على النظم في هذا الموضوع مجموعة كبيرة من شعرائنا أطالوا فيه القصائد دفاعاً عن حق علي ، وقد تضمن شعرهم مدح آل البيت . هذا المدح الديني الذي أحتل مقام المدح السياسي لدى غيرهم ، والذي لا تلحظه في شعرهم . ولقد برز منهم عز

الدين عبد الصمد العاملي [١] وابراهيم الكفعمي ، ونور الدين بن الحسين الموسوي وغيرهم . ويمكننا أن نضم الى جانب المدح الديني الشعر العرفاني ، الذي يحمل نزعات صوفية ، فيه عاطفة ورقة واستعطاف الخالق ، وقد برزت هذه الظاهرة في المرحلة الاولى من هذا العهد في القرنين الثامن والتاسع الهجري كما نجد لدى الشهيد الأول مثلاً :

عظمت مصيبة عبدك المسكين في نومه عن مهر حور العين
الأولياء تمتعوا بك في الدجى متهجداً يتخشع وحنين
فطردتني عن قرع بابك دونهم أترى لعظم جرائمي سبقوني
إن لم يكن العفو عندك موضع للمذنبين فأين حسن ظنوني

١ – الشوق والحنين :

لعل الظاهرة الكبرى ، والخاصة الاولى ، والميزة الفريدة ، في أدب هذا العصر هي الشوق والحنين ، فاننا نرى الشاعر يذوب شوقاً في غربته ، متلهفاً للرجوع الى بلاده ، حيث ترك اهلاً واحباباً ، ووطناً عزيزاً قضى عليه بفارقه ، لأنه يبغي حرية الفكر ، وينشد الطمأنينة فيقصد العراق وإيران وبلاداً قصية أخرى . وقد ملأ الحنين الشعر العاملي ونراه اكثر رقة مع حسن بن زين الدين الشهيد ، وحفيده زين الدين الثاني [٢] الذي قضى فترة طويلة من حياته متنقلاً يتجشم الأسفار وفي هذا قال :

---

١) ولد عز الدين حسين بن عبد الصمد العاملي والد الشيخ البهائي (سنة ٩١٨هـ - ١٥١٢م) ودرس في جبع ثم تنقل في البلاد فقصد العراق وفارس وأخذ من علمائها ، وفي ايران قدر فضله السلطان طهماسب فقلده مشيخة الاسلام بقزوين ثم بهراة ، واليه يعود فضل التشيع في هذه المنطقة الاخيرة . له شعر في المدح والغزل والخمرة ، توفي في البحرين سنة (٩٨٤هـ - ١٥٧٦م).

٢) هو زين الدين بن محمد بن الحسن بن الشهيد الثاني قرأ في بلده جبع ثم سافر الى العراق وايران بقصد الدرس ثم سافر الى مكة ، وقد كان شاعراً غزلاً يذوب عاطفة ورقة ، وهو يميل الى استعمال الغريب في قصائده وقد كان شعره معارضة الشعر القديم ، توفي في سنة (١٠٧٤هـ - ١٦٦٤ م) .

سئمت لفرط تنقلي البيـــداء وشكت لعظم ترحلي الأنضاء

ما أن أرى في الدهر غير مودع خلا وتوديع الخليل عناء

فقدت لطول البين عيني ماءها فبكاؤها عوض الدموع دمـــاء

ولعل شعر محمد بن علي الشقري قد اقتصر على هذا الغرض من الأدب .

٣ – أدب الرحلة :

ملئت حياة العامليين بالأسفار وقضي عليهم بمغادرة البلاد فانتشروا في مكة واليمن وإيران والبحرين وأفغان وحيدر آباد ، وكأن كل واحد من علمائهم كان موكلاً بقضاء الأرض بذرعه ، وقد تركت هذه الرحلات أثراً كبيراً في أدبهم ، وكتبوها شعراً ، ولعل نجيب الدين علي الجبيلي[1] قد قصر شعره على الرحلات ، وقد طوف في الحجاز والهند وإيران والعراق ، ونظم بذلك ارجوزة تبلغ حوالي الفين وخمسمائة بيتاً ، عثر عليها حديثاً[2] ناقصة ، فالمعروف منها ألف وخمسمائة بيت وقد تضمنت مواعظ وحكماً – وقد أنهى حكته بأن حط الركب في بلاده .

حتى وصلنا لدمشق الشام والحمــد لله على التمام

ولعله مع غيره من المغتربين العامليين ، الذين هاجروا من بلادهم طلباً العيش الكريم يرون في هجرتهم خسارة كبرى نزلت بهم .

ان يوماً مرّ في أرض الشآم بعضه في غيرها يعدل عام

كما قال :

ضاعت الاوقات في أرض العجم فتدارك بعضهـــا قبل الندم

---

١) هو علي بن محمد بن مكي العاملي الملقب بنجيب الدين من الجبيلي نسبة لجبيل الساحلية، ولد في جبع ثم ذهب الى ايران وقد كان شاعراً مجيداً في الغزل والحنين ووصف الرحلة، توفي بعد عام (١٠٥٠ هـ – ١٦٤٠ م) وقد كان رياضياً وله رسالة في حساب الخطائين .

٢) حسن الأمين مجلة الدراسات الأدبية السنة الثانية العدد الأول ص ١٠٩ .

٤ – الاغراض الاخرى :

إن الأدب العاملي طوّف في أكثر الفنون ، فنحن نعثر على الغزل والرثاء ، ووصف الطبيعة والحكمة ، التي تضمنت خبرات يومية وتجربة ، مع ما أضيف اليها من نظرتهم العقلية . وكذلك كانت الخمرة موضوع شعرهم ونحن لا نقع على الهجاء في كل دواوينهم ، فقد بعدوا عن المهاجاة لأنها لا تتناسب وفضائلهم ، كما نلاحظ في هذا العهد التاريخ الشعري فهم يضمنون شعرهم ألفاظاً تعني حروفها تاريخاً بحساب الجمل . وقد قال الجبيلي في هجرته مؤرخاً نهايتها :

وقد مضت هجرة أعوام (وجمعها تاريخه ختـام)

(١٠٤١)

وبجمل حروف الشطر الأخير (١٠٤١) يعني أن هجرته ختمت بعام ١٠٤١ هجرية .

هذا وقد انتهجت الحركة نهجاً تعليمياً في الأدب الذي حل مواضيع الفقه واللغة .

د – الاسلوب :

سجل الاسلوب تطوراً ملحوظاً منذ بداية هذا العهد حتى منتهاه ، فقد بدأ جافاً متكلفاً ، ولكنه أخذ يتحلل من عقال الجهد ، ويترك السليقة حريتها في التعبير . وفي جميع أطواره يبدو أثر البديع والعمل البياني ، وصبغة الدين لاحقة بهم ، فتشابيههم وأوصافهم مجلوة بالايمان حتى في الغزل . كما قال الحر العاملي :

فوات خال خدها مشرق نوراً كركن الحجر الاسود

كعبة حسن ولهـا برقع من الحرير المحض والعسجد

قد اكتسبت كل امرىء فتنة حتى إمام الحي والمسجد

فالعامليون يعبرون عن عاطفة هزها الايمان ، وامتلأت بالخشوع ، بتعاليم هي جزء من ثروة لغوية كونتها بحوث الدين بفقهه وأصوله ، فالشاعر لا يستطيع ان يتخلى في فلتات شعوره عما سبق ورسب في قاع ذاته . واذا ما تساءلنا عن

قيمة هذه الحركة العلمية خلال هذا الدور فاننا لا نستطيع ان ننزلها مكانها الصحيح بعيدة عن اطارها الزمني . فهذا الدور هو جزء كبير من عصور الانحطاط التي لفت بلاد العرب ونشاط الفكر فيها بغشاء أسود من التقهقر في ميادين العلم والمجتمع . لذا فقيام حياة علمية وأدبية في هذا الجبل المنعزل ، تنشأ مستديمة على غير انقطاع ، تبدو مرتكزة على جهود كبيرة ، وتفان مخلص في سبيل العلم ، بعيدة عن ضحالة العصر وجدب الفكر فيه . واذا لم تبلغ الحركة شأواً بعيداً في اكثر الميادين ، ولم تناضل القديم ، لتحل الجديد ، فان الظروف المحيطة ، والشروط الطبيعية اللازمة لقيام كل حركة جديدة لم تتوفر بعد في بلاد العرب ، يكفي حركة جبل عامل انها كانت وجوداً ينبض في سكون مسيطر ، وقد اسهم هـذا الوجود عدا به الحياة العلمية في الجبل العاملي في مجالات عديدة :

١) انه تحمل اعباء حركات علمية واستقطبها : حركات قامت في ايران وافغان والحجاز والبحرين فقد أثاروا أنى حطوا نشاطاً فكرياً واسعاً .

٢) أسهم في تمكين دعائم اللغة العربيـــة في البلاد الأعجمية وتولوا زمام السلطان والقضاء فيها فكانوا مثال اللبنانيين العباقرة ومنذ ذلك الحين يعرفون بالعامليين في تلك البلاد .

٣) شارك بمؤلفاته الحية في عناد الفقه الجعفري واصوله ، وأسهم في نشر مذهب الامامية .

هذه صورة عجلى لعهد طال وتطاول في قدمه لا بد وأن نراه مفصلاً في دراسة شخصيات يمثلون الاتجاهات فيه ويبرزون خصائصه وميزاته وسنتناول منهم الكفعمي الشاعر الفقيه ، والبهائي العالم الرياضي الاديب ، وحسن زين الدين ومحمد المشغري شعراء الحنين والعاطفة المشبوبة .

ابراهيم الكفعمي

٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م

٩٠٥ هـ - ١٥٠٠ م



نسبه ومولده :

هو ابراهيم بن علي بن الحسن بن محمد بن صالح العاملي ينتهي نسبه الى الحارث الهمداني ، صاحب علي بن ابي طالب من قبيلة همدان ، التي ناضلت مع الامام في حروبه [١] . لذا فهو يسمى ايضاً بابراهيم العاملي الحارثي الهمداني . ولقبه تقي الدين . ولقد اشتهر بالكفعمي نسبة لبلدته التي ولد فيها وهي قرية كفرعيما من جبل عامل التي درست في القرن الحادي عشر هـ [٢] . ولقد زودته هذه القرية بهذا الاسم مع تصرف في اللفظة بقصد التخفيف ، فالاصل كفرعيماوي [٣] . ولعل والده الذي كان عالماً جليلاً سكن هذه القرية ، مع أنه جبعي النشأة والمولد ، وقد تجمع اجداده في قرية اللويزة من اعمال جزين فهو على حد قوله (لويزي المحتد ، جبعي الاب) [٤] .

حياته ودراسته :

عاش ابراهيم في بيت علم فقد كان أبوه تقياً عالماً ، وكذلك أخوه احمد كان جليلاً في علمه وأدبه ، وله مصنف أسماه زبدة البيان ، اخذ عنه اخوه ابراهيم كثيراً لكتابه (البلد الأمين) ولقد توفي أحمد في حياة ابراهيم [٥] . وبعد أن

---

١) الغدير ٢١٣/١١ .
٢) محمد خليل الزين العرفان ٢٩٠/٢٤ .
٣) أعيان الشيعة ٢٨٦/٥ .
٤) أمل الآمل ص ٥ .
٥) الكنى والألقاب ٩٥/٣ .

تلقى إبراهيم المعارف الأولية على والده شد الرحال الى جزين ليتعلم في مدرستها النحو والمعاني والمنطق والبيان ، ثم توجه شطر الحلة مستجيزاً من علمائها وكان من شيوخه الشريف حسين بن مساعد الحائري ، وعلي بن عبد الحسين بن سلطان الموسوي ، وقد روى عنه ما في كتبه كما كانت له معهم مراسلات في حياته [١].

ولقد عاد الى بلاده بعد أن بلغ درجة الاجتهاد واستفاد ابناء وطنه من علمه وفقهه ، وقد ألف لهم رسالة في الفقه سماها العين المبصرة ، هذا وقد ألم بالفلسفة والأدب والتاريخ [٢].

وانصرف الى التأليف زاهداً في دنياه مؤثراً التقشف والطاعة على ملاذ الدنيا حتى وافته المنية فمات في بلدته كفرعيا ودفن فيها [٣] وليس في كربلاء مع أنه كان يرغب ذلك :

سألتكم بالله أن تدفنوني	إذ مت في قبر بأرض عقير
فإني به جار الشهيد بكربلا	سليل رسول الله خير مجير [٤]

وقد كان تاريخ وفاته موضوعاً تضاربت فيه الآراء وإن أثبت الكثيرون أن عام (٩٠٥ هـ - ١٥٠٠ م) هو تاريخ هذه الوفاة [٥]. بينما يذهب بروكلمان فقط الى أن عام (٨٩٥هـ) هو تاريخ صحيح ، معتمداً على تاريخ آخر مؤلف له [٦] المسمى بالمصباح .

آثاره :

ترك الكفعمي إرثاً علمياً ضخماً ، ديني الطابع في مجمله ، عابقاً بالزهد ، فكان هذا النتاج موافقاً لمزاجه وعصره ، ولقد بلغت مصنفاته الثمانية والأربعين من العدد [٧] ، متوزعة على العلوم التي ألم بها ، ولقد ظهر فيها الكفعمي (مفسراً ومحدثاً وفقيها أديباً شاعراً) [٨] . وكانت مصنفاته موزعة بين : الفلسفة ،

١) الخوانساري روضات الجنات ص ٨ .
٢) العرفان ٢٩٢/٢٤ .
٣) الزركلي الاعلام ٤٢/١ .
٤) الغدير ١١٦/١١ .
٥) كحالة معجم المؤلفين ٥٦/١ .
٦) Brockelman . S II
٧) أعيان الشيعة ٢٩١/٥ .
٨) كحالة معجم المؤلفين ٦٥/١ .

العبادات ، التفسير ، الفقه ، الشعر ، الأدب والتاريخ .

ومن أشهر مؤلفاته الجنة الواقية والجنة الباقية المعروف بمصباح الكفعمي . فيه أوراد ومناجاة وأدعية ، ولقد طبع في ايران طبعات عديدة [١] . وله كتاب نهاية الأرب في أمثال العرب ، وكتاب فرج الكرب في علم الأدب ؛ وله في علم البديع جملة مؤلفات منها زهر الربيع في شواهد البديع . ورسالة في النفس أسماها محاسبة النفس اللوامة ، ولقد طبعت مراراً وترجمت الى الفارسية [٢] .

وله كتاب يشبه في طريقة تصنيفه الكشكول لما احتواه لشذرات مختلفة من العلوم والمعارف ، ويسمى بمجموع الغرائب وموضوع الرغائب ، وقد ذكر الكفعمي في آخر هذا الكتاب جملة أفصحت عن محتواه (جمعته من الف مصنف ومؤلف) وما زال هذا الكتاب مخطوطاً ، ومنه نسخة في المكتبة الرضوية في ايران وقفها أسد الله بن خاتون العاملي سنة (١٠٦٧ هـ - ١٧١٧ م) [٣] .

وبين مؤلفاته تلخيص لأشهر الكتب القديمة كمغرب اللغة للمطرزي ، وغريب القرآن للسجستاني ، وجوامع الجامع للطبرسي ، ونزهة الالباء للانباري .

الكفعمي الشاعر :

رسمت لشاعريته الحدود علوم دينية شكلت له ثروته الفكرية ، ونفس زاهدة تواقة للخلاص من دنياه الآثمة ، راغبة في حياة أخرى زاهدة ، فجاءت هذه الشاعرية (عابقة بالمظاهر العرفانية) [٤] موسومة باتجاه ديني ، فبرزت اخلاصها بمدائح النبي وآله ، وبهذا ولجت باب المدح كفن من فنون الشعر ، ولعل خير ما قال في هذا المجال قصيدة له في يوم الغدير :

هنيئاً ليوم الغدير	ويوم الحبور ويوم السرور
ويوم الإمارة للمرتضى	أبي الحسنين الإمام الأمير

١) العرفان ٢٩٤/٢٤ .
٢) أعيان الشيعة ٢٨٩/٥ .
٣) الاعلام للزركلي ٤٨/١ .
٤) محمد خليل الزين العرفان ٢٦٢/٢٤ .

وسل عنه بدراً وأحداً ترى له سطوات شجاع جسور (١)

وله في مدح الإمام من قصيدته ذاتها مادحاً آله ، راغباً أن ينال الحظوة لديه:

ترى البحر يقصر عن جودهم وليس لهم في الورى من نظير
فدونكها يا إمام الورى من الكفعمي العُبيد الفقير (٢)

وقد ضمن بعض مدائحه من هذا النوع لمحات غزلية ، يكشف فيها عن شعر وجداني ، وانفعال عاطفي ، إزاء ممدوحيه من آل البيت ، يبدي عن شعوره الديني ، واعتقاده الراسخ :

أنا مسكينكم قتيل هواكم صرت من فقدكم يتيما أسيرا
ما تخافون شر يوم شديد قد دعي مع عبوسه قمطريرا
يا ولاة الهداة بشرا فأنتم سوف تجزون جنة وحريرا

ومن جميل مدائحه مشيراً الى كرم الممدوح والاشادة بفضله :

يا أيها المولى الذي أفضاله كالقطر منهلاً على الفقراء
أنت المؤمل والرجاء أميرنا أبقاك رب الخلق في النعماء

ومن مكاتباته لشيوخه وزملائه وقد كان يعتز بهم ، خاصة ما أتاه من معاهد دراسته كان مبعث سروره :

أتاني كتاب من سليل ابن حمزة يخال كسلوى أو كتصحيف جده
كتاب أمان في يمين وعكسه يقطع اعناق الشناة بجده

ولكي يأتي شعره مطابقاً لما تهواه نفسه نظم ما اتفق والكتاب والحديث ، وجاء هذا الشعر حافلاً بمفردات قرآنية ، وله قصيدة في سور القرآن الكريم ، تجدر بأن تكون فهرساً للكتاب ، لقد قدم لها بخطبة مسجعة تبرز الى حد كبير أسلوبه النثري ، ولقد قال في مقدمة الخطبة ما يكشف عن محتواها ومضمون القصيدة التي تليها : (ولنختم الخاتمة بخطبة وجيزة ، في فنها عزيزة ، وجعلناها في مدح سيد البرية ، فكن لسورها قارياً ، ولمعارجها راقياً ، وعلّ وانهل من

١) الغدير ١١/٢١٢ .
٢) أعيان الشيعة ٥/٢٩٨ .

شرابها السكرى ، وفكه نفسك بسجيعها العبقري (١) .

ومن الخطبة : الحمد لله الذي شرف النبي العربي (بالسبع المثاني) وخواتيم (البقرة) من بين الأنام وفضل (آل عمران) على الرجال و (النساء) بما وهب من (مائدة الأنعام) ومنحهم (بأعراف الأنفال) ، ... الخ (٢) .

ومن قصيدته المطابقة للخطبة الأبيات التالية :

يا من له السبع المثاني تنزل وخواتم البقره عليه أنزلوا
مولىً له الأنعام والأعراف والأنفال والحكم التي لا تجهل
ودنا له القمر المنير وشقه الرحمن واقعة له لا تجهل
أبياتها ميقات موسى عدة والكفعمي في مدحه يتمجل
صلى عليه الله مع اصحابه ما زال طير العندليب يعندل

ولعل هذه الطريقة قد راقت له فاعتمدها أسلوباً يكرر الرجوع اليه ؛ وله في ذلك رسالة كتبها الى قاضي القضاة أبي العباس بن الفرفوري ، خرج منها بقصيدة وهي تطلعنا على فن الرسائل في القرن التاسع الهجري قال : (يقبل الارض ، وينهي سلامه عبد لكم محب وعلى الفقه مكب . لو بدا للناظرين عشر معشار شوقه وغرامه لطبق ذلك ما بين آفاق السموات السبع والارض لشدة هيامه . تراه حقاً لكم ، حانياً بالأمن والسرور والسعد والحبور ...،). وبعدمدح طويل يفرج عن غرضه طالباً العفو عن قاضي القضاة الأمير علاء الدين (فان يك الخادم المذكور في بعض أفعاله او في مقاله غير كامل وعصاكم في بعض الأمر فمن العفو والستر عن ذنبه لا جرم تقضي ... وسلام الله عليكم ورحمة الله لديكم كلما نطق ناطق أو ذر في المشارق شارق) (٣) .

وكانت قصيدته على طريقة خطبة أو ترجمة لهذه الخطبة :

سلام محب لو بدا عشر شوقه لطبق ما بين السموات والارض

١) المقري : نفح الطيب ٤/٧٨٩ – ٧٩٠ . ٢) أعيان الشيعة ٥/٢٩٢ .
٣) المقري نفح الطيب ٤/٧٩٢ – ٧٩٣ .

تراه لكم بالأمن والسعد داعياً	وهذا الدعا لا شك من لازم الفرض
سلام عليكم كلما ذر شارق	وسبحت الأفلاك بالطول والعرض

وله قصائد يبدو فيها وهو يشارف في نهجها الشعر التعليمي فيسهل بالشعر ما صعب حفظه نثراً ، وله ارجوزة تنيف على مائة وثلاثين بيتاً حملها ذكر ما يستحب صومه من الايام :

الحمد لله الذي هداني	الى طريق الرشد والايمان
ثم صلاة الله ذي الجلال	على النبي المصطفى والآل

ومنها :

وبعده التاسع من ذي الحجة	فصمه والزم بعده المحجة
وبعده يوم غدير خم	ثامنُ عَشْرٍ منه فاتبع نظمي
فصومه يعدل صوم الدهر	فهذه السبعة صم عن أمر (١)

وقد عارض بعض الشعراء في أبياته ومنه قوله :

وإذا السعادة ألبستك قشيبها	فأهم فان لظى الجحيم جنان
فاصرع بها الاعداء فهي ذوابل	واقطع بها البيداء فهي حصان (٢)

أما الابيات التي عارضها فهي التالية :

واذا السعادة لاحظتك عيونها	نم فالتعازي كلهن هناء
فاصطد بها العنقاء فهي حبالة	واقتد بها الجوزاء فهي عنان

اسلوبه :

الكفعمي شاعر مكثار طويل القصائد والاراجيز ، التي تتعدى الواحدة منها المائة من الابيات ، يستمد مواد بنائها المعنوي واللفظي من ما ورد في الكتاب ،

١) الغدير ٢١٢/١١ - ٢١٣ .

٢) أعيان الشيعة ٣٠١/٥ .

والحديث ، وسير الأولياء ، ويخرجها بأسلوب فقيه متبحر بالاصول ، ولا تعثر في كثير شعره على رعشة وجدانية تسري الى خاطرك ، ويبدو متكلفاً في شعره مع ضحالة المواضيع التي يطلق فيها العنان لشاعريته ، واذا لم يتوفر له موضوع يعمل فيه نظماً ، فهو يلجأ الى عملية تصنيع ، فتبدو الابيات لديه وسيلة يبدي فيها ضرورياً من البراعة ، تم عن ذكاء وجهد متكلف ، ولعل في ابياته التي تقرأ طرداً وعكساً وتكون في الطرد مدحاً ، وفي العكس ذماً ما نجد به المثال الصارخ على التصنع المرهق :

شكروا وما نكثت له ذمم	ستروا وما هتكت لهم حرم
صبروا وما كانت لهم قمم	نصروا وما وهنت لهم همم

هذان بيتان في المدح اذا قرأناهما ، ابتداء من القافية يبدوان ذماً . وان ما يكون في الطرد ذماً يصبح في العكس مدحاً ، والمثل هو الآتي :

نكثوا وما شكرت لهم ذمم	هتكوا وما سترت لهم حرم
كانوا وما صبرت لهم قمم	وهنوا وما نصرت لهم همم

وقد كان لفرط تعلقه بالبديع ، وكثرة تآليفه فيه ، اثر في شعره يضفي على هذا الشعر صفة الصناعة المرهقة :

لا تلمني اذا وقيت الأواقي	فالاواقي لماء وجهي أواقي

ولعل اعتماده طريقة نظم النثر ، وتحويل موضوعه الى شعر يعتبر جديداً بالنسبة للحركة الادبية في جبل عامل ، وهي في نفس الوقت تفسر لنا جهده وتكلفه (وهذه طريقة بديعة تبارى فيها السلف فبعضهم يعمد الى أحاديث أو آيات وينسج على منوال مثلها ، ويفرقها في ابياته أو سجعاته ويكتبها بلون مخالف للاصل) (١) .

وكثيراً ما ضمن شعره ابياتاً اذا جمعنا حروفها يؤدي مجموعها الى مجموع حروف اسم يختاره أو تاريخ . وهذا ما يسمى بحساب الجمل (٢) .

١) نفح الطيب ٧٩٣/٤ .

٢) أعيان الشيعة ٣٠١/٥ .

مكانته :

يعتبر الكفعمي (أحد أعيان القرن التاسع الجامعين بين العلم والادب) [١] وكان حلقة ضرورية في الحركة الادبية في هـذا الجيل التي طبعت بسمة الدين بدافع من تمسكهم بالمعتقد وذودهم عن حياضه بالعلم والمعرفة ، لقد أدى الكفعمي للفكر والدين خدمات جلى ضمن حدود عصره وحاجة زمانه .



١) الغدير ٢١٣/١١ .

البهاء محمد العاملي

٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م
١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م

•

نسبه ومولده :

هو محمد بن الحسين بن عبد الصمد بن محمد الجبعي العاملي الحارثي الهمداني ، لقب ببهاء الدين وهو المعروف بالبهاء العاملي ، واشهر من أطلق عليه لقب العاملي [١] وهو الحارثي نسبة للحارث الهمداني صاحب الإمام علي [٢] .

ولد في بعلبك حيث أقام والده مدة من الزمن ، ولعل هذا الوالد كان يتردد على مدرستها النورية ويأخذ عن كبار شيوخها ، ومنهم الشهيد الثاني ولقد ولد البهاء (عند غروب الشمس يوم الاربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة (٩٥٣ هـ — ١٥٤٦ م) وانتقل به والده وهو صغير من البلاد العاملية الى بلاد العجم ، ويظهر أن مهاجرته كانت أولاً الى مدينة هراة حيث كان قلده بها السلطان طهماسب الصفوي مشيخـة الاسلام ، كما فوض اليه أمر التدريس بعد المحقق الكركي استاذه) [٣] .

١) دائرة معارف بطرس البستاني ٤٦٢/١١ .

٢) ابن معصوم سلافة العصر ٢٨٩ — ٢٩٠ .

٣) المحقق الكركي عاملي الاصل وكبير من أئمة المذهب الجعفري وصاحب تصانيف كثيرة في الفقه تولى الافتاء زمن طهماسب الصفوي وتوفي سنة (٩٣٧ هـ — ١٥٣٠ م) .

حياته واسفاره :

بعد أن حل مع أهله في بلاد العجم بدأ بأخذ العلم عن والده وغيره من الجهابذة ، كالعلامة عبد الله اليزدي ، حتى فاق أقرانه وتغلب على منابذيه ومناظريه ، فأحرز شهرة واسعة في المعرفة وولي مشيخة الاسلام [1] كما كان قد تضلع بالعلوم والآداب وتمكن من اللغة الفارسية وكتب بها ونظم فأجاد [2] .

ولقد كانت نفسه تواقة الى العلم ، راغبة في العزلة ، تأنس بالوحشة ، ولم يرو ظمأها الى العلم معارف فارس ، فرغب في الفقر والسياحة (وترك تلك المناصب ومال لما هو خلافه مناسب) [3] . واتجه لحج بيت الله وزيارة النبي ، وطوف في البلاد ما يقرب من ثلاثين عاماً ، فأتى مصر بزي الدراويش واجتمع بأهل الفضل فيها ، وقد لقي الاستاذ محمد بن أبي الحسن البكري ، ولقد بالغ هذا في تعظيمه ، فقال له البهائي مرة : أنا درويش فقير كيف تعظمني هذا التعظيم ؟ قال : شممت منك رائحة الفضل [4] . ثم غادر مصر الى القدس ، وتجنب فيها الناس ولبس لباس السائحين ؛ ولكنه وإن اعتزل في بيت المقدس مؤثراً الوحدة على الاجتماع بالناس فإنه ما كان يضن بالإجابة على ما يوجه اليه من أسئلة ، وما يطلب اليه من إفادة وتدريس ، ولقد اجتمع اليه بعض علماء القدس ومنهم الرضا بن أبي اللطف القدسي الذي سأله مسائل عديدة [5] .

وغادر القدس الى دمشق حيث نزل في حي الخراب إذ يقيم فيه الشيعة ، واجتمع فيها بالحافظ الحسين الكربلائي القزويني نزيل دمشق الذي استنشده شيئاً من شعره ، كما ألح على مضيفه أن يسهل له الاجتماع بالحسن البوريني ، فأحضره له ذلك التاجر بدعوة ، وتأنق في الضيافة . ولما حضر البوريني لم يعره انتباهه ، ولم يلتفت اليه منصرفاً الى الأحاديث والقصص . ولما بدأ البهائي بالكلام موردا مسائل عويصة مبدياً براعته في تحليلها بأسلوب بهر أسماع الحضور ، نهض

---

١) سلافة العصر ص ٢٩٠ .

٢) سلافة العصر ص ٢٩٠ .

٣) المطوف العرفان ٥٤/٢٣ .

٤) سركيس معجم المطبوعات ص ١٢٦٢ .

٥) المحبي خلاصة الأثر ٤٢٢/٣

البوريني واقفاً على قدميه وقال : إن كان ولا بد فأنت البهائي الحارثي إذ لا أجد في هذه المثابة إلاك [1] .

وفي اليوم التالي توجه الى حلب متنكراً بصورة درويش ، وحضر حلقة الشيخ عمر العرضي الذي ربطته معه فيما بعد علاقات وصداقة ومناظرة ، انتهت الى خلاف كبير حول مسألة جذرية في الاسلام [2] . وقد سعى أبناء جبل عامل للذهاب اليه عندما حل بلاد الشام وتوافدوا عليه جماعات ، فخشي ظهور أمره وخرج من حلب [3] ، وختم تطوافه بالعودة الى اصفهان حيث أقام البقية من حياته ، واتصل بالشاه عباس الصفوي الذي أكرمه وأعلى من مقامه ، وعهد اليه بمشيخة الاسلام في ايران ، وعزت به دولة العجم واستارت برأيه وكان سلطانها لا يفارقه سفراً أو حضراً ، وتبسمت له الأيام في مصاحبة هذا السلطان فبسط يده للفقراء ، وفتح أبوابه للمحتاجين ، وكانت داره في اصفهان ملجأ الأيتام والأرامل (فكم من مهد بها وضع ، وكم طفل بها رضع ، وهو يقوم بنفقتهم بكرة وعشيا) [4] .

وكانت وفاته في الثاني عشر من شوال سنة (١٠٣١هـ – ١٦٢٢م) باصفهان ونقل قبل دفنه الى طوس ودفن بها في داره القريبة من حضرة الإمام الرضا عملاً بوصيته) [5] .

شيوخه وتلاميذه :

ان تعشق البهائي للعلم منذ حداثته ، وتردده على الأمصار العامرة بالمعارف والعلوم اكثر من عدد شيوخه ، فأخذ عن اعلام ايران والشام ومصر ، واستدعى أخذه من كل علم بطرف أن يتردد على أصحاب الاختصاص في الفقه والأدب والطب والرياضيات [6] ، وأن يجتمع (بكثير من أرباب الفضل والحال ، وينال

---

١) دائرة معارف البستاني ٤٦٣/١١ .

٢) خلاصة الأثر ٤٤٣/٣ .

٣) الكشكول ص ٧٢٤ .

٤) سلافة العصر ص ٢٩٠ .

٥) الغدير ٢٨١/١١ .

٦) الغدير ٢٥١/١١ – ٢٥٣ .

من فيض صحبتهم ما تعذر على غيره واستحال)[١] .

وبعد أن نال من المعرفة قسطاً وافراً ، وتمهر في أشتات كثيرة من المعارف ، تحققت له شهرة واسعة في فارس وغيرها من حواضر الاسلام . فتهافت طلب الطلبة يكثرون من فيض علومه ، ويغرفون من بحر معارفه التي (تشهد بالذكاء وعلو الهمة وغزارة الفضل)[٢] ، وأجاز نفراً كبيراً منهم وان من اشتهر منهم بالفضل والتأليف من طلابه يقارب المائة من البارعين الاعلام[٣] .

نتاجه وآثاره :

ان العقل المبدع الذي وهبه البهاء ، والفكر الذي جول في جميع الآفاق ومكنه من معارف عصره ، ونتاج المتقدمين ، قد انتج فأكثر ، وكان عدد مصنفاته الكبير دليلاً على علو همته ، ومطاردته المعرفة ، ولقد جاء في مصنفاته بكل جديد مبتكر في كل علم وفن حتى (زين بمآثره العلوم النقلية والعقلية ... وهو في ميدان الفصاحة فارس أي فارس ، وان كان غصنه ينع وربي في ربوة فارس ، فان شجرته نبتت عروقها بنواحي الشام الزاهية المغارس . . . والعرق نزاع)[٤] . وتشكل مؤلفاته موسوعة فصلت معارف عصره المتنوعة ، ونحن حين نعرض له في آثاره (نتحدث عن نابغ عبقري ترك ثروة من الفكر وأخرى من الأدب تجعلانه في محل رفيع)[٥] . وقد ذكرت المصادر ان عدد مؤلفاته يزيد على سبعة وسبعين مصنفاً عدا قصائده وأراجيزه وشروحه وحواشيه على مؤلفاته ومؤلفات الآخرين من العلماء المعاصرين وتلامذته[٦] .

ولقد كانت مؤلفاته مركز الثقل في معارف عصره فهي لم تكن فقط خير معين للدراسات المتنوعة ، بل استقطبت حركة فكرية شاملة وقامت حولها الشروح والتعليقات العديدة حتى بعد وفاته بما يزيد على ثلاثة قرون لان ماجاء به كل

١) سلافة العصر ص ٢٩٠ .
٢) دائرة معارف بطرس البستاني ١١/١٦٢ .
٣) الغدير ١١/٢٥٣ – ٢٦٠ .
٤) الخفاجي ريحانة الالباء ١٠٤ .
٥) فياض والطلايلي والعرفان ٢٤/٥٣٦ .
٦) الغدير ١١/٢٦٠ – ٢٦٢ .

القمة في الانتاج .

لقد جاءت تعاريفه للجبر خير ما حاوله المفكرون والعاملون بالجبر في العربية[١] .

ولقد كانت الشروح على كتبه أكثر من كتبه ، والحواشي على مصنفاته يزيد على اضعاف عدد مصنفاته ، كما ترجمت هذه الكتب الى الفارسية ، ونقل بعضها من الفارسية الى العربية لانه حذق لغة الفرس والف بها ، وكان شعره بالفارسية أكثر من شعره بالعربية[٢] كما ترجمت بعض مؤلفاته الى اللغات الاوروبية ، ومنها كتابه الشهير خلاصة الحساب والهندسة ، نقله للألمانية الاستاذ نسلمان (Nesselman) في برلين عام ١٨٤٣ م وطبع هناك[٣] ، وترجم هذا الكتاب الى لغات شرقية عديدة كالفارسية ، كما ترجم لاهميته الى اللغة الفرنسية ١٨٦٤ م[٤] ، وعلى الكتاب شروح عدة غير مطبوعة بالعربية والفارسية مع حواشي مطبوعة تقارب الاربعين[٥] .

أما المصنفات الأدبية التي اشتهر بها فهي الكشكول ، والمخلاة ، وأسرار البلاغة .

الكشكول :

معناه وعاء الفقير او جرابه . اشتهر به ، فعد رأس مصنفاته وأهمها ، وهو يشتمل على كل انواع المعارف فقد (جمع فيه من ازواد فضله[٦] الكثير من أشتات العلوم) ، وقد ألفه في عنفوان الشباب بمصر ، وهو ينتقل فيه من تفسير آية ، الى سرد خبر وعرض مسألة هندسية ، يلبعها ابيات من جميل الشعر لجامعه او المختار من بدائع الأقدمين والمعاصرين ، حتى ينتقل بك الى قضية في الفقه ، او مطلب في الفلسفة ، او لغز يختبر فيه ذكاءك ، او يشرح أقوال سابقيه في الفلسفة والطب

١) دائرة المعارف اللبنانية ٦/٢٧٤ .
٢) المعلوف . العرفان ٢٣/٥٤ .
٣) سركيس معجم المطبوعات ١٣٦٣ .
٤) زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٣٥٣ .
٥) الغدير ١١/٢٦٥ – ٢٦٧ .
٦) ريحانة الالباء ص ١٠٥ .

موردا رأيه ، موضحاً خطأ من اخطأ ، ويجذبك بعد مسألة عويصة بلطيفة مستطرفة ، تجدد نشاط الذهن في القارىء ، وتستحثه لمتابعة الغوص في كتابه المحيط الذي جاء خليطاً مستعذباً بنقصه الترتيب ، فمؤلفه لم يجد (من الايام فرصة لتبويبه ، بعد كسقط مختلط رخيصه بغاليه ، او عقد انفصم سلكه فتناثرت لآليه)[1] .

طبع هذا الكتاب في طهران (١٢٦٦ هـ – ١٨٥٠ م) ، وفي بولاق (١٢٨٨ هـ – ١٨٧١ م) ، وتوالت بعد هذه التواريخ طبعات عديدة في ايران ومصر وبيروت[2] . قيمة هذا الكتاب هو كونه يشكل الصورة المعبرة عن معارف القرن العاشر الهجري وطريقة التأليف فيه .

المخلاة :

ألفه البهاء قبل نظيره الكشكول ، وأنفق في ترتيبه جهداً كبيراً وأفرد ابواباً خاصة لكل مطلب وسهل على القارىء الرجوع الى المباحث التي اشتملت على الأدب نثراً وشعراً ، اختاره من بديعات الشعراء والناثرين ، واكثره يضم عظة او طرفة ، عدا عن حكم وشذرات وارشادات وأدعية وأوراد ، فجاء مفخرة التأليف في زمانه ، وحرك في مصنفه دواعي الاعتزاز لما حواه مما (تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من جواهر التفسير ... وعيون الأفكار ... وأبيات تشرب في الكؤوس ، وحكايات تمزج بالنفوس ، مع ترتيب لم يسبق اليه وتهذيب لم يزاحم عليه)[3] . طبعت المخلاة في مصر (١٣١٧ هـ – ١٩٠٩ م) وقامت بعدها طبعات متتالية[4] .

أسرار البلاغة :

رسالة صغيرة في ثلاثين من الصفحات رسم في مقدمتها حدود البلاغة

١) الكشكول ص ٢ .
٢) معجم سركيس ١٢٦٣ .
٣) الكشكول ص ١ .
٤) الذريعة آداب اللغة العربية ٣/٢٠٣ .

والفصاحة والإيجاز ، وأورد آراء الكتاب والبلغاء في سطور قلائل ، وكل ما جاء بعدها من الصفحات يبدو تطبيقاً لما قال وتأكيداً لما حدد ، ذاكراً أمثلة من أجوبة مسكتة ونوادر مضحكة يستجلي فيها آثار البلاغة ويطارد الإيجاز والفصاحة . طبع هذا الكتاب مع المخلاة سنة (١٣١٧ هـ – ١٨٩٩ م) ثم ظهر بطبعة ثانية سنة (١٣٧٧ هـ – ١٩٥٧ م) .

ديوانه :

للبهائي ديوان شعر جمعه محمد رضا ابن الأديب الشيخ محمد الحر العاملي عدا عن شعر له بالفارسية[1] فاق في براعة نظمه نظيره في العربية[2] .

البهائي الشاعر :

علو كعبه في الشعر لا يقل عما هو في النثر وسائر أشتات المعرفة التي بلغ فنونها ، وشاعريته جنبة ناصعة الجبين من جنبات نفسه التي طبعت على العطاء والإبداع (فما من فن إلا وله فيه القدح المعلى والمورد العذب المحلى)[3] .

ولقد تأثرت شاعريته بعقليته العلمية فاتحف شعره بمفردات دخلت الأدب من عالم الفقه والفلسفة والفلك . واتسم هذا الشعر بوشاح ديني ، فلآذكر آل البيت قصائده فكان مدحه لهم ، وحنينه الى مقاماتهم ، معتبراً منه وسيلة الأمان والفوز ، ولعل أحسن مدائحه قصيدة قالها في المهدي المنتظر وقامت حولها شروح وحواشي : أشهرها ما كان لأحمد المنيني الدمشقي[4] . يبدأها على طريقة القدماء متذكراً الحبيب :

سرى البرق من نجد فجدد تذكاري عهوداً بحزوى والعذيب وذي قار
وهيج من أشواقنا كل كامن وأضرم في أحشائنا لاعج النار

ثم ينتقل الى الاعتزاز بعلمه ، وبعد غايته ، وتفوقه على أهل زمانه ، فاذا

١) امل الامل ص ٢٦ .
٢) ريحانة الالباء ١٠٥ .
٣) سلافة العصر ص ٢٩٠ .
٤) الكشكول ٧١٨ – ٧٩٢ .

ما برزت مشكلة استعصى حلها على الناس كان له القول فيها دونما عناء :

ومعضلة دهماء لا يهتدى لها   طريق ولا يهدى الى ضوئها الساري
أجلت جياد الفكر في حلباتها   ووجهت تلقاها صوائب أنظاري

وهو لا يستكين على الضيم ولا يقنع قناعة الذليل ، ولو فعل هذا :

إذن لا وري زندي ولا عز جانبي   ولا بزغت في قمة المجد أقماري
ولا انتشرت في الخافقين فضائلي   ولا كان في المهدي رائق أشعاري
خليفة رب العالمين فظله   على ساكن الغبراء من كل ديار
فلو زار افلاطون أعتاب قدسه   ولم يعشه عنها سواطع أنوار
رأى حكمة قدسية لا يشوبها   شوائب أنظار وأدناس أفكار

وهو يعبر في الأبيات الباقية عن رغبة تجيش في صدور شيعته منتظرة ظهوره بعد تراكم العاديات على الدين والعقيدة وهي فكرة يؤمن بها الشيعة :

أيا حجة الله الذي ليس جارياً   بغير الذي يرضاه سابق أقدار
أغث حوزة الايمان واعمر ربوعه   فلم يبق منها غير دارس آثار
وأنعش قلوباً في انتظارك قرحت   وأضجرها الأعداء أية اضجار

أبواب شعره :

طرق الناظم جميع أبواب الشعر ، وفي كل هذه الفنون يبدو شاعراً فقيهاً ، وعالماً ذا منطق . وقد ذكرنا مدحه الذي اقتصر على آل البيت ولم يمدح من معاصريه ملوكاً وعظماء، وقد لازم الشاه عباس الصفوي ولا ندري إذا كان قد مدح هذا الملك الكبير ، ولكنه مدح أبا الحسن البكري عندما زار مصر فوصف أرض الكنانة :

يا مصر سقيا لك من جنة   قطوفها يانعة دانيه
ترابها كالتبر في لطفه   وماؤها كالفضة الصافيه
قد أخجل المسك نسيم لها   وزهرها قد أرخص الغاليه

فيا حماها الله من روضة   بهجتها كافية شافيه

والملاحظ أن أوصاف البهاء غاية في المدح ، وهو لا يبدي أمام موضوعه انفعالا ، يسلك في هذا طريقة التعميم أو يرسم الاطار الخارجي ولا يحفل بالجزئيات ، اسمعه يصف هراة المدينة :

ان الهراة بلدة لطيفه   بديعة شائقة شريفه
ما مثلها في الماء والهواء   كلا ولا الثمار والفضاء

وهو يصف جمال نسائها فيبدو في هذا اكثر اجادة لانه يعتمد في وصف جمال المرأة صوراً من حياة المفكر العالم والأديب وهذا ما يضفي عليها جمالاً لجدتها .

نساؤها مثل الظباء النافره   فترات الحاظ مراض ساحره
من كل خود عذبة الالفاظ   تقتل من تشاء بالألحاظ
أضيق من عيش اللبيب ثغرها   اضعف من حال الاديب خصرها
فاتكة قد شهدت خداها   بما بنا تفعله عيناها

الرثاء :

لعل الرثاء عند البهاء اكثر أبواب شعره التي تنعم بتجربة شعورية ، فقد قاله متأثراً وخاصة رثاؤه لوالده الذي جاء رزيناً فيه سوانح عاطفية في خليط كبير من عبارات تقليدية :

قف بالطلول وسلها أين سلماها   وروّ من جرع الاجفان جرعاها
عدا على جيرة حلوا بساحتها   صرف الزمان فأبلاهم وأبلاها
يا سادة هجروا واستوطنوا هجرا   واها لقلبي المعنى بعدكم واها

ويصبح عنده الرثاء مدحاً فيقول في والده :

اقت يا بحر بالبحرين فاجتمعت   ثلاثة كن أمثالاً وأشباها
ثلاثة أنت أنداها وأغزرها   جوداً وأعذبها طعماً وأحلاها

الغزل والخمرة :

تغزل بالطرف الساحر ، وتعرض لوصف مفاتن المرأة موجزاً دون اطالة :

يا ســاحراً بطرفه   وظالمــاً لايعدل
اخرجت قلبي عامداً   كذا يراع المنزل ؟

وللبهاء في الخمرة ومجلس الأنس شعر عذب سماه سوانح الحجاز ، والخمرة لديه طاهرة تزيل الادناس ، تفعل في العظام كخمرة النواسي واكثر ، فان كان دبيبها عند الحسن بن هاني كدخول البرء في السقم فانها عند البهاء العاملي تحيي العظام وهي رميم ، ويرقى بالخمرة في منزلتها فكأنها كأس قدسية لونها كنار موسى والطور صدره [1] :

يا نديمي ضــاع عمري وانقضى   قم لادراك زمان قــد مضى
واغسل الادناس عني بالمدام   وامـــلأ الاقداح منها يا غلام
هاتها من غير مهــل يا نديم   خمرة يحيا بهــا العظم الرميم
خمرة من نار موسى نورهــا   وبهــا قلبي وصدري طورها

وبين ضيق الوقت وطلب الخمرة تنزع نفسه لاستعجال الزمن ، الكأس والدن ، آلات للخمرة في اعتمادها تضيع رقعة العمر الباقية ما العمل ؟

هاتهــا صهباء من خمر الجنان   دع كؤوســاً واسقنيها بالدنان
ضاع وقت العمر عن آلاتها   هاتها من غير عصــر هاتها

الطبيعة في شعره :

لها مكان كبير لم يتحاشاها محاشاة الشعراء الأقدمين ، بل وصفها مباشرة ؛ ولقد أقام البهاء مدة كبيرة في مدينة هراة الجميلة ، فاستهوته مفاتنها ووصف مكاناً فيها يدعى بكازركاه ؛ واذا وجد ابن الرومي في الطبيعة شبق انثى فالبهاء

(١) الطور : الجبل الذي كلم منه موسى ربه .

أوجد فيها الجنسين :

وبقعــة تدعى بكازركاه   ليس لها في حسنها مباهي
فيها البساتين بغير حصر   يقصدها الناس بعيد العصر
من كل صنف ذكر وأنثى   وحــرة وأمــة وخنثى

ونحس في وصفه للطبيعة عطراً أنثوياً ، ولذائذ الفاكهة أشهى وأينع لديه من خد احمر ، وأوقع في قلبه من طرف ناعس ، وهو يصف العنب :

أحمره أشهى الى القلب الصدي   من لثم خـــد ناصع مورد
أسوده أبهى لدى الظــريف   من غمز طرف ناعس ضعيف

البهائي لم يترك باباً من أبواب المعرفة إلا أخذ به ، وهو في الأدب قد نوع الأبواب ولم يفته النظم على غرار الموشحات الأندلسية والرباعيات الفارسية .ومن جميل موشحاته :

يا ساكني أرض الهراة أما كفى   هذا الفراق بلىٰ وحق المصطفى
عودوا إليّ فربع صبري قد عفا   والجفن من بعد التباعد ما عفا
خيالكم في بالي   والقلب في بلبال

والرباعيات بالنسبة للأدب العربي فن مستجد نظم على طريقته البهائي :

كم بت من المسا الى الاشــراق   من فرقتــكم ومطربي أشواقي
والهم منــادمي ونقلي ندمي   والدمع مدامتي وجفني الساقي

فكرة دائمة تبرز في شعر البهائي أنه يود اختصار اللذائذ بالزمن على سعتها في العدد ، في قرارة نفسه يحس فوات الأيام وضياع العمر ، كيف يقتص لماضيه ، هذا ما نتبينه في الرباعية التالية :

قــم وامض الى الدير   ببخــت وسعود
لا يحـن في المد   رسة اليوم قعود
واشرب قدحــاً و   كل على صوت العود
العمر مضى ليسٓ   من بعــد يعود

لقد كان الشعر لديه وسيلة موعظة وارشاد الى العمل الصالح والتوجه للآخرة، ويعتمد في وعظه طريقة جميلة ، انه يعمد الى القصة الحية يودعها شعره ويستنتج منها بفضل منطقه حكماً عاماً ، يعول عليه في النصيحة ، ويفتح باب الموعظة قال :

كان في الاكراد شخص ذو سداد   أمـه ذات اشتهار بالفساد
لم تخيب من نوال راغبـاً   لم تنفر عن وصـال طالبـاً
جاءها بعض الليالي ذو أمل   فاعتراه الابن في هذا العمـل
شق بالسكين فوراً صدرهـا   في محاق الموت أخفى بدرهـا
فاقتل النفس الكفور الجانيه   قتـل كردي لأم زانيـه

فنه واسلوبه :

امتدح اسلوبه نفر من دارسي شعره وأدبه الذي هو (كالروض المتأرج أنفاسه المتضوع بنشره ... المستعذب لفظه ومعناه)[1] . و (شعره باللسانين مهذب ومحرر وبالفارسية احسن واكثر[2]) ، والبهائي في انتاجه عالم أكثر منه شاعر فان نفسه قد نفخ فيها العلم من ذاته ما طغى على شاعريته فأسدل عليها ستائره ، وهي تجنهد الى التعبير المترف المغموس بالصناعة حتى في شعره ووجدانه يبدو متكلف التعبير ، وتكثر التشابيه والجناسات والطباقات والبدائع اللفظية في قصائده ومقاطعه النثرية ، قال :

رعى الله ليلة بتنا سهارى   خلعنا بحب العذارى العذارا
شربنا لداء الهموم الدوا   وشبنا نسيم الهوا بالهوى

وهو في كثير من قصائده لا يعتمد طريقة الابيات ذات القافية الواحدة ، بل تتعدد القوافي في المقطوعة وإن كانت تتوالى الأبيات متماسكة في معانيها ، وهو قليل في الشعر العربي ، وقد يتأثر البهائي خطى الشعراء الفرس فينظم على أوزانهم ويورد بعض ابياتهم ضمن مشاهير قصائده .

١) سلافة العصر ص ٢٩١ .
٢) ريحانة الالباء ص ١٠٥ .

مكانته :

نتاج البهائي خليط ذكاء وجهد ، وهو وإن برع في العلوم وأسر الفقه عزيمته ، فهو في الأدب فارس مجرب بلغ القمة في ما سمح به عصره من ابداع ، وهو بالنسبة للادب في جبل عامل اعتمد بابين جديـدين : رباعيات فارسية ، وموشحات أندلسية وشح بها جيد ادبه .

وهو في مجمل حياته مثال اللبناني النابغة المتحفز للابداع ، والذي يسجل خارج بلده كثيراً من انتصارات ، سواء أكان في مجال العلم والمعرفة ام في غيرها من المجالات . فهو وإن ضنت عليه بلاده بالذكر فقد ترك لفارس تراثاً علمياً ما زالت تتصرف فيه . كما قدم للبشر أجمع في بحوثه العلمية وخاصة كتابه خلاصة الحساب معيناً رياضياً ينهلون من لذيذ شرابه ، فبات ما ترك ليس ملكاً لجبل عامل او للبنان ، بل هو ينتمي الى وطن العلم الذي لا يحده وطن . ولكنه بالنسبة لنا مفخرة جديدة في مفاخر لبنان .



حسن بن الشهيد

٩٥٩ هـ / ١٥٥٢ م

١٠١١ هـ / ١٦٠٢ م

مولده وحياته :

هو حسن بن زين الدين الشهيد الثاني ، لقبه جمال الدين ويكنى بأبي منصور ؛ ولد في جبع موطن أبيه في رمضان (٩٥٩ هـ – ١٥٥٢ م) وليس كما ذكر بعضهم (عام ٩٥٤ هـ) فلقد كان هذا خطأ وقع فيه المحبي وتابعه آخرون[١]. فان ما ورد عن حياته بقلم حفيده علي زين الدين[٢] لهو أقرب الى الصواب مما ذكره آخرون عنوا بترجمته .

وكان حسن وحيد أبيه بعد وفاة جميع اخوته ، ولم يكن والده يرجو بقاءه بعد ما أصيب بمصائب أبناء كثيرين ؛ ولم يهنأ الشهيد بولده هذا فلقد لقي آخرته وابنه في السابعة من عمره ، فأكمل حسن ما بدأ به من دراسة في بلده جبع على تلامذة والده ، سالكاً طريقه في أخذ المعارف الدينية قاصداً كأبيه حواضر العلم في بلده ومحيطه منطلقاً الى مجالات بعيدة أيضاً .

أسفاره :

بعد أن استكمل معارفه على علماء بلده قصد مدرسة كرك نوح في البقاع ،

١) خلاصة الأثر ٢/ ٢١ .
٢) مع التاريخ العاملي ص ١٨٢ .

واجتمع هناك بالشيخ بهاء الدين العاملي[١] ثم ما لبث ان قصد العراق مع ابن اخته محمد بن علي الموسوي ، وقد حلا العراق حوالي سنة (٩٨٣ هـ) واتصلا بالعلامة الكبير الاردبيلي والمولى عبد الله اليزدي في النجف ، فقد أخذا من العلم عندهما الفقه المنطق والرياضيات ، ولقد استوفيا في زمان قليل قدراً وافياً من العلم والتحقيق ، وكان يرغب في زيارة البلاد الايرانية والاتصال بعلمائها ولكنه احجم عن ذلك مع ابن اخته وعاد الى الوطن[٢] . ولم يزر مصر كما ذكر المحبي اذ وقع في خطأ فيما أخذه عن الخفاجي الذي ترجم لحسن الشامي[٣] ولم يقصد به حسن الشامي العاملي بل أخذها المحبي دون تحقيق ، وتكرر الخطأ نفسه مع البستاني في دائرة المعارف[٤] . ومع العلايلي وفياض حينما تعرضا لترجمته وشعره[٥]. وفي بلده اقام يؤلف ويؤدي مهامه الدينية حتى وافته المنية في أوائل المحرم عام (١٠١١ هـ – ١٦٠٢ م) .

شيوخه وتلاميذه :

بعد وفاة والده درس حسن بن الشهيد على مجموعة من أفاضل عصره ، ولقد كانوا علماء وشعراء فأخذ عنهم في علمهم وتأثر بجوهم الأدبي ، وكان منهم أحمد النباطي العاملي الذي يروي عن الشهيد الثاني والسيد علي والد شريكه في الدرس العلامة محمد الموسوي العاملي . وكذلك علي الصائغ المدفون في قرية صديق قرب تبنين من جبل عامل . كما درس على صديق والده حسين عبد الصمد وكان هذا شاعراً أديباً . وخارج لبنان فقد درس على الاردبيلي واليزدي في النجف ، وقد اغترف من علمه علماء وشعراء كثيرون منهم علي الجبيلي العاملي الشاعر الرحالة ، وعبد السلام الحر العاملي العالم الزاهد ، وعبد اللطيف بن ابي جامع العاملي[٦] .

١) أمل الآمل ص ١٠ .
٢) الكنى والألقاب ٢/ ٣٥٢ .
٣) ريحانة الالباء ص ٢٨٤ .
٤) دائرة المعارف ١١/ ٤٦٠ .
٥) العرفان ٣٤/ ٥٣٥ .
٦) امل الامل ص ١٩ .

نتاجه وآثاره :

ترك في مجالي الفقه والأدب ثروة فكرية جعلته بين اعلام العامليين وكبار مصنفي الامامية اذ (له مؤلفات جيدة جديدة فائقة على سائر التصانيف) ومن أشهر كتبه في الفقه كتاب المعالم الذي اشتهر به فأصبح يسمى صاحب المعالم [1] هذا عدا عن كتب اصولية كثيرة منها في الأحاديث الصحاح والحسان وكتاب معالم الاصول ومعالم الفقه وكتب اخرى في الرجال وهذه الكتب مخطوط اكثرها [2] .

وقد أحصى كتبه صاحب أعيان الشيعة فوصل بها حتى الأربعة والعشرين كتاباً ، وقد ترك في الأدب مجموعاً كبيراً الى ديوان شعر كبير جمعه تلميذه الشاعر نجيب الدين علي الجبيلي [3] .

ولقد كان في نتاجه العلمي فقيهاً كبيراً (لا يعمل إلا بالحديث الصحيح والحسن ، ويعد بين الفقهاء من أكابر المحققين ومن أهل السلائق المعتدلة في الغاية والأنظار الصائبة) [4] ولذلك ألف كتابه الجليل منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان ، وقد مدح عليه كثيرون لأنه (يم العلم الذي يفيد ويفيض ... قام مقام والده في تمهيد قواعد الشرائع) [5] .

شعره وشاعريته :

خصب الشاعرية ، صادق العاطفة رقيقها ، شعره انفعال وتأثر وتعبير صريح عن واقع حاله ، فهو وجداني الموضوع قد يسمو بشعره الى فن الحكمة أحياناً ، ولا يعتمد المدح إلا ما قال في أهل البيت ، فإن هذا الفن ما وجد سبيله الى أدب العامليين لبعدهم عن أهل السياسة وأصحاب الكرم ولأن أكثر الشعراء من الفقهاء الأجلاء الذين تأنف نفوسهم أن تمتدح وتتزلف بالإطراء والثناء . ولقد أطرى

١) أعيان الشيعة ٢١/٣٧٧ .
٢) الاعلام للزركلي ٢/٢٠٦ .
٣) أعيان الشيعة ٢١/٣٩٨ .
٤) أعيان الشيعة ٣٨٤ .
٥) سلافة العصر ص ٣٠٥ .

شعره كثيرون من معاصريه وغيرهم فهو للأدب (روضه الأريض ومالك زمام السجع منه والقصيد ، والناظم لقلائده وعقوده والمميز عروضه من نقوده) [1] .

ولقد طوف حسن العاملي في فنون شعرية تسمح له بالتعبير عن عواطفه وأحاسيسه وخير هذا الشعر ما جاء في الحنين والغزل ورثاء الاصحاب والحكمة فهو في غزله يصف مشاعره وحالته ، أكثر من وصفه جمال الحبيب متذكراً سالف أيامه الطيبة ، يشكو ظلم حبيبه البادي في مقلتيه :

لحسن وجهك للعشاق آيات   ومن لحاظك قد قامت قيامات
يا ظالماً في الهوى حكمت مقلته   في مقلتي فبدت منها جنايات
تفديك نفسي هل للهجر من أمد   يقضي وهل لاجتماع الشمل ميقات

وقد يبلغ ظلم الحبيب به مبلغاً كبيراً فيشكو ويبكي من حبيب قلاه ، وهو في هذا الهوى على غرار القدماء من الشعراء يرغب أن لا يناله لوم اللائمين ، فقد بات لديهم امرأ مسلماً أن اللوم لا يجدي الحب واللائم نفعاً ، وهو بين قطبي الدنيا والآخرة تتأرجح قيمة وجوده ، فهو من دنياه يبغي اللذة ولآخرته يبغي النعيم ، وهوى من يحب صعب مناله ، لذا ذهبت لذة دنياه ونعيمه المنتظر في العالم الثاني ، وكان وجوده ضياعاً ، اننا نلمح من ثنايا شعره حسرة علت نفسه فخسر الدارين ، الدار الآخرة تتطلب العمل لها في الدنيا وشغله عن العمل حب الحبيب الفاشل فضاعت دنياه :

كم قد شكوت له وجدي عليه فلم   يسمع ولم تجد لي تلك الشكايات
وكم نثرت عقود الدمع مرتجياً   لعطفه وهو ثاني العطف مقتات
يا لائمي بالهوى جهلاً بقدرتي   دع عنك لومي فما تجدي الملامات
يا ضيعة العمر لم أعمل لآخرتي   خيراً ولا لي في دنياي لذات

وقد يترسم خطى الأقدمين فيقف بالديار يتذكر من حلوا فيها وكيف عبثت بها الخطوب فتبدل عزها كآبة وذلاً :

قف بالديار وسلها عن أهاليها   عسى ترد جواباً إذ تناديها

١) سلافة العصر ص ٣٠٥ .

استفهمن من لسان الحال ما فعلت — أيدي الخطوب وماذا أبرمت فيها
فسوف تنبيك أن القوم قد رحلوا — ولم تكن بلغت منهم أمانيها

شعر الحنين :

يذكرنا الحسن بن الشهيد بالأندلسيين في تعلقهم بوطنهم ، وتشبثهم الزائد به ، وهو في هذا الباب صادق العاطفة والتعبير وليس مقلداً ، وإن حياته في الغربة بعيداً عن أهله وأحبابه جعلته يتذكر الأحباب والأوطان :

طول اغترابي بفرط الشوق أضناني — والبين في غمرات الوجد ألقاني
يا بارقاً من نواحي الحي عارضني — اليك عني فقد هيجت أشجاني
فما رأيتك في الآفاق معترضاً — إلا وذكرتني أهلي وأوطاني

ومصاحبته النجوم ليلاً يرعاها بعيون كحلها سهاد متواصل ، تبدي عن شوقه المبرح لأحبابه في جبل عامل ؛ فمسة نسيم من هذا الوطن تحيي ميتاً ألقاه حبه في الردى ، وشوقه من هذا النوع الذي يفرق بين المهجة والجسد،مهجته بين يدي الحبيب وجسده حيث يقيم :

كأن أيدي خطوب الدهر منذ نأوا — عن ناظري كحلت بالسهد أجفاني
ويا نسيماً سرى من حيهم سحرا — في طيه نشر ذاك الرند والبان
أحييت ميتاً بأرض الشام مهجته — وفي العراق له تخييل جثمان

إنه يرغب في تبيان الخسارة التي حلت به من هذا الفراق ، وبعد أحبابه عنه انها خسارة عافية أضناها الشوق ، وبراها السقام ، ونأي رشد وأكثر من هذا وأمر خسارة في الشباب ، فالشيب قد علا ناصيته إثر فراقه الطويل . ولا بد لداء الفراق من دواء والدواء هو اللقاء :

شابت نواصي من وجدي فوا أسفي — على الشباب فشيبي قبل إباني
لا يسكن الوجد ما دام الشتات ولا — تصفو المشارب لي إلا بلبنان

ولعل الشاعر رشيد ايوب المهاجر اللبناني قد تأثر في مهجره بغربته وبعده عن وطنه فقال ما يشبه شعر العاملي معنى وقالباً وقافية في قصيدة منها :

يا ثلج قد هيجت أشجاني — ذكرتني أهلي بلبنان

وفي غربته له قصائد عديدة يبدو فيها وقد آلمه الحال وبرح به الشوق فيوجه لومه للزمان الذي فرق بينه وبين أحبابه ليعيش في ثنائية غريبة بانت ظاهرة مميزة في شعره وتعبيراً عن حال نفسه .

فؤادي ظاعن إثر النياق — وجسمي قاطن أرض العراق
ومن عجب الزمان حياة شخص — ترحل بعضه والبعض باق

ويقول في قصيدة ثانية يشكو دهره :

أنهضني حمل النصب — ونالني فرط التعب
إذ مر حالات النوى — علي دهري قد كتب
عاندني الدهر فما — يود لي إلا العطب

وهو لا يدري العلة ولا يعرف السبب لعل الدهر حسبه من أصحاب الأدب:

كأنه يحسبني — في سلك أصحاب الأدب

وهو لا يبدو في الرثاء أقل انفعالاً ولا أخف تأثراً منه في الحنين ولقد رثى صديقه محمد بن الحر المتوفى سنة (٨٩٠ هـ – ١٥٧٢ م) . وهو يبكي هذا الصديق ولا يعتبر موته غياباً لأنه حل في فؤاده وهل ينسى الفؤاد ؟

عليك لعمري ليبك البيان — فقد كنت فيه بديع الزمان
لئن عاند الدهر فيك الكرام — فما زال للحر فيه امتحان
وإن بان شخصك عن ناظري — ففي خاطري حل في كل آن
فأنت وفرط الاسى في الحشا — لبعدك عن ناظري ساكنان

وله في الحكمة شعر نتج عن تجربته اليومية الخاصة ، ونظرته العقلية ، وكل ما جاء في الحكمة عنده شكوى من الدهر تدعو الحذر من الأيام ، التي لا تدع للمرء أن يكمل سعادته ، لعله قاسى في حياته كثيراً من العذاب ، فكون لنفسه في الدنيا رأياً قائماً فيها ، كالحذر من القاتل يلزم أن يواجهها ؛ وهو بطبعه كفقيه تقي لا بد من أن يوجه شطر يوم الدين وجهه ويعمل في دنياه للآخرة ؛ رأيه

حسبنا من الحياة حظاً أن نحيا لعمل الآخرة ولقاء الله ، وهو يؤكد ان لا كال للانسان في حظه وسعادته من هذه الدنيا ، نكنز ذهباً وعافية ومجداً ، ونخسر في مقابلها ايماناً وعلماً وخلقاً :

تحققت ما الدنيا عليك تحاوله   فخذ حذر من يدري بمن هو قاتله
ودع عنك آمالا طوى الموت نشرها   لمن أنت في معنى الحياة تقاتله
ولا تكذب من نقص حظك عاجلا   فما الحظ ما تبغيه بل هو آجله
وحسبك حظاً مهلة العمر   ان تكن فرائضه قد تممتها نوافله
فكم من معافى مبتلىً في يقينه   بداء دوي ما طبيب يزاوله
وكم في الورى من ناقص العلم قاصر   ويصعد في مرقاه من هو كامله

وكأنه بهذه الابيات يسلك طريق ابي الطيب ، فيؤدي الحكمة اولاً ثم يتبعها بما يؤكد من امثلة تعتمد على الحس والواقع والعقل ، وموقفه من الدهر ليس موقف المتخاذل وان رماه بسهامه ، فهو يدعوه الى مواجهة هذا الدهر بقوة وعناد . بماذا نتمسك وعلى أي شيء نعتمد ؟

والغمر من لم يكن في طول مدته   من خوف صرف الليالي دائم الوجل
والدهر ظل على أهليه منبسط   وما سمعنا بظل غير منتقل
فاشدد بحبل التقى فيما يديك فما   يجدي بها المرء الا صالح العمل

وهو لا يدعو فقط للتقوى طريق الفوز بالآخرة فهو يدفع الى المغامرة في هذه الدنيا خائضاً غمار المعالي ، يذكرنا بشعر المتنبي ، دون ان يستكين ، وكيف العمل اذا ناله الضيم في بلد أو مكان :

واركب غمار المعالي كي تبلغها   ولا تكن قانعاً منهن بالبلل
فذروة المجد عندي ليس يدركها   من لم يكن سالكاً مستصعب السبل
وان عراك العنا والضيم في بلد   فانهض الى غيره في الارض وانتقل

اما في المديح فنحن لا نعثر له الا على مدائح لآل البيت ، وهذا النوع من المديح بات نهجاً كلاسيكياً ، ليس فقط لدى الشعراء العامليين بل عند شعراء

الشيعة اجمع ، وقد يأتي هذا المدح ضمن تشوقه للقاء الحبيب :

ولقد نذرت صيام يوم لقائهم   مع انه من أكبر الاعياد
نفسي فداء أحبة في حبهم   ذهب الزمان وما بلغت مرادي
لكنني متمسك بهدايتي   لولاء اصحاب الكسا الأمجاد

هذا الى شعر آخر يتذكر فيه الآخرة ، او يدعو الناس الى تذكرها ، وكأن شعره هذا ترجمة لخطبة أو موعظة يتلوها فقيه مرشد زاهد في هذه الدنيا مذكراً بالآخرة وهول العذاب :

ولقد عجبت وما عجبت لكل ذي عين قريره
وأمامه يوم عظيم فيه تنكشف السريره
هذا ولو ذكر ابن آدم ما يلاقي في الحفيره
لبكى دماً من هول ذلك مدة العمر القصيرة
فاجهد لنفسك في الخلاص فدونه سبل عسيره

وهكذا يبدو لنا الحسن بن زين الدين قد طوف في فنون شعرية وجدانية الموضوع ، وان دق باب الحكمة فهو يأتيها عن تجربة ، ويقولها تأسياً ، ولكن ما هو الاسلوب الذي ادى به عواطفه المشبوبة وافرغ فيه زفراته الحرى ؟

اسلوبه :

لا بد لهذا الشاعر الصادق في احساسه ، المفصح عن واقع حاله ، الندي العاطفة ، من أن يعبر عن مشاعره بما يناسبها رقة في اللفظ ، الى بعد عن الغريب ، وبساطة في التأدية ، الى نأي عن الصناعة والكلفة ، ولعله كان في اسلوبه اكثر العامليين ميلاً الى الطبع سواء في الموضوع أو الالفاظ ، في عصر اتسم بالصنعة ، واتشح بالتنميق والتزويق في الالفاظ ، ولعل عاطفته المشبوبة انطلقت معبرة عن نفسها بما يلائم ، غير متوقفة عند نكتة بديعية أو طرفة بيانية ، أو لجوء الى معان بلاغية ، فبلاغته في أنه أدى الى نفوسنا مشاعره فحملنا الى مشاركته

في حنينه لوطنه . ولكنه وهو الفقيه المتعمق وقد أطلق للسجية العنان شابت أسلوبه ألفاظ فقيه ، ولما اعتنى بالحديث كانت تعابير هذا العلم عالقة في شعره دون احساس بانه تكلفها فقد جاءت في شعره الوجداني وفي الغزل اجمل هذا الشعر :

اختلف الأصحاب في عشق   وما الذي اوجب لي البلوى
فقيل طول النأي والبعد عن   نيل المنى من وصل من أهوى
وقيل لا بل صدغه لم يزل   بالسحر يرمي القلب بالأسوا
وقيل بل كل له مدخل   فيها وعندي انه الأقوى

وقد يحمل شعره بعفو من خاطره شذرات قرآنية تزيد من جمال التأدية ، وفيها من الاستعارة والتشبيه ما تلذ له النفس ، قال في وصف جمال الحبيب :

عجبت كيف تحل الشمس في قمر   والشمس لا ينبغي أن تدرك القمرا[1]

وهو حين يلوم دهره لما أصابه منه من علل وهموم يذمه بآيات قرآنية أيضاً :

تبت يداك مثلما   تبت يدا أبي لهب[2]

ومع هذا الفاظ دينية تزدحم في شعره كالآخرة والهداية والتقوى والفرائض والنوافل[3] .

قيمته واثره ومكانته :

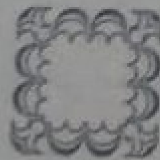
لعل حسن بن الشهيد اول شاعر في العامليين بعد عبد المحسن الصوري نلمس في قصائده سلاسة تعبير وبساطة إنشاد ، وهو بالنسبة للحركة الأدبية قد فتح باباً جديداً ، لا نقع عليه في شعر العرب إلا في ديار الأندلس ، ألا وهو شعر الحنين ، وفي هذا ترسم خطاه كثيرون بعده كحفيده زين الدين بن علي ، والبهاء العاملي ، وغيرهم ، وهكذا يعتبر الحسن العاملي أول من أدخل هذا الفن الى الشعر في الجبل ، كما يعتبر الشاعر الحق الصادق في شعره وشعوره ، لا ناظماً متكلفاً شأن

(١) القرآن سورة يس الآية ٤٠ .
(٢) القرآن سورة اللهب الآية ١ .
(٣) أعيان الشيعة ج٢١ (الترجمة).

من سبقه ، ونقع في شعره بالحنين على كلمة لبنان التي أطلقها على جبل عامل وبهذا نحس شعوراً طيباً في هذا المجال منذ أربعة قرون :

لا يسكن الوجد ما دام الشتات ولا   تصفو المشارب لي إلا بلبنان

وهو يصور حركة أدبية دب فيها نشاط جديد ، فبات الشعر ليس هامشاً في صفحة الفقه والأصول ؛ بل هو جزء من حياة هذا الجبل ، سيبرز فيها الأدب ناشطاً على أيدي محمد بن علي بن محمود المشغري . هذا الى جانب مكانته الفقهية فان مؤلفه المدارك ما زال منذ ألفه حتى اليوم معتمداً في جامعات العراق وإيران الدينية .



محمد بن علي المشغري

١٠٩٠ هـ – ١٦٨٠ م

•

حياته وشهرته :

هو محمد بن علي بن محمود العاملي المشغري ، نسبة الى بلدة مشغرة . ولقد اشتهر بنسبته الى هذا البلد حتى أصبح كافياً أن يذكر لفظ المشغري فلا يعرف به سواه من الشعراء والعلماء الذين خرجوا من بلده قديماً[1] وحديثاً . ولكن الذين حاولوا ترجمة هذا الشاعر من معاصريه[2] ما أشاروا الى هذه النسبة ؛ وإن من أشار فما وقع في غلط ، أو ان التحريف اصاب هذه الكلمة خطأً او طباعة كما حدث للمحبي الذي سماه بالحشري لا المشغري ، ولعل التقارب بين كتابة الكلمتين يشير الى التحريف[3] ، ولكن الغريب أن من ترجم له من المحدثين ما ذهب الى التحقيق في هذه الكلمة التي ابعدت المترجم له عن انتاجه ، وألقت ستاراً من الظلمة على ترجمته والشك فيما نسب اليه ، ولعلهم أخذوا هذه التسمية عن المحبي وهذا ما حدث للسيد محسن الأمين[4] الذي كان قد سبق له الاشارة الى اسمه الصحيح أولاً ثم عاد فأخطأ[5] ، كما أشار له كثيرون ممن تعرضوا لترجمته[6] .

ويبدو أنه ولد في مشغرة ودرس في مدرسة جبع وما لبث أن هاجر من

١) معجم البلدان ٥/١٣٤ . ٢) أمل الآمل ص ٢٩ .
٣) خلاصة الأثر ٤/٦٥ . ٤) أعيان الشيعة ٤٦/١٤٦ .
٥) أعيان الشيعة ج ٥ ق ٤/٢٠٩ . ٦) ولاية بيروت القسم الجنوبي ٣١٨ .

وطنه مع الجموع التي هاجرت الى ايران حيث عمل بالدرس والتدريس مدة طويلة طارت له بعدها شهرة واسعة تحكي عن علمه وفضله والشيد بمكانته حتى وصلت هذه الشهرة حدود حيدرآباد ، استدعاه سلطانها الى حضرته حيث أقام عاماً بالنعمة والجد في كنف هذا السلطان ؛ ولقد اتصل به خلال هذه المدة احمد نظام الدين المدني والد ابن معصوم ، صاحب كتاب سلافة العصر واصبح من ندمائه[1] ولكنه ما لبث أن غادر بلاد حيدرآباد قاصداً حج البيت ، فأقام في مكة سنتين ثم عاد بعدها الى حيدرآباد ، ويبدو انه اشتغل فيها بالتدريس ثم غادرها. ولم تشر المراجع الى مكان وفاته ولكن زمانها كان سنة (١٠٩٠ هـ – ١٦٨٠ م) ولم يترك من الآثار غير قصائد شعرية كثيرة جمع عدداً وافراً منها ابن معصوم في كتابه سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ، وفي كتاب آخر له أسماه أنوار الربيع في علم البديع .

شاعريته وشعره :

يعتبر المشغري قمة الشعر في هذا الدور لما أوتيه من شاعرية رقيقة ، وعين تنفذ الى أعماق الموجودات فتصف منها الشكل ، وتتعداه الى الشاعر وما يداخل النفس من العواطف ، الى مقدرة لغوية وبراعة في رسم الحركة والصورة ، متحرراً من وطأة الجمود الذي يتشبث بشعر الفقهاء فكأنما الوقار يكبت مشاعرهم فلا يتحرر الشعر من عقال الفضيلة ، فيخسر بذلك الكثير من شمائل الصدق في التعبير ، والواقعية في ابراز المشاعر سافرة بلا ستر ، وهذا ما فاز به المشغري دونهم جميعاً ، وقد عالج مواضيع الشعر وخاض كل الفنون التي وان اختلفت في اشكالها وأنواعها تحتفظ جميعها بنكهة أدبية جديدة ، وعطر شاعري لم نقع على مثله من قبل ، وسنتناول هذه الفنون لنرى الى أي حد بلغت شاعرية المشغري .

الوقوف على الاطلال :

اكثر الموضوعات التي خاض فيها المشغري لا تعد مبتكرة في نوعها ، وانما

١) سلافة العصر ص ٣٢٤ .

الجدة كانت في موقفه منها وطريقة معالجته اياها ، والجلباب الذي لبسته فقد عالج من هذه الموضوعات اكثرها قدماً ، بل رأس القديم الذي هو موضوع الطلل . وكان قد ملأ الشعر العربي قديمه وحديثه ، واذا كان لدى الكثير من الشعراء ركناً في الاتجاه الكلاسيكي ، ينظمون على هيكله شعرهم فان المشغري كان في هذا المجال شاعراً يذوب عاطفة وأسى :

قف بالمنازل حيث أوقفك الهوى وكل البكاء الى الحمام الهيف
اني غسلت من الدموع اناملي ونفضت من أثر البكاء كفوفي

ويرتفع بهذه الاطلال الى مستوى من الحياة رفيع ، فهي لا تجيب كأنما لحقها الصمم ، ولا تراه كأنما أدركها العمى ، ويعلي من منزلتها كأنها كعبة أو معبد اعتكف عنده :

فصممن حتى لا يجبن مسائلي وعمين حتى لا يرين عكوفي

والوقوف في هذه الديار لم يهدء من خاطره وما خفف من لوعته ويبدو أنه قد اقلع عن هذه الطريقة لأنها ما أجدته نفعاً الا أنها تستثير الدموع ، درر اجفانه :

ما انتفاعي بنظرة تطرف العيـ ـن بتلك الطـلول والآثار

فهو لا يناضل الطلل مناضلة النواسي طلباً للجديد ودحضاً للقديم بل لأنها تثير شجوناً دفينة وذكريات غابت في الماضي لأحبابه :

ما ترى البارق الذي صدع الجـ ـو سناه على رسوم الديار
ذكرتني مباسماً وثغوراً حاليات تغص بالانوار

ولقد أصبح الطلل مثار دموعه وبات بكاؤه انعكاساً عفوياً يحدث لدى رؤيته منازل الاحبة ، لذا فهو يبتعد عن الاطلال ؛ ولانه يريد عمراً واسع القرب مع الحبيب فالزمن أقصر عمراً من البكاء :

صاح ان الزمان اقصر عمراً من بكاء بدمنة ونواح

ولم يكن بكاء الطلل موضوع قصيدة كاملة ، بل هي أبيات قلائل تـرد في مطلع كل قصيدة ، ولكن موقفه من ديار الاحباب يمتاز عن سابقيه بالحركة والحياة يبثها في الجماد ، وبالانعكاس والانفعال يحدثها الطلل في نفسه ويتجاوب معه بشعوره .

الحب والغزل :

لا غزل بلا حب قد يكون عذرياً فيسمو على شهوة الحس ، ويتدرج في سلم المثال ، يلفه العفاف فيقصد جوهر المحبوب لا وجوده ، وقد يكون اباحياً يسرف في طلب اللذة ، ويغالي في رغبة الوصل ، فيحيد قليلاً أو كثيراً عن دربة الفضائل ، وقد يكون كحب المشغري واقعياً لا يقهر النفس بالعذرية وطبيعياً لا يذل الشرف باباحيته ، فمحبوبه ملك نفسه فأصبح شغله الدائم ، وقبلة شطرها يتوجه :

انت ياشغل المحب الواجـد قبلة الداعي ووجه القاصد

ولقد شغل من محبوبه بطرفه الساحر ، الذي علم هارون الكهانة والسحر ؛ وقد تكون الأوصاف مطروقة قديمة ولكنه يزيد على هذا القديم جمال الحركة العاطفية ؛ فقد فات محبوبه بجمال عينيه طرف المها الجامد ، لأن في عينيه حركة تهيج مشاعره :

فت* آرام الفلا حسناً فما قابلت الا بطرف جامد

وتظل العيون تأسر قلبه ، وهو سعيد رغم أنه باع لحبيبه روحه يوم ساعده الحظ فقبل الحبيب بهذا الثمن :

ساعد الحظ يوم بعتك روحي لا وعينيك لست أبغي إقاله
يا عليل الجفوف علت قلبي زاد جفنيك علة وذباله

ولعل هذه الجفون ناعسة غلبها النوم وهي في سكرها كفؤاده غير صاحية :

لا تؤاخذ جفونه بفؤادي يا إلهي كلاهما غير صاح

وقد ينتقل الى وصف الثغر والشعر ، ويؤخذ بحمرة الوجنات ، وقد يكون محبوبه طفلاً لعوباً تعوّد سفك دماء المحبين ، وكثيراً ما صدّ عنه تبرماً وملالاً ، بينما صد عن غيره دلالاً وهذا من طيب جد العاشق :

كلما صد عن سواي دلالا ... صد عني تبرماً وملاله

ولعل غزله لا يتعدى وصف جمال الحبيب بوجهه وثغره وخده الأسيل وطرفه العليل وقدّ كالقناة طويل ، ويتردد ذكر العاذل في شعره والواشين ، ولكنه لا يصغي لأراجيفهم ، وكثيراً ما حاول أن يفهم عاذليه أن شأنه غير شأنهم ، فهو محب واجد وطلب منهم أن يكفوا عن لومه لفرط بكائه ، فكم من عبرة موهها بقضم بنانه ، فهو سيصم آذانه عن عذلهم وسيبعد الكرى عن عينيه .

يا من يفندني على ابنة وائل ... عني اليك فغير شانك شاني
آليت لا افتق العذول مسامعي ... يوماً ولا خاط الكرى أجفاني

ولكن الذي فجر عبقرية عاطفته فأدرك الخفي من مشاعره ما ابتلي به حبه من فراق دائم ، فما يوشك أن يتم لقاء حتى يعالجه النوى :

وأعجلنا النوى حتى لكدنا ... نودع بعضنا قبل التلاقي

الفراق والحنين :

لا قيمة لشعر المشغري في الحب والغزل لو لم يتحن بالفراق الذي أبعده عن جمود العاطفة ، الى حركة الصورة التي هي تعبير عن حركة اللهيب المتأجج في قلبه ، فأحبابه قد تعلقوا بأذيال الرياح ، وقد فارقوه ولم يتسن له ان يقضي حقوقهم ، أو ينال حقه منهم ، إنه يصف مشاعره تجاههم :

أرأيت ما فعلت يد التفريق ... أعلمت من قتلت بسعي النوق
رحل الخليط وما قضيت حقوقهم ... بنى النفوس وما قضين حقوقي
لا رقّ بعدهم الجمال لناظري ... ان حن قلبي بعدهم لرحيق

وساعات الفراق هي أبداً رهن فؤاده ، فالنوى قد سرق منه غصنه الرطب

حبيبه ، الذي اخذ الغصن عنه لينه ، وفر من يده الحبيب نشوان يميل تحت ثقل الورود :

غصب البين من يدي كل غصن ... سرق الغصن لينه واعتداله
فرّ نشوان من يدي يتكفى ... ثقل الورد غصنه فأماله

هذا الفراق اوشك أن يطوي صفحة المودة بينهما ، ففقد صبر الواجد وأغلق أجفانه على القذى ، وتوجع قلبه من ألم النوى ، فأطبق على القلب الضلوع وبات خيال الحبيب انيس فؤاده الذي يزوره في النوم فيقصر ليله ، ولكنه وإن كان في سَورة الكرى، فإن لقاءه إياه قصير قلق كحسو الطير الماء في الفجر وقد أدركه الصباح فولى قبل أن يبل غليله :

الى الله كم أغضي الجفون على القذى ... وأطوي على القلب الضلوع توجعا
ألا حبذا الطيف الذي قصّر الدجى ... وإن كان لا يلقاك إلا مودعا
ألمّ كحسو الطير صادف منهلا ... فأزعجه داعي الصباح فأسرعا

ويبدو وقد اعتاد الفراق وألم النوى فعدل عن لومه ، فقد يكون الاجتماع أقرب من النوى الى النوى نفسه ، الذي قد يعقبه اجتماع ، بينما يعقب الاجتماع نوى ، وشبه ذلك بالسهام تزداد غلواً في صدور الأعداء وإمعاناً في النيل منهم كلما اقترب رماتها ، والعكس يكون كلما ابتعد هؤلاء الرماة ، ولعلها صورة فريدة لم يسبق لمثلها المشغري وقد خرج من وصفه المتأرجح بين نوى ذاهب وآخر لاحق ، بحكمة أجملَ فيها حاله وكأني به يغالب السلوة لتملكَ ذاته :

كل شمل وإن تجمّع حيناً ... سوف يمنى بفرقة وشتات
لا ألوم النوى فرب اجتماع ... كان أدنى الى نوى وثبات
مثلما زيدت السهام غلواً ... في صدور العدى بقرب الرماة

ولعل اقامة محمد بن علي العاملي بعيداً عن بلده ، وموطن أحبابه ، جعله يتذكر هذا الوطن ، وأولئك الأحباب ، الذين قضى بينهم فترة الشباب ، وزهوة العمر ، بين صبيات ترنو اليه منهن العيون :

أذكرتني معاهـداً وربوعاً   كاد يدمى لذكرهن بنـاني
حيث غصني من الشباب رطيب   وعيون المهـا إليّ روانـي
أطرد النوم عن جفون لشاوى   بحديث أرق من جثماني

ويتذكر لياليه الملونة بمبادرات الحب بعالج السكر مع عشيقه ويعتلآن بالنشوة :

عاطيته حلب العصير وصدنا   عن وجه حاجتنا يد التفريق

وقد يذكر أصدقاءه ولياني أرضعته الكاس جوهراً ، وجيرة فرقت بينهم يد الزمان ، حتى انكر نفسه بعد فراقهم اثر أيام امتلأ فيها شباباً نظراً طهوراً بلا عار مع صبية شرفاء في فترات كأنها بُرَةُ أعراس ، يغشاهم لطيفاً على غير شعور منهم ، مسيطراً عليهم كسيطرة النعاس رفيقاً بهم كدبيب السكر في شاربه بعد أن خرتهم الكاس وولت تتركهم صرعى بلا حراك :

ولا ذكرت الصبا الا وأذكرني   لياليـا أرضعتني درة الكاس
وجيرة لعبت أيدي الزمان بهم   أنكرت من بعدهم نفسي وجلاسي
في صبية كنجوم الليل اكياس   كأن ايامهـم أيام اعراس
أسمو اليهـم سمو النوم للراس   أدب فيهم دبيب السكر في الحاسي

هذا وقد أحاله البين الى شبح بلا ظل ، ونفس لا تدرك ، لولا تنفّس منها يتصاعد ، فنبات الشوق تفحص في فؤاده وترقيه ، وأهبة دموع تعبث بمآقيه :

يرى شبحاً بلا ظل ونفساً   يرددهـا التنفس في التراق

وكأنه قيس يبكي ليلاه في العراق ، فيتذكر ساكني هذا البلد ومرابع لهوه ، فقلب الى العراق يحمله :

الى أهل العراق يحن قلبي   فوا شوقي الى أهـل العراق

الخمرة :

كسائر الموضوعات التي طرق اليها المشغري جلى في الخمرة ، وسبق الجلثين ،

ولقد شد الى وصفها ومجلسها وأوان شربها، دون أن يفصّل النشوة التي تحدثها ، فهو لم يعاقر الخمرة كما يبدو لأنه عالم فقيه . بل عرفها من حديث الناس وقصائد الشعراء ، ولم يبادر الى التجربة ولكنه اقتنع على اثرهـا في نفوس الشاربين ، فأصاب في معرفتها ؛ ولعله بعد الهموم التي نزلت بساحته اثر فراق متتابع طويل أراد أن يخرج من أسى مهيمن بنفسه واقـع حاله ، وتقتت قلبه ، فيرجو من صاحبه أن يوكل الى المدام أمره ، يرجو مقسماً عليه بهذه المدام وبوجهه الجميل :

لا تـذرني على مرارة عيشي   أكل واش ولا قريبة لاح
صاح كلني الى المدام ودعني   والليالي تجول جول القداح

وتصبح الخمرة مصدر السرور ووسيلة يجمل بهـا الدهر الى ابدال عبوسه بانفراج ابتسامته ، فالدهر ضاحك ما لمع القدح ، فالسرور والخمرة يتآلفان عنده :

واستضحكِ الدهرَ قد طال العبوس به   لا يضحك الدهر حتى يضحك القدح

ولكن أية خمرة يرتشف، جلية كحبات ندى على وجنات الورد، أو كدموع العيون ، يقدمها مغن جميل الطلعة ، وتعلو خديه وردة كالدهان ، وهي قبل هذا اسيرة سجن لعام تباطأت ، ولكن متى ينتهي تباطؤها ...؟

هاتها هاتهـا سبية حول   قد توانت ولات حـين توان
في يدي شادن رقيق الحواشي   فوق خديه وردة كالدهـان
هي في خده سبيك نضار   وبفيـه عصارة العقيـان

ولعل اعذب الصور التي ابرز فيها جمال الخمرة هو تشخيصها واطلاق صفات اشراق الفتوة عليها ، المتأتية من لونها، والهرم عجوزاً لقدمها ، وبهذه التناقضات المتضاربة برزت الصورة جلية جميلة ، فكأننا امام رسام ألقى على لوحته لونين متناقضين فاقعين ، فأظهر كل منهما بداعة الآخر ، وأتلفا على تضاربهما في سبيل الجمال ؛ فهذه الخمرة في الكؤوس وكأنها أسفرت عن جسدها ، فهتك الحابي صباها ، وتهادت مفككة الازرار فضمّ لمرآها العاذل ، وغضّ بأنوارها الساطعة

دجى حالك ، وهي فوق هذا عجوز نوارٌ بكرٌ كأنها ذوب تبر :

وكؤوساً كأنما هتكوها ... في صباها بريقة الخمار
خلعت بيلنا العذار ووافت ... في قميص مفكك الأزرار
لو رآها العذول صمّ صداه ... قال ما لي وللعجوز النوار
لا تروي بكر الزمان بقتل ... ان ذوب اللجين غشّ النضار
في سنا الشمس ما علت غناء ... عن ضياء النجوم والأقمار

هذه اللوحة المبدعة للخمرة التي ما توصل الى رسم مثلها من قصروا على الخمرة شعرهم من سابقيه ولا من معاصريه ؛ فقد وصفها النواسي وابن الرومي والاندلسيون ولكنها ظلت في اطار اللون والشكل والحس ، وحدود النشوة ، إنما لم تصبح حية تنبض بالحركة إلا بريشة هذا العاملي المتأنق في لفظه ؛ وهو يريد للخمرة الفجر موعداً على ألحان طائر غريد :

طاب وقت المدام فاشرب عساه ... يا صباحي بطيب وقت الصباح
واسقنيها سقيت في فلق الفجـ ... ـر على نغمة الطيور الفصاح

وتقترح صورة الخمرة بالحب ، وتبدو والغزل مزيجاً مستعذباً ، متداخلاً في وحدة متماسكة ، لا خليطاً متراكماً يتزع لانفصال وحدات كيانه ، فلون الخمرة قد جنّي من الورود أو خدود المرد ، ولونها قبل مزجها كخدي الحبيب ، ولكن ما لونها بعد المزج ؟

هي قبل المزاج في لون خديـ ... ـك وبعد المزاج في لون خدي

ونلاحظ ان الخمرة والحب يتآلفان في شعره فكثيراً ما تتلبس الكأس عنده من المرأة أنوثتها ، بجمال شكلها حتى وأدق المشاعر التي تساور الانثى من حياء شير الرجل ، فيعاملها معاملة المرأة مستعملاً الألفاظ المناسبة .

وارتشفنا من الكؤوس رضابا ... واجتنينا من الثغور عقارا
خندريا لولا حياء ابيها ... خطفت من عيوننا الابصارا

ولعل موقف المشغري من الخمرة انقذ اليها الحياة ، فلبست هي أوصاف

الوان جامدة ، بل مثار حركة ، ولعل العلاقة بين الخمرة والمرأة أمر واضح فهي توري في نفسه مشاعر شبيهة بالانفعال الذي توريه المرأة ، لذا كان تعبير الشاعر عما يعانيه من الخمرة وجهاً من وجوه معاناته لمصيره من اغتباط او تعاسة ؛ لهذا يذهب البعض قائلين (ان الأدب الخمري هو أدب وجودي يبين قلق الانسان وحيرته بين حقائق المصير ، لكن لاينفذ منها الى يقين دائم فيتردّى في المجون) (١) .

ولكن صاحبنا لم يبالغ في المعاناة بل كانت ملامسة فكرية ، ارتفعت عن مجالات الحس ، فكان في شعره الخمري مثالي الموضوع والصورة .

الطبيعة :

ليس شعر الطبيعة لديه وصفاً جامداً يتضاءل ، أمام جمال مفاتن الطبيعة ، بل هو ارتقاء لهذه الطبيعة في سبيل مثالي ، شأن عمل كل فنان مبدع ، فالموضوع لدى شاعرنا يهتز تأثراً وانفعالاً ، والطبيعة حية لاتحرك العاطفة فقط بجمالها بل بالحركة العفوية المنبعثة منها ، ويبدو وقد أودعها المشغري نفساً وحياة ؛ ولعل الخمرة لاتلذ له الا في وسط من طبيعة جميلة ، وربوع غناء كأنه ينقلنا الى جنان عدن التي وُعد بها المتقون ، فترى الأغصان والأشجار تتمايل وتتعاطف تعاطف الحور العين على الولدان المخلدين ، والورق شاديات عليها من القرآن بالآيات ترددهن . واي شعور يساور الغصون اننا نحسبها بشراً بين يدي المشغري تتثنى وتبتسم :

بين ورق كأنهن قيان ... ركبت في حلوقهن مثاني
وغصون كأنهنّ نشاوى ... يتبسمن في وجوه الحان

وتبدو الحركة والحياة قد داخلت الطبيعة ، فبدا النسيم يصح ويعتل على

---

١) ايليا حاوي (فن الشعر الخمري) صفحة ٧ .

يرده والتهاب حشا الشارب ، وغناء البلابل يرقص بالدمع عينيه ، والذي عطفه على هذا الجنان قدود مياسة خلعت على الاغصان من لينها . فكيف استقبلتهم ؟

وشميم الصبا يصح ويعتل على برده وحر جناني
يتلقاني الاقاح ببشــر وغصون النقا على حرّان

ويعين الشغري في بث الحياة ، بالطبيعة التي استعارت من الانسان ليس زهوه وجماله واستبشاره ، بل هي قد سرقت من الانسان عواطف التماسه :

والأيك ضاحية وشامخة والبان يستدعي ويلتمس

وقد يكون الربيع أوفى مشاهد الطبيعة والجمال ، لذا وصفه الشغري .

هذا وان ذكر الطبيعة والأغصان والورود أبداً في شعره ، وهو وإن تغزل اختلس من الطبيعة أوصاف حبيبه ، فخده ورد أحمر ، وطوله كالقناة ، وثغره أقحوان ، وجفونه من المها وجيده . . .

لك قد القنا وثغر الأقاحي وجفون المها وجيد الغزاله

ولكن الذي هو اجمل من هذا كله هو ان الشغري صاحب نهج جديد ، او فكرة جديدة ، فكرة تزوان الأشياء في الطبيعة ، والطبيعة في الأشياء ، ولعل هذا هو سبب تداخل اوصافه او الانزلاقة الخاطفة الى وصف آخر دون ان تحس بوجود فصل ، او عارضة انتقال ، وكأننا ننتهي معه الى وجود جوهر واحد لهذه الموجودات تلبست اشكالاً مختلفة في الظاهر :

عطفتني على الرياض قدود خلعت لينها على الأغصان

ويقول :

رب ليل قصرته بغزال حل من عقد زلفه فأطاله

فهذه الوحدة القائمة بين الطبيعة وبين المحبوب ، هي التي تجعلنا نقول بوجود مبدأ تزوان الأشياء وتمازجها في شعر الشغري ، فالطبيعة والحبيب والخمرة في عالم الجمال واحدة ، الوانها واحدة التأثير على نفسه ، يحياها بمشاعر متقاربة يقف

منها موقف المتذوق ، تتحرك معه بحركة عاطفته ، وتتجاوب ونفسه ، فتبدو كل هذه الموضوعات جميلة لما أضفى عليها من حياة .

المشيب :

من بياض شعره كان بياض صفحة شعره ، وكما كانت الخمرة ممزوجة بالحب ، والطبيعة تختلط بالحب ، كذلك في شعره بالشيب متأثر بحبه ذاك . ولقد كان موضوع الشيب جديداً في شعر العامليين ، ولا تعثر عليه في شعر العرب عامة إلا شذرات منثورة ، تجمعت حفنات منها لدى ابن الرومي ؛ ولقد كان الشغري في صباه ينزع الى اللهو طليقاً ، فكف عن اللذة الشيبُ يده ، ولكن نفسه تنازعه أمر الاذعان لهذه النهاية ، فتدعوه الى الدفاع عن الشيب ولكن ما هو هذا الدفاع ؟

وكنت اذا نزعت الى هنات جريت مع الصبا طلق الرياح
فقلدني المشيب على عذاري لجاماً كفّ رأسي عن جماحي
وقلت لعاذلي ابو فاني وهبت اليوم سمعي للواحي
وما حسن العيون بلا بياض وما ليل السقام بلا صباح ؟
وما ضيف أتاك بلا احتشام وأنت من الرحيل على جناح

ولقد كان الحب نقطة الثقل في اثرة أساه على شبابه وتأسيه من مشيبه ، فقد أقذى هذا الشيب عيون الغانيات لأنهن تعودن رؤية الشباب الغض ، وفرق بين الأصحاب ، فلقد كان هذا الشيب بالنسبة لحبه أقوى من دعاء مستجاب ، احدث القطيعة ؛ هذا الشيب الذي صعق في شبابه شعراً اسود حالكاً كبردة الغراب ؛ فماذا فعل له :

ألبسته ثوب الشبا ب فكان اكذب من سراب
فاذا خضبت بياضه ضحك المشيب على خضابي؟

ولقد بات الشيب خصماً له كالعاذل ، كما بات واقعاً في دامين داء ظاهر ، وداء

وخيل ما هما ؟

آه من دامين يار ودخيل ... وخصيمين مشيب وعذول

المدح :

جمال التعبير في اخراج الصورة حية متحركة،صفات غطت على شعر المشغري في مواضيعه الشتى ؛ والمدح كسائر هذه المواضيع اخذ من شاعرية محمد تلك الصفات ، ولقد كان مديحه يشبه الى حد بعيد مدائح القدامى والسابقين ، فيذكر الممدوح النصب الذي أصابه ، والمسافة التي قطعها ، حتى ادرك حضرته ، فكأنه يحج اليه ، ولكنه ماذا يريد منه وتوقه المتعبة ؟

حملت اليك آمالاً ثقالا ... ومن يرجو نوالك لا يضام
وفي البيت العتيق حططت رحلي ... فان محلك البيت الحرام

ويبدو أن ممدوحه وهو احمد بن معصوم (١) كان ملجأ هذا الشاعر في غربته بعد أن نال منه الزمان ، فقصده ليزيل همومه بمن تحلو به الايام وتبسم الدنيا :

فررت الى جنابك من زمان ... براني مثلما تبرى السهام
فلا زالت بك الايام تحلو ... كأنك في فم الدنيا ابتسام

ونحن لا نرى المدح فناً كالحب والخمرة والحنين ، يلجأ اليها في كل حين ، فكأنه قد خصه بشخص واحد ربطت بينهما الصداقة والمودة ، فتردد ذكر اسمه في كل حين ، فكان اكثار هذا المدح تفصيلاً لصفات هذا الرجل اكثر منه استيعاباً لصفات الآخرين ، ولقد كان تعداداً للخلال اكثر منه تجربة وعطفاً عميقاً ، فإنه :

لا يحسن الشعر إلا في مدائحه ... كالدر أحسن ما يبدو على الجيد

(١) احمد بن معصوم أحد أبناء القرن الحادي عشر ﻫ ١٧ م عاش في حيدرآباد وهو والد علي بن معصوم صاحب كتاب سلافة العصر ، وقد كان ابن معصوم أحد المقربين الى ملك حيدرآباد زمانه .

الاسلوب :

الصور الجميلة ، والعاطفة الرقيقة ، وفكراته السامية ، لا بد وأن تلبس ثوباً قشيباً يجانس الصور ويبرز العاطفة ويوازي في سموه الفكرة ، فالاسلوب والموضوع يتبادلان التأثير والتأثر ، ليأتلفا في اخراج متناسق التركيب ، والشعر يجري في دم المشغري ، كأنه يعيش في كل دقيقة من حياته حباً مكلوماً ، يوسع النوى جرحه على الايام ، فهو يغني هذا الحب وهذا الفراق ، ويخرج شعره كالماء عذوبة ورقة ، وكالرياض بقعاً وألواناً ، فإذا اللفظة كخمرة معتقة من دنان الفكر، ويبدو وقد طارد اللفظة الجميلة ، وموسيقى الكلمات ، واللحن الشرود ، وقد كثر الطباق في شعره لا قصد الصنعة ، وانما هي تبدو ضرورية في طبعه لأنها تزيد في رسم الصورة وضوحاً وحياة :

والنوم يبعث بالجفون وكلما ... رق النسيم قست قلوب النوق

وقوله :

ولم أر مثل الغيد أعصى على الهوى ... ولا مثل قلبي للصبابة أطوعا

وهو يعتمد استعمال الجناس أحياناً ويكون جناساً غير كامل :

يا عليل الجفون علت قلبي ... زاد جفنيك علة وذبالة

وهو يسعى وراء الكلمة الجميلة يختارها لتؤدي الفكرة اجمل ، فهو ينتقي لأجفانه كلمة الرقص بالبكاء وأي تناقض هنا . (رقّص الدمع بالبكا أجفاني) أو يريد لعينيه المناضلة،بل لقلبه تجاه عيني الحبيب (ناضلته باللحظ حتى ادارمى)- أو هو يرصف كلمات متناقضة تتالى جميلة في هذا التضارب المحبب : قال ما لي وللعجوز النوار . وهو يميل الى استعمال تعابير قرآنية فخد الحبيب (وردة كالدهان) والفاظ فردوسية كالحور العين والولدان (عطفت حورها على الولدان).

وقد يستعمل كلمات بدوية غريبة كقوله : (يوم الفراق كرعت من راووق)

أو يستعمل كلمات فارسية فيسمي الربيع بالبهار وهي كلمة فارسية :

وزمان البهار لو عاد فيه ... ميسان الشباب عود البهار

وهو وإن كان شاعراً وصّافاً فالوصف عنده لم يكن مادياً حسياً، وان كان فهو لا يعتمد الوصف المباشر، بل يعمد الى الكناية، ويستعمل المجاز، ويدعوك الى التفكير والوقوف لحظة حتى يدرك القارىء غرضه، فعليك انت استخراج الالوان هنا، للخمرة التي اخذت من لونه ولون حبيبه :

هي قبل المزاج في لون خديـ ـك وبعد المزاج في لون خدي

وهو يأخذ بالتشبيه وسائر ضروب البيان التي حفل بها شعره، فهو لا يعبر مباشرة عن الحمرة فيقول انها معتقة بل هي سبية حول، ولا يريد أن يعبر عن جمال خديه وحمرتها فيقول : سامح الله من دمي وجنتيه .

وهو في الكثير الكثير من شعره يسعى الى التشخيص والحركة والحياة، ينفخ في المواضيع من عاطفته فتبدو متحركة، كائناً حياً يسعى، وعلى هذا يبدو المشغري شاعراً أجاد في مواضيعه، كما أجاد في اخراج هذا الشعر :

اقوال النقاد في شعره :

قال صاحب السلافة : « انه لم يسمع بعد شعر مهيار والرضي، احسن من شعره المشرق الوضي، ان ذكر الانسجام فهو غيثه الصيّب، او السهولة فهو منهجها »(١) .

وقال المحبي : « محمد بن علي بن محمود العاملي الاديب الشاعر البليغ، الوحيد في مقاصده، البعيد الغاية في ميدانه »(٢) .

وقال معاصره الحر العاملي : « محمد بن علي العاملي كان فاضلاً ماهراً محققاً مدققاً اديباً شاعراً فائقاً على أكثر معاصريه في العربية وغيرها، وله شعر جيد ومعان غريبة »(٣) .

وجاء في كتاب ولاية بيروت : « وقد اشتهر في هذا الدور محمد المشغري،

١) السلافة ص ٣٢٤ .
٢) خلاصة الاثر ٤/٦٥ .
٣) امل الآمل ص ٢٩ .

ويقال انه اعظم شاعر اشتهر في هذا الدور وإن شيئاً من اشعاره منثور في السلافة وأكثر شعره غزل ونسيب »(١) .

وما زال المشغري مجهولاً في شعره وديوانه، وترجمته ماتزال غامضة لم تكشف عنها مؤلفات معاصريه، او لاحقيه، ولعل كشفها والبحث عن ديوانه يلقي ضوءاً كبيراً على هذا الشاعر وعلى شعره .

وهو شأن كل المفكرين من العامليين، احد دفائن الفكر والشعر في لبنان، لا يحس بوجوده إلا ورقات صفر، تنزل على غير اكتراث في مكتبات ألمّ بها النسيان، وتاريخنا عنها ساهٍ ذاهل، كأنها ليست حبات جوهر في عقد العبقرية في لبنان .



١) ولاية بيروت القسم الجنوبي ص ٣١٨ .

الفصل الخامس

دور الحكومات الاقطاعية ومحاولات الاستقلال

- مقومات الحركة وخصائصها في هذا الدور .
- مظاهرها :

الفقه والتفسير واللغة – التاريخ والسير المجاميع .

- النشاط الادبي :

فنونه .

الشعر العامي والازجال الشعبية .

نشاط المرأة في الحركة الادبية .

دور الحكومات الإقطاعية ومحاولات الاستقلال

العرض التاريخي :

يبدأ هذا العهد منذ أواخر القرن الحادي عشر الهجري ، ويمتد حتى نهاية القرن الثالث عشر (أي من أواسط القرن ١٧ م حتى أواخر القرن ١٩م) .

ولعل أبرز ما في هذه الفترة بالنسبة لجبل عامل ، هو قيام حكومات اقطاعية في ربوعه ، يتولاها زعماء من ابناء هذا الجبل ، وقد كان العامليون من قبل خاضعين لحكام الشوف عهود المعنيين .

وليس بالامكان ضبط التاريخ الذي برزت فيه هذه الحكومات، انما نستطيع ان نعتبر عام (١٠٧٠هـ - ١٦٦٠ م) منطلق عهد جديد يطل على جبل عامل ، فقد أصبحت صيدا مركز الولاية بعد أن كانت في دمشق ، وأصبح جبل عامل تابعاً لولاية صيدا ، منفصلاً عن الشوف ، يشارك زعماؤه والشوفيون في مراجعة الوالي [١] .

ثم تبرز في العقد الأول من القرن الثاني عشر محاولة استقلالية يتزعمها مشرف بن علي الصغير ، ويعلن العصيان على الدولة ، ويخوض العامليون معارك عديدة مختلفة ضد والي صيدا والشهابيين ، وتدوم الوقائع تتكرر على هذه الحال مدة نصف قرن من الزمن ، وتنتهي بانتصارهم واستقلالهم . ولا يطل عام (١١٦٤ هـ - ١٧٥١ م) الا ويكون العامليون قد رمموا القلاع [٢] ، وقسموا المقاطعات بين

١) جبل عامل في التاريخ ٢/٥٣ - ٥٤ . ٢) العرفان ٢٦/٧٤٣ .

زعمائهم ، ليخوضوا من جديد غمار حروب استقلالية ضد ظاهر العمر ، وضد الشهابيين ، لفترة طويلة من الزمن يبرز خلالها زعيمان عامليان هما الشيخ علي الفارس الصعبي (١١٨٥ هـ - ١٧٧١ م) والشيخ ناصيف النصار (١١٩٥ هـ - ١٧٨٦ م) ويساهمون في كل المعارك والثورات القائمة ضد الدولة العثمانية ، ويرهبون من حولهم حتى (كان الحكام في صيدا يخشون المتاولة في المنطقة كما كان يقدر قوتهم حكام جبل لبنان) [١] . الى أن يأتي أحمد باشا الجزار ، ويقضي على ناصيف النصار ، فتقوم ضده حروب عصابات سنة (١١٩٨ هـ - ١٧٨٤ م) وتعود البلاد الى سابق سيرتها من الاستقلال بعد وفاته (١٢١٩هـ - ١٨٠٤ م) .

ثم يحاول الشهابيون واعوانهم المصريون انتزاع حرية العامليين بعد أن دخلوا الجبل العاملي ، فيثور حسين بك الشبيب الصعبي سنة (١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م) ، وحمد البيك سنة ١٨٤٠ م ، ويصبح هذا الاخير الحاكم العام للبلاد ، ويكسب لبلده مجداً عريقاً ، وبوفاته يخلفه ابن اخيه علي الاسعد منذ (١٢٦٩ هـ - ١٨٥٢ م) حتى وفاته (١٢٨٢ هـ - ١٨٦٢) وتقوم خلافات بين أبناء علي الصغير حول الحكم ، فيلحق الجبل مباشرة بالحكم العثماني ، ويقضى على الاستقلال في جبل عامل .

وبالنسبة للحركة الادبية والفكرية ، فقد استطال هذا العهد حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري ، ويعتبر افتتاح أول مدرسة على الطريقة الحديثة (١٣٠٠هـ - ١٨٨٣ م) نهاية لهذا العهد . واعتماداً على هذا الظرف التاريخي يمكننا تسمية هذا الدور بدور الحكومات الاقطاعية ومحاولات الاستقلال . ومعنى الاستقلال في هذا العهد (ان ساستنا استطاعوا اثناء هذه الفوضى ، ان يدافعوا عن كيانهم في كثير من المواقف السلبية ، بما تهيأ لهم من تيقظ روح النجدة والحمية في امتهم المضطهدة ، وان ينقذوا بلادهم وأعراضهم من خطر القتل ، وما الى ذلك من أنواع العسف والتدمير) [٢] .

١) جورج يني مجلة المقتطف ٢٨/٣١٨ . ٢) علي الزين من أمالي الوحدة ص ١٠ .

مقومات الحركة الفكرية في هذا الدور :

ان الركائز التي قام عليها بناء النشاط الفكري والحركة الأدبية خلال هذا الدور لاتعدو ثلاثة ، اثنان اعتبرا عماد الحركة في العهد الماضي وهما المدارس القائمة في الجبل ، والرحلة العلمية الى مواطن المعرفة ، وآخر جديد طارىء على هذا العهد وهو اسهام السياسيين .

المدارس والرحلة العلمية :

ان عدد المدارس التي قام أساسها في هذا الدور يفوق عددها في الدور الماضي ، فلقد انتشرت في قرى جبل عامل مدارس كثيرة كانت تسهل للطلبة الالمام بالدروس التحضيرية لجامعة النجف ، فتخفف كثيراً من مشاق الهجرة الى العراق وايران ، وقامت هذه المدارس في جويا وشقرا في نهاية القرن الثاني عشر ، والكوثرية وجبع ، وحنويه وبنت جبيل والنميرية خلال القرن الثالث عشر هجري ، بينا أكمل طلبتها علومهم وتعمقوا في دراستهم عندما هاجروا الى العراق وايران [1] .

اسهام السياسة :

ان العامل الجديد في اساس الحركة الفكرية ، والذي يميز هذا الدور عن سابقه هو اسهام رجال الحكم بنشر المعارف ، واحتضان المدارس ، واعانة القائمين عليها ، والتردد اليها ، حتى أن حمد البيك كان طالباً في مدرسة الكوثرية [2] ، وان الحياة العلمية والأدبية قد ازدهرت أثناء حكمه ، وطيلة حياته ، فأصبح بلاطه قبلة الشعراء الوافدين عليه ، ليس من أنحاء لبنان فقط بل من بلاد عربية عديدة ، ومجاورة ، كالعراق وفلسطين والشام [3] ؛

---

١) أعيان الشيعة ١٠٢/٢٨ .
٢) أعيان الشيعة ١٠٢/٢٨ .
٣) جبل عامل في التاريخ ١٩١/٢ – ٢٠٣ .

هذا عدا عن الاسهام الفعلي والمباشر من بعض الحكام كعلي الأسعد [1] وولده شبيب باشا اللذان باشرا الانتاج الادبي والفكري .

وهكذا يبدو العامل السياسي ذا أثر مهم في الحركة ، يفوق اثر المدارس والرحلة العلمية ، لأنه اسهم مباشرة بما اجزله من عطاء وقدم من الهبات للعلماء والأدباء ، حتى ان الشاعر ابراهيم الحاريصي قصر شعره على مدح السياسيين منقطعاً الى علي الصغير ، وناصيف النصار ، ولقد أتى نتاج هذا العهد متأثراً بالسياسة ، منطبعاً ادبه بأجوائها .

خصائص الحركة الفكرية في هذا الدور :

تتميز الحركة الفكرية في هذا الدور بثلاث خصائص هي :

١) الحركة الفكرية في هذا الدور ذات طابع ديني ، فالقائمون عليها جماعات من رجال الدين ، وضعوا لها بثقافتهم ومعارفهم حدودها ، والمدارس المنتشرة في ربوع الجبل ، إنما هي في البداية منازل للتدريس الديني ، والتثقيف الفقهي الذي هو الركيزة الأولى في ثقافة الطلاب ، وما عداه من علوم يصيب الدرجة الثانية في الاهتمام . وتبرز هذه الميزة في المؤلفات الفقهية والمدح الديني .

٢) ولكن الحركة الفكرية متأثرة بالوضع السياسي ، والحالة الاجتماعية ، من استعداد دائم للحروب ، وكثرة الوقائع ، واثر الزعماء السياسيين ، بالتفاف الأدباء والعلماء حولهم ، وهذا ما حدا الى قيام مصنفات دونت الوقائع والأحداث ونشوء أدب سياسي .

٣) وتبدو هذه الحركة متسعة شاملة نزلت الى صفوف العامة ، ولم تعش فقط في رحاب العلماء ، الطبقة العليا من الشعب ، فقد اخذت بها ربات الخدور ، وشارك الجمهور في أدبه العامي ، وازجاله الشعبية ، وبرزت حركة أدبية في

---

١) هو علي بن اسعد بن محمد بن محمود بن نصار ولد سنة (١٢٣٧ هـ – ١٨٢٢ م) وحكم من ١٢٦٩ حتى (١٢٨١ هـ – ١٨٦٢م) . كان شاعراً أديباً سكن قلعة تبنين وجعلها مركز حكمه وله قصائد يفتخر فيها بنفسه ومجده ، توفي سنة (١٢٨٢ هـ – ١٨٦٢ م) .

صفوف النساء ، وباستجلائنا لمظاهر هذه الحركة وإمعاننا في تفصيلها تزداد هذه الخصائص وضوحاً .

مظاهر الحركة الفكرية والادبية :

لعل تصويرنا للنشاط العلمي خلال هذا العهد ، وابرازنا لمظاهره ، يبدو باهتاً امام محاولة ابراهيم يحيى ، الكبير في شعراء هذا الدور (١٢١٤ هـ – ١٧٩٩ م) لتصوير واقع الحياة الفكرية في جبل عامل . فقد جاء عمله هذا وليد المعايشة ومشاهدة الواقع :

او عالم حبر اذا باحثته	حشد المحيط عليك بالغمرات
او شاعر ذرب اللسان تخاله	فحا ترعرع في الزمان العاتي
طبا بكل غريبة وحشية	نشأت مع الآرام في الفلوات
ويصوغ كل بديعة حضرية	مصقولة الألفاظ كالمرآة
ان قال بذ القائلين وقصروا	عن درك سباق الى الغايات

ان الازدهار الذي أصابته الحياة الفكرية والعلمية ، والميزات التي تحلت بها ، تبدو واضحة في النتاج ، الذي خلفه هذا العصر ، والذي جلى العامليون فيه خلال هذه الفترة ، بالفقه والتفسير واللغة ، وازدحم عصرهم بالمؤلفات التاريخية ، أما النشاط الأدبي فقد رأى نور فنون جديدة ، أدخلتها السياسة واسهم بها الشعب ، وشاركت فيه المرأة ، فكان لنا شعر سياسي ، وأزجال شعبية ، وانتاج ادبي بأقلام النساء .

أ – الفقه والتفسير واللغة :

اشتغل علماؤنا في هذا العهد كسابقه بالفقه والاصول واللغة كأساس في نشاطهم العلمي ، ولكنهم لم يأخذوا في دراستهم هذه عن غيرهم من مؤلفي الامامية فقط ، بل لم يكونوا عالة عليهم ، اذ قدموا كما فعل سابقوهم . نتاجاً فقهياً وأدبياً ، ما زال حتى أيامنا هذه متدارساً في الجامعات الاسلامية ،

ومصنفات اعلام تومي الى بالغ جهودهم ؛ وأشهرها :

١ – مفتاح الكرامة :

موسوعة فقهية في المذهب الجعفري ، للعلامة محمد الجواد[1] الحسيني العاملي ، جاءت في اثنين وثلاثين مجلداً مخطوطاً ، طبع اغلبها نسيبه السيد محسن الامين ، بعد أن ضمها الى بعضها بثمانية مجلدات ضخمة ، وبقي منها مخطوط يبلغ لو طبع مجلدين .

ولقد استوعب هذا الكتاب نقل أقوال الفقهاء بصورة واسعة ، متصفاً بالدقة في تحقيق المسائل ، واستخراج الأحكام الشرعية ، من أدلتها ، فبات مرجعاً مهماً في دراسة الفقه الجعفري ؛ وقد كان غرضه تسهيل الامر على العلماء ودارسي الفقه بمراجعة كتابه بدلاً من الرجوع الى كتب كثيرة ، ولقد أسمى العاملي كتابه هذا (مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة) . وكتاب سابقه العلامة[2] الحلي هو كناية عن مجموعة فتاوى في اعمال المسلم المكلف ، أما عمل علامتنا فقد كان ارجاع هذه الفتاوى بأسرها الى الدليل الشرعي ، لذا كان أوسع من عمل صاحبه فتتطلب جهداً كبيراً .

٢ – الوجيز في تفسير القرآن العزيز :

مؤلف في تفسير القرآن ، كان من المخطوطات التي سعى الى ضبطها وتحقيقها

---

١) ولد جواد بن محمد بن محمد بن حيدر بن ابراهيم الحسيني العاملي في شقراء سنة (١١٦٤هـ – ١٧٥١ م) ودرس فيها ثم سافر الى العراق وحل في كربلاء ، ودرس على البهبهاني وفي النجف على بحر العلوم وترك مؤلفات دينية منها شروح وحواشي ومتون ومنظومات في مواضيع فقهية وتوشك مؤلفاته أن تبلغ عشرين كتاباً موسوعاً ،توفي في النجف سنة (١٢٦٦هـ – ١٨٥٠ م) .

٢) العلامة الحلي هو الحسن بن سديد الدين يوسف بن علي بن المطهر الحلي . ولد في الحلة سنة (٦٤٨ هـ – ١٢٧١ م) ودرس على المحققين الحلي والطوسي ، ثم أصبح مرجعاً كبيراً للشيعة الامامية وقد كان سبباً في تحويل السلطان الفارسي محمد خدابنده الى المذهب الامامي فتبعه الايرانيون ، توفي العلامة الحلي سنة (٧٢٦ هـ – ١٣٢٥ م) ودفن بالنجف الأشرف .

احد رجال الفقه في العراق (عبد الرزاق محي الدين) ، بمساعدة من المرجع الأكبر للشيعة الامامية ، نظراً لقيمة هذا المصنف وميزته في التفسير ، فمؤلفه علي بن الحسين بن محي الدين الحارثي العاملي [1] ، قد بعد بمصنفه هذا عن طريقة المفسرين القدماء ، من تكلف وصناعة في تفسير النص ، وقد ذكر بامانة العالم المحقق آراء سابقيه ، ثم عرض رأيه الخاص مفسراً الآيات ، غير متبسط في ناحية مغفلاً ناحية ثانية ، معتمداً على الايجاز في التعبير ، منزلاً كل كلمة في موضعها وبذا حقت تسميته بالوجيز ، وقد انتهى مؤلفه من تحبيره عام (١١١٨ هـ) وكان في جامعة النجف الأشرف وطبع هذا الكتاب لأول مرة عام (١٣٧٣ هـ – ١٩٥٣ م) .

٣ – محل القلائد في شرح الشواهد :

مؤلف جليل في علوم اللغة ، من نحو وصرف ، وقد جاء شرحاً لشواهد السيوطي ، وابن الناظم ، على الفية بن مالك وشرح القطر لابن هشام ، معتمداً على شواهد العين وشواهد محمد بن علي الموسوي العاملي (١٠٥٧هـ – ١٦٤٩ م) على الفية بن مالك ، ولهذا جاءت تسمية هذا الكتاب بشرح الشواهد وقد كان مؤلفه حيدر العاملي [2] ، يبدي الكثير من آرائه ، مبتدعاً لا مقلداً ، يعمل شخصيته بالنظر في الآراء ، مقابلاً بينها ، ومفضلاً بعضها على البعض الآخر ، ومدلياً بدلوه بين الدلاء ، بأسلوب يبدي عن روح علمية ، تأنف العجب بالنفس ،

١) ولد علي بن الحسين بن محي الدين سنة (١٠٧٠ هـ – ١٦٦٠ م) وقد أقام في العراق وايران وكانت أول مؤلفاته سنة (١٠٩٠ هـ – ١٦٨٠ م) وتوفي حوالي سنة (١١٦٨ – ١٧٧٥ م) وترك مؤلفات عديدة في المنطق والفقه والفلك وشروحات على مؤلفات فقهية . منها الافادة من الصلوات اليومية وارجوزة في أصول الفقه وتحفة المبتدي في المنطق .

٢) هو حيدر بن محمد بن حسن نور الدين الموسوي العاملي ،ولد سنة (١١٤٧ هـ – ١٧٣٥ م) في النبطية الفوقا سنة (١١٨٧ هـ – ١٦٧٣ م) وقد ألف كتابه هذا عندما هاجر الى العراق وفي طريقه منها الى اصفهان ، وله غير هذا الكتاب عدد من المؤلفات كتاج الشيب وتحليل الغريب ونخبة الطلبة .

وتحوي شمائل الأدب [1] . وما زال هذا الكتاب مخطوطاً شأن الكثير من دراري مصنفات العامليين في هذا العهد وقبله ، وقد فرغ منه مؤلفه سنة (١١٧٣ هـ – ١٧٥٩ م) وهو في ريعان الشباب .

ب – التاريخ والسير والمجاميع :

ان الوقائع المشرفة ، والمعارك التي زينت جبين العامليين بالنصر ، مالت برجال العلم ناحية التاريخ ، فدونوا الاحداث اعتزازاً بالماضي وفخراً ، وفي هذا العهد زال عن ارضهم اذلال الحاكم ، وهجرت نفوسهم رتابة الايام ، التي ملأت حياتهم في العهود السابقة ، فتعددت المؤلفات التاريخية ، وكثر المشتغلون في هذا المجال ، حتى ان بعضهم تعرض لتدوين الاحداث سنة بعد سنة ، كما فعل حيدر رضا الركيني ، وكثرة المؤلفات القت الضوء على تاريخنا خلال هذا العهد ، بينا ترانا نسبح في غموض مسيطر اذا ما حاولنا استجلاء تاريخ العهود الماضية للجبل ، ولعل ضآلة العامليين في التاريخ السابق ، وعدم التعرض لذكرهم مرده الى عدم تكون الشخصية العاملية من الناحية السياسية ، وكذلك سائر لبنان ، بينما نرى هذا الوجود قد برز كائناً سوياً من الناحية العلمية فأوحى للحر العاملي أن يؤلف كتابه امل الآمل ، الذي كان تاريخ رجال ، فلعله وجد الاعتزاز بماضي العامليين العلمي والفكري ، وهو ما يعوض عن النقص المتأتي من وجودهم السياسي الباهت . ومن ابرز المؤلفات التاريخية في هذا العهد :

١) جبل عامل في قرنين :

كتاب صغير ، يسرد الاحداث والوقائع ، وأهم ما جرى في جبل عامل ، من عوارض اقتصادية ، ووفيات الاعلام ، وبناء القلاع ، وغارات الأعداء ، والمعارك وأسماء قادتها ، والولاة وتاريخ ولايتهم ، واضعاً امام كل من هذه الامور تاريخه

١) محمد حسين الزين العرفان ٤١٤/٣٧ .

ومكانه ، بأسلوب بسيط ، وبوجز في سرده غير مفصل ودون تحليل .

يبدأ تاريخه بوقعة النصار (١٠٤٨هـ - ١٦٣٩م) وينتهي باخراج ابراهيم باشا من البلاد (١٢٥٦ هـ - ١٨٤٠ م) . ولقد نشر هذا الكتاب على صفحات مجلة العرفان[١]، نقلاً عن مخطوطة تختلف شيئاً ما عن مخطوطات اخرى، في مكتبات جبل عامل الخاصة، والجدير بالذكر أن مؤلف هذا الكتاب ليس هو علي السبيتي، بل هو الاستاذ علي مروه ، وهذا ما صرح به السبيتي نفسه في آخر الكتاب (تم ما عثرنا عليه من مجموعة المرحوم المقدس استاذنا الشيخ علي مروه[٢]) ، وعلى هذا يكون للسبيتي فضل النسخ والكتابة .

٢ - جبل عامل في قرن :

يشبه هذا الكتاب في طريقة عرضه الاحداث سابقه (جبل عامل في قرنين) ولقد سرد مؤلفه حيدر رضا الركيني[٣] هذه الاحداث بلغة تشوبها العامية احيانا كثيرة ، تدل على ضحالة ثقافة المؤلف ، ويبدو الكتاب كتقويم لما جرى في العام الواحد من احداث سياسية ، ومعارك او وفيات وغلاء وزلازل وقدوم الولاة ، وقد يتعرض للأعراس ولأموره الخاصة ، وما يجري عليه ، فاذا ما انتهى من مهمات عام ، انتقل الى عام آخر ، ويعتمد هذه الطريقة منذ تاريخ حوادث (١٦٦٣ هـ - ١٧٥٠ م) حتى سنة (١٢٤٧ هـ - ١٨٢١ م) .

ويبدو أن الركيني لم يؤلف كتابه دفعة واحدة ، بل استغرق تأليفه مدة عمره ، وأكمله ولده بعد وفاته ، فكأنه كان يعرض للأحداث المهمة ، أو غير المهمة ، التي تمر به أو يسمعها ، أو انها حدثت وهو على قيد الحياة ، وقد بلغ به حب التاريخ أن يعين اليوم الذي بدأ به الشهر القمري .

١) العرفان مجلد ٥ ج ٢١/١ - ٢٥ . ٢) جبل عامل في التاريخ ٢/٤٤ .

٣) ولد حيدر رضا الركيني سنة (١١٢٣هـ - ١٧١١م) وتوفي عن ٦٥ عاماً سنة ١١٩٢هـ ولعله من قرية اركي العاملية وقد أكمل ولده على هذا الكتاب وأنه عام (١٢٤٧هـ - ١٨٣٢م).

٣) الجوهر المجرد :

يشتمل هذا الكتاب على شرح قصيدة لعلي الاسعد ، آخر حكام جبل عامل في عهود الاستقلال، وقد جاءت هذه القصيدة بمائة وخمسة وعشرين بيتاً ومطلعها:

خليلي ما هذا الجفا والتقاطع وماذا التنائي والدموع هوامع

وتحوي هذه القصيدة على ذكر وقائع العامليين ومعاركهم ، بقيادة آل الاسعد ، وتشير الى انتصاراتهم ومفاخرهم، وقد شرحها الشيخ علي السبيتي[١]، متعرضاً لتفاصيل الوقائع فيها ، معلقاً على أسماء الاعلام ، فغدا كتابه مشتملاً على شطر من تاريخ آل علي الصغير وتاريخ جبل عامل وتراجم العلماء والاعيان . وأما اسم الكتاب بكامله (فهو الجوهر المجرد في شرح قصيدة علي الاسعد) . وقد نقل عن هذا الكتاب شبيب باشا الاسعد في ديوانه ومحمد جابر صفا لتاريخه[٢].

٤) سوق المعادن :

مجموع ادبي يشبه الكشكول الى حد بعيد ، ولكنه تعرض فيه للتاريخ ، موردا كثيراً من الوقائع ، وأهم الاحداث لدى العامليين ، كما تضمن شتاتاً من المعارف ؛ وهو ينم عن ثقافة مؤلفه العلامة محمد علي عز الدين[٣] ، التي ملأها التاريخ ، حتى ان شعره بات يتضمن لمحات تاريخية، ومن هذا قصيدته التي نظمها عام (١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧م) في ملوك العثمانيين ، ومنها :

عبد الحميد بعده قاسى الكد لم يبق مالاً للورى ولا ولد

١) السبيتي كبير بين البارزين من أعلام هذا الدور كان فقيهاً ونحوياً وشاعراً وكاتباً ومؤرخاً ، ولد في قرية كفره قرب صور سنة (١٢٣٦ هـ - ١٨٢١ م) درس في النميرية وجبع ثم اشتغل في الديوان عند آل الأسعد ودرس في المدرسة الرشيدية في صور ، وهو شاعر تعاطى المدح السياسي ، توفي سنة (١٣٠٣ هـ - ١٨٨٦ م) .

٢) نشر في العرفان مجلد ٢٦ و ٢٧ .

٣) محمد علي عز الدين ولد في كفرة ودرس في مدرسة حداثا احدى قرى جبل عامل وفي النميرية وجبع والعراق كان فقيهاً وشاعراً كبيراً ، توفي سنة (١٣٠١ هـ - ١٨٨٤ م) .

ثلاث املاك تتالوا في سنة لا لوم فيها آخذ ولا منة

هذه هي أبرز المؤلفات التاريخية ، والمجاميع في هذا الدور ، الى جانب كتب عديدة في هذا المجال ما زال أكثرها مخطوطاً .

وقد اشتغل بعض العلماء بشؤون الطب ، وبرز فيه مشخصون بارعون للأمراض وكان من هؤلاء حسن السبيتي[1] ، وقد ظهر له في الطب كما قال صاحب الأعيان « اصابات غريبة دلت على معرفة ، وجود قريحة ، وشفي على يده جماعة من عضال الداء ، وصحت بصور قال عن مريض ان مرضه انتقل الى درجة خطرة لا يمكن معها الصحة ، ولا يعيش اكثر من عشرين يوماً فكان كما قال »[2] .

النشاط الادبي :

تيسر للحياة الأدبية في هذا العهد أسباب دافعة ، ووسائل مقومة ، لم نعهدها من قبل ، فجعلتها تزخر بنشاط متسع الأرجاء ، متعدد النواحي ، ومرد هذه الأسباب الى الوضع الاجتماعي والسياسي الجديد ، الذي احرز عزه العامليون ، وقد وفر هذا الحال الحافل بالمعارك القائمة عند حدودهم ، او على أراضيهم ، مواضيع جديدة للشاعر العاملي ، فبرز أدب المعارك ومدح الأبطال ؛ ولما مد الحكام للشعراء يد العون بإغداق المال ، فاتحين لهم الدور والصدور ، تزاحم هؤلاء الشعراء على مدحهم ورثائهم .

كما كان جل هؤلاء من رجال الدين ، فسلكوا ما درج عليه سابقوهم من مدح آل البيت والنبي ، فاندفع أدبهم ضمن حدود معتقداتهم وأوضاعهم ، وتحددت بذلك المواضيع التي ألهمت شاعريتهم ومنها :

---

١) حسن بن محمد السبيتي العاملي من شقرا ، كان فاضلاً أديباً وقد امتهن الطبابة ، وهو من أبناء القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر ميلادي ، له قصائد عديدة في المدح والاخوانيات .

٢) أعيان الشيعة ٢٣/١٢٥ .

المدح الديني :

ان ما يميز أدب هذا الدور في جبل عامل عنه في سائر لبنان والبلاد العربية ، تأثره بالعقيدة الدينية ، وبتاريخ الجهاد الشيعي في سبيل هذه العقيدة ، فكان انتاجهم تعبيراً عن عواطف الحب لآل البيت مشحوناً بمشاعر الحزن تأثراً على غصبهم حقوقهم ، وقتل أبنائهم ، وقد كان هذا النوع من الرثاء والمدح عاملاً في اثارة المشاعر الدينية لدى المؤمنين ، وحثاً للتمسك بالعقيدة ، كما كان موضوعاً جاهز الفكرات ، يضرب في رحابه كل عالم وأديب ، ولكن الذي برز وجلى باكثار ، مطولاً قصائده في هذا المجال هو الشيخ ابراهيم صادق[1] الذي فات ببراعته شعراء العراق ، وسائر أدباء الامامية في عصره حتى أن إحدى مدائحه في الامام علي تبلغ أكثر من مائة وخمسين بيتاً نقشت على قبر الامام مطلعها :

هذا ترى حط الأثير لقدره ولعزه هام الثريا يخضع

أدب المعارك ومدح السياسيين :

اذا كان المدح الديني هو ما يميز الأدب العاملي خلال هذا العهد والعهود السابقة عن الأدب في البلاد المجاورة ، فإن الذي يميز الأدب العاملي في هذا الدور عن سابقه هو أنه تأثر بالسياسة ، فولج مدح الحكام ورثاءهم . وقد اجتمع الأدباء حول حمد البيك يغليهم العطاء ، أما علي الأسعد فقد كان يمدحه الأدباء لا طمعاً

---

١) ابراهيم بن صادق بن الشاعر الكبير ابراهيم يحيى ، ولد في الطيبة سنة (١٢٢١هـ-١٨٠٦م) والتحق في سن متأخرة بجامعة النجف وأقام بها ٢٧ عاماً وعاد الى بلاده (١٢٧٩هـ-١٨٦٢م) ليقيم في الخيام ثم في الطيبة مركز حكام عاملة من آل الاسعد . فاكرموا مثواه ، وتوفي في الطيبة عام (١٢٨٤هـ-١٨٦٧م) ودفن فيها ، وقد كان من أجل فقهاء عصره ، ترك في الفقه ارجوزة تقرب من ١٥٠٠ بيت من الشعر التعليمي ، وله قصائد في مدح آل البيت والاخوانيات ، ومساجلات بينه وبين رفاقه ، وله موشحات جمة وقد برع في النثر الفني الذي تجلى في رسائله مخلا فيه ميزات النثر في عصره من سجع وتناسق في النسج .

بنواله ، بل لأنه أديب يتذوق الأدب [١] . وقد كان الأدب في هـذا المجال كلاسيكي الطابع ، تقليدي الخطوات ، فالشاعر ينظم في مدحه أو رثائه على غرار الماضين ، يبدأ المدح واقفاً على الديار ، متغزلاً ، يبرع في اظهار حسن التخلص ، ويحاول أن يرقى الى مستويات الشعراء المعاصرين في العراق [٢] ، والقدماء من شعراء العرب ؛ وكان من أبرزهم الشيخ علي زيدان [٣] ، صاحب القصائد الطوال ، في مدح سامة هذا العهد ، ومن قصائده في رثاء حمد البيك مادحاً خلفه علي الأسعد بالقصيدة ذات المطلع :

قفوا نسقها منا الدموع السواكبا   منازل للأقمار أمست مغاربا

وكثيراً ما كان يتعرض هؤلاء الشعراء لوصف المعارك التي تقوم بقيادة الزعماء اشادة ببطولتهم .

وكانت هذه القصائد لا تميل الى التفصيل الواسع في الوصف بقدر ما تعدد أسماء المعارك وأماكنها ورجالاتها ، وقد اشتهر منهم ابراهيم يحيى وابراهيم الحاريصي ، وحبيب الكاظمي [٤] الذي قصد جبل عامل من العراق متردداً على دور الزعماء ، مقيماً زمناً طويلاً ؛ حتى سمي بالعاملي ؛ ويمكن اعتبار قصائده وثائق تاريخية تشير الى المعارك وقادتها ومواقعها والانتصارات فيها .

ادب المطارحات والمناظرة :

برز في هذا العهد لون جديد من الادب أوحى به الازدهار العلمي واتساع

١) جبل عامل في التاريخ ٢/٢٢٨ .   ٢) من أمالي الوحدة ص ١٧ .

٣) علي بن ناصر بن زيدان العاملي ولد في معركة وكان جده من عرب البادية من بني صخر أقام في صفد ثم انتقل الى معركة ، وقد اتصل والد الشاعر بأمراء جبل عامل فأعطوه أرضاً . وتعلم علي زيدان في صريا وكفرة وما لبث أن اتصل بولاة عكا فنال الحظوة لديهم . وقد كان نحوياً يتقعر في كلامه وشاعراً يعارض القصائد ويخمسها . توفي علي زيدان في بلدة معركة سنة (١٢٨٩ هـ - ١٨٧٢ م) .

٤) حبيب بن طالب بن علي بن احمد الكاظمي أولاً والعاملي أخيراً كان حياً عام (١٢٦٩ هـ ١٨٥٣م) وهو عراقي الأصل من بلدة الكاظمية احدى ضواحي بغداد حل في جبل عامل=

الحياة الادبية حتى بات الشعر وسيلة المخاطبة وقلم الرسائل ، ويعبر الشعراء به عن اغراضهم وحاجاتهم ويساجلون غيرهم من شعراء الشام وفلسطين ، ويحمل هذا الشعر خلافاتهم العقائدية وبعض الآراء في الفلسفة والتصوف ، كما أن العصبية العاملية دفعت بشعرائنا للرد على شعراء ظاهر العمر وتحدياتهم السياسية ، فتكون لنا من هذا كله ادب مطارحات ومناظرات سلك من حيث مواضيعه ثلاثة طرق .

١) المطارحات السياسية دفاعاً عن الحياض والكرامة ودفعاً لاتهامات المغرضين والخصوم وكان ممن أبدع في هذا النطاق من شعرائنا العامليين هو ابراهيم الحاريصي [١] رداً على شاعر فلسطين وظاهر العمر وهو الشيخ عبد الحليم النابلسي [٢] .

٢) المطارحات العلمية والمساجلات حول مواضيع دينية وفلسفية تبدي عن ثقافة ذلك العصر والمواضع التي شغلت ابحاث اقطابه ومناظراتهم ومن ابرز هؤلاء ابراهيم الحر [٣] في رده على عبد الغني النابلسي [٤] صاحب القصيدة التي تحمل شطحات في الصوفية ووحدة الوجود ومطلعها :

وجودي جل عن جسمي   وعن روحي وعن عقلي
وعن ذات وعن وصف   وعن بعض وعن كل

وقد رد عليه ابراهيم الحر الصوري بقصيدة طويلة يبدو فيها عالماً فقيهاً متمسكاً بحبال العقيدة الاسلامية ومنها :

=متصلاً بحمد البك وعلي الأسعد وما يزال أحفاده في لبنان حتى الآن. كان ينظم شعره على البديهة وهو محدث فكه وخطيب بليغ ، أما مدحه السياسي فقد كان كثيراً كنظمه في المدح الديني .

١) سنعود الى ترجمة ابراهيم الحاريصي في دراسة موسعة .

٢) راجع سلك الدرر ٢/٢٠٤ .

٣) ابراهيم الحر هو من صور وليس من جبيع حيث يقيم آل الحر لذا يسمى ابراهيم الحر الصوري وهو من أبناء القرن الثاني عشر هجري . الثامن عشر ميلادي .

٤) سلك الدرر ٣/١٣٦ .

رويداً يا أخا الفضل مزجت الشهد بالخل
تعالى الله ذو الفضل عن الاشباه والمثل

وقد قامت مناقشات في مسائل كلامية بين علماء جبل عامل وبين علماء عكا وفلسطين، وقد قال المرادي عن عبد الحليم الشويكي النابلسي (ومن تآ ليفه رسالة في علم الكلام رد بها على معاصره الشيخ أبي الحسن العاملي) [1] . كما اهتم بالمناظرات العلماء العامليون أنفسهم كحسن مهدي مغنيه [2] الذي اشتهر بمباراة العلماء والادباء والشعراء في الفقه والادب في حلقات للمناظرة .

٣) الاخوانيات التي تقوم على مراسلات بين شعراء عاملة انفسهم ، أو بينهم وبين شعراء العراق من رفاقهم في الدرس او اساتذتهم ، ويحمل هذا النوع من الأدب عواطف صادقة وحنيناً ملتهباً ، وتذكر الاحباب والماضي الجميل ، وقد برع في هذا النوع من الادب كل من علي زيدان وابراهيم صادق .

الشعر العامي والازجال الشعبية

من المظاهر الجديدة للنشاط الادبي بروز الشعر العامي والازجال الشعبية في هذا الدور الذي ظهر فيه الادب فشاع بين جميع الطبقات فبلغ الاوساط الشعبية التي أخذت بنشوة النصر الذي حققه العامليون في حروبهم الاستقلالية فعبرت عنه بشعر عامي .

---

١) سلك الدرر ٢/٢٤٤ .

٢) حسن بن مهدي بن محمد بن علي مغنيه ولد سنة (١٢٢٧ هـ – ١٨١٢ م) ودرس في جبل عامل ثم ذهب الى العراق ليكمل تحصيله (١٢٦٤ هـ – ١٨٤٢ م) وتوفي في العقد الرابع من عمره .

موضوع الشعر العامي :

اكثر الشعر العامي الذي نقع عليه في هذا العهد يصف الحروب ويسرد أحداثها ، ويشيد بالبطولة مع اعتزاز بالعنصرية والمذهب ، ويكبر إقدام القادة من زعماء البلاد بأسلوب قصصي ، وقد تضمنت شيئاً من تاريخ العامليين بلغة شعبية لاتختلف كثيراً عن لغتنا الدارجة اليوم، انما تحمل الكثير من أثر الفصحى مع كلمات عامية تبدو مجهولة المعنى .

اشكال القصيد العامي :

الذي يهمنا من هذا الشعر العامي ليس موضوعه والفكرات التي تضمنها فهو دون الشعر الفصيح مكانة ومحتوى ، انما الذي يهمنا هو الاطلاع على الاشكال التي صيغ بها هذا المعنى ، وأما الشكل الذي صب فيه شعراء اللغة الدارجة افكارهم وشعرهم فهو على ثلاثة أنواع :

١) النوع الأول قصيد طويل تتعدد أبياته وله قافية واحدة، وهو لا يختلف عن القصيدة العربية الفصيحة ، ولا يخرج عن عمود الشعر العربي لمحافظته على أوزان الخليل ، وليس من فرق بينها وبين الشعر الفصيح إلا كونها صيغت بلغة عامية ، وهذا ما برز في قصائد شناعة العاملي أحد شعراء اللغة الدارجة ومنها :

ويذكر وقعة صارت بصيدا جوع ومالها حد تراها
لفا الجزار والدالي معام كراد وغز ما تقهم لقاها
عقيد الكل مير الشوف يوسف بقومو صار للحارا وجاها
وقال اليوم نملك باب صيدا ونملك ديرة بشارة معاها
حتم ناصيف بالجيرة وزمزم برب البيت والمختار طاها
مزالي جاذب السرعين بيدي بلادي ما احد غيري يطاها

٢) النوع الآخر : يتمثل في قصيدة طويلة لشناعة تبلغ ثمانية وتسعين بيتاً

بقافية واحدة ولكن الملاحظ فيها أن كل بيتين متتالين لا يتفقان فقط بوحدة القافية بل ينتهيان بكلمة واحدة في الشكل والمعنى . مثلاً :

قادما من حمص لا ديرة حما | لا قرايا الشام صواته وصل
من أرض بيروت لشوف العريض | من بلاد جبيل كم فارس وصل



رايدين لديرة بشارة جميع | لا صفد وبلادها ساحل جبل
مايعرفون الظاهري الظاهر زعيم | عز من بذاره للحنا جبل

وهذا النوع من القصائد يخضع أيضاً لأوزان الشعر بجميع أبياته ، والذي يختلف فيه عن الشعر الفصيح هو ان هذه القصائد يلزم فيها تسكين آخر كل كلمة اندفاعاً مع عامية المعنى ، ولكن باستطاعتك إظهار الحركة على اواخر كلمات كل بيت ما عدا القافية التي يلزم ان تأتي ساكنة ولا يتغير من البيت شيء ، وقد نراه يضطر في كثير من الأحيان الى التنوين كالفصحى :

ناقلاً للرمح في كف اليمين | مردي الفرسان فيه بالعجل

كما يضطرنا الى قراءة البيت قراءة فصيحة حتى ينسجم مع الوزن رغم أنه بالعامية :

صوته كالرعد عند الازدحام | يزعج الابطال يهتز الجبل

٣) النوع الأخير وجه من الأزجال العامية يتكون من نوع من القصائد الطويلة التي تبتعد عن الأوزان المعهودة للشعر في تعدد قوافيها وترتيبها .

فالقصائد من هذا النوع تتكون من اجزاء او مقطوعات في كل جزء بيتان اثنان فقط ، ولكل واحد من هذه المقطوعات قافية واحدة تتردد في شطري البيت الأول وفي صدر البيت الثاني فقط ، اما عجز البيت الثاني فله قافية مختلفة مثلاً :

يا بني متوال يا سباع الرجال | يوم كفرمان بليتوا الهوال

يا بني متوال يا سباع الرجال | يشبهوا البارود لو لحقوا الزناد

وهذه القافية الثانية في هذا الجزء تجدها تتردد في عجز البيت الثاني من الأجزاء التالية :

يوم كفرمان شلتوا العدا | وكلها شربت بكاسات الردى
المير يوسف لا طريقوا ما اهتدى | شبعت وحوش البر من لحم القداد

وهكذا ترتبط أجزاء القصيدة ومقطوعاتها بقافية واحدة ينتهي بها كل مقطع من المقاطع بعجز البيت الثاني من كل جزء ، بينما تتعدد القوافي ، وتختلف بين جزء وآخر ، ما عدا القافية النهائية فيه ، التي تشير الى وحدة الشكل في القصيدة .

وفي هذا النوع من القصيد نسج جميل مستعذب كما فيه انسجام ، وهذا مثل قصير من الزجل العامي جاء في قصيدة نظمت بعد عام (١١٨٥ هـ - ١٧٦٧ م) تشير الى المواقع الحربية .

اسأل بيك قبل منك والجدود | كيف كنا في الحروب مثل الاسود
بنصحك من بعد هذي لاتعود | وقول لأولادك ولأولاد الولاد



اسأل بيك قبل منك والعتاق | كنت أنا خيال أخف من البراق
لما انتخى ناصيف وبسيفو زعق | صار شخب الدم يضرب للعداد

هذه هي الأنواع التي تشكل بها الشعر العامي في هذا العهد . وهي تلقي ضوءاً على لغتهم العامية وطريقة النظم لديهم .

الحركة الأدبية والمرأة العاملية

لقد تسرب النشاط الأدبي الى صفوف النساء ، فأخذت به ربات البيوت ،

مشاركة في تذوق الأدب وانتاجه ، ولكن هـذه المشاركة جاءت متأخرة عن نشاط الرجل فبرزت هذه الظاهرة في نهاية هذا الدور ، وكانت أرستقراطية الطابع لم يعن بها سوى نساء الحكام وبناتهم ، أو من اتصل بهن . وممن برز في هذا المجال فاطمة زوجة علي الأسعد وقد كان شاعراً كما رأينا وابنتها زينب وقد جاء شعر هذه الأخيرة في الأغراض الخاصة وفي المناسبات [١] . ثم أخذ بهذا النشاط من اتصل بهم كزينب فواز تلميذة فاطمة الاسعد والتي اتصلت اخيراً بالاوساط المصرية وعاشت فيها فحررت في جرائدها وكتبت في مجلاتها وقد برز نشاطها في ختام القرن التاسع عشر ، بمؤلفات عديدة ما زالت تشيد بمكانتها في الفكر والادب .

وكان قد برز خلال هذا العهد في بلدة بنت جبيل امرأة أديبة شاعرة تدعى منى (كان لها في الشعر خبرة حسنة وفي معرفة النجوم ومبادىء علم الهيئة حالة مقبولة وكانت تجالس الأدباء وتساجل الشعراء من وراء حجابها وروايتها للشعر وحفظها لجيده تدل على سلامة ذوقها وحسن اختيارها) [٢] .

وهكذا جاء هذا العهد مزدهراً بحياته الفكرية والادبية ، ولعل في دراستنا التفصيلية لنتاج الأعلام في هذا الدور ما يبرز الدقائق من خصائصه ، وسنحاول دراسة كل من ابراهيم الحاريصي ، وابراهيم يحيى ، ممثلي الأدب الديني ، والشعر في ظل السياسيين ، وزينب فواز كمثال لنشاط المرأة العاملية في الحياة الفكرية .



١) أعيان الشيعة ٣٣/١٣١ .
٢) احمد رضا ، العرفان ٢/٢٨٨ .

ابراهيم الحاريصي

١١٨٥ هـ - ١٧٧١

•

حياته واتصاله بالامراء :

ولد في حاريص إحدى قرى الأطراف الجنوبية من جبل عامل واليها نسب ، واذا أغفلت المصادر تاريخ ولادته فقد أشار بشعره الى مراحل دراسته التي تلقاها في جويا على مقربة من مسقط رأسه باشراف احد رجال الدين فيها ويبدو أنه أحد علماء آل خاتون [١] :

فتىً حاريص مغناه ولكن ... تلقى العلم وافراً من جويا

وما لبث ان اخذ يتمرن على نظم الشعر ، ويقلد شعراء الحماسة العباسيين [٢] ، وقد مكنت له اوضاع جبل عامل ، والمعارك القائمة في ربوعها بين الأمراء العامليين وولاة صيد وعكا ، او مع جارهم ظاهر العمر او مع امراء الشوف وجبل لبنان ، من وجود المواضيع التي تملأ نفسه وشعره . وقد اتصل بشيوخ المقاطعات العاملية في عصره ، وتردد على دورهم ودخل قلاعهم فقصر شعره على مدحهم بعد أن أجزلوا له العطاء كالشيخ علي الفارسي الصعبي شيخ مقاطعة الشقيف [٣] ،

١) آل خاتون عائلة علمية حلت جويا وقد اشتهرت منذ القرن السابع الهجري بنشاطها العلمي .
٢) دائرة معارف فؤاد البستاني ٢/١٦٩ .
٣) حكم هذا الشيخ في الربع الاخير من القرن الثاني عشر الهجري وتوفي سنة (١١٨٩ هـ - ١٧٧٥ م) وكانت بلدة النبطية مركز مقاطعته .

ويبدو من تواريخ قصائده أنه قد انقطع الى هـذا الشيخ حتى ادركته المنون سنة (١١٨٥هـ - ١٧٧١ م)، كما اتصل بالمشايخ من آل علي الصغير ومنهم الشيخ ناصيف النصار [١]، وكذلك الشيخ محمود النصار والشيخ حيـدر الصعبي من امراء المقاطعات العاملية.

ثقافته وآثاره:

أصاب ابراهيم من الثقافة بسهم وافر، فألمّ بالأدب والتاريخ، وأخذ بعلوم الأقدمين متوسعاً في اطلاعه، وقد بدت آثار هذه الثقافة في ثنايا قصائده، ولم يخلّف الحاريصي من الآثار إلا قصائد طويلة قالها في مدح المشايخ العامليين، وقد حفظ له ممدوحوه من الصعبيين شعره في كتاب تداوله أجدادهم من بعـدهم [٢]، وما زال ما سلم من شعره مخطوطاً أو متفرقاً بعضه في كتب التراجم وسير الرجال.

شعره:

شاعرية طلقة يواكبها ثراء لغوي، تندفع دون تلكؤ عند فكرة يعجز عنها التعبير، أو وقوف لدى صعوبة ممتنعة صبها في قوالب كلاسيكية بمواضيع تقليدية، فالمخطوطات [٣] التي حفظت لنا شعره لا تبدي إلا لوناً واحداً شاملاً لقصائده، ألا وهو فن المدح الذي كان القصد من نظمه ولكنه تضمن أبواباً اخرى طرقها خضوعاً للنهج التقليدي، أو أن المدح تطلبها فكانت بالنسبة له شُعَباً جديدة، فما هي الفنون الشعرية لدى الحاريصي؟

---

١) السيف النصار كان يحكم المقاطعات الجنوبية من جبل عامل ومركز حكمه قلعة هونين وقد توفي في ٥ شوال (١١٩٥ هـ - ١٧٨١ م) في معركة يارون دفاعاً عن بلاده ضد الجزار.

٢) أعيان الشيعة ٥/١١٠.

٣) المخطوطة لسليمان ظاهر عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، المتوفي سنة ١٩٦١ م وقد سمى هذه المخطوطة (مجموعة آثار أدبية منتخبة لرجال العلم والقلم في جبل عامل) بدأ بتدوينها سنة (١٣٣٩ هـ - ١٩٢١ م).

المدح:

بانقطاع ابراهيم الى الامير العاملي علي بن احمد فارس الصعبي، كان طبيعياً أن تسلك شاعريته طريق المدح فيؤدي للامير مراسم الولاء، يبادله النعمة، ويحفظ له الجميل، بشعر تحفظه الايام؛ ولا بد من أن يمدح الحاريصي أميره مشيـداً بالفضائل التي تمرس بها وعانى تجربتها، فصفات هذا الامير كثيرة تسرح في رحابها القوافي ويبدع الفكر فيها ويجيد:

فكم لي من صفاتك من قواف ... أجاد الفكر فيهن ابتداعا

ولعل أولى خصائله شجاعة واندفاع وجدارة في قيادة الحروب والمعارك، التي عمرت هذين القرنين في البلد العاملي.

فممدوحه مالك صفات جلية لا يمكن أن يبلغها المقول أو المنقول فهو بطل في ساحة الحرب وهو:

اذا علا متن الجواد لغارة ... يعلو بها التكبير والتهليل

وليس مدحه في هذا المجال ضرباً من المغـالاة، وتيهاً في الخيال، وشعر الحاريصي تدوين للاحداث، وتسجيل لوقائع العامليين مع الخصم، فيوم التقى الصعبي اعداءه في تربيخا سنة (١١٨٠ هـ - ١٧٦٦ م)، اوردهم حياض المنون وترك الابطال مجندلين صرعى وكانوا للوحوش طعاماً سائغاً:

فليشكر الله إذ لولاه ما سلمت ... نفس وخيلك تقفو خلفهم أثرا

يا وقعة أورثتنا فرحة وصفا ... وأورثت عيشهم بعد الصفا كدرا

وقد يختلط الكرم بالشجاعة فهما في مدحه صفتان متلازمتان، ففي المجاعات وأعوام الجدب التي مرت على جبل عامل كانت أيادي الأمير الصعبي تغدق العطاء على الفقراء، فاذا ما أقبلت على داره ألفيت ساحتها الواسعة كصدره نزلا للضيف والفقير ومكان قرى، وهو بالتالي:

مؤيـد لم تزل تهمي انامله ... عام المجاعة مأمون به الزلل

ترجى وتخشى اياديه وسطوته   هذا السحاب وهذا الحادث الجلل

وقد يأتيه طالباً رفدا في سنة أجدبت وعم فيها الغلاء وكان ذلك عام (١١٧٧ هـ - ١٧٦٤ م) فشكى ابراهيم ما عراه من ضيق في ذلك الحال ، وما ابتلي به من فقر وعيال ، ولكنه يقول :

أتيت اليك أشكو ما عراني   بهذا العـام من ضيق المجال
بلينا بالغلا والحل فيـه   فأصبح همنا فوق العيـال
فما ضاع الفقير وانت عضد   له عون بسيف او بمـال

وقد تتجمع سائر الصفات وخلاصة أمجاد السابقين في هـذا الأمير فيتضاءل رجال التاريخ بفضائلهم أمام جليل صفاته فهو :

متجرد لقتال كل ممنـع   متجرد من فوق صهوة أجرد
فلو ابن مسعود رآه قد سطا   في فيلق أضحى لديه كصفرد
ولو ابن زائدة رأى معروفه   في الجدب قال لكفه ويك اسجد

وان حاول أن يمتدح غير الصعبي من الأمراء لا يجـد إلا صفات الشجاعة والفروسية ميداناً لمدحه ، ولعله أشاد بهذه الشمائل متأثراً بوسطه الدامي ، ومتعلقاً بهذه الحروب فكأنه يعشق القوة والمجد الذي يبنيه السيف ، وقد يكبر شيمة الكرم وهذا ما نجده في مدحه للشيخ ناصيف النصار :

هو البحر الذي يروي أناساً   ويغرق آخرين كذلك اليم
هو الموت الذي يبدو عياناً   اذا دق الفوارس عطر منشم

شاعر الوطن :

ان الوقائع التي قامت بين الصفديين والعامليين ألهبت في أبناء الجبل النخوة ، وأثارت فيهم عصبية وطنية ، وحركت عاطفة الاعتزاز بقوتهم وانتصاراتهم ، وقد كان الحاربصي المدافع عنهم بشعره ، يقف أمام شعراء ظاهر العمر ، يفند مزاعمهم ، ويدحض أباطيلهم ، ويذكر بفضـل العامليين عليهم ومساعدتهم

وقائعهم ، فقامت معارضات ومطارحات كثيرة بينـه وبين عبد الحليم النابلسي [1] ، ونلحظ في شعره هذا اعتزازاً بالجماعة لا بالفرد ، واعلاء للبطولة العاملية ، ولقد أشاد بوقعة للامير ناصيف النصار ضد ظاهر العمر ، هي وقعة تربيخا [2] وقد وافاها النصار بخيله ، فهرب أعداؤه مخلفين الخيل والسلاح ، وقد يذكرهم بأيام سخنين ، وكيف استطاع ظاهر العمر ان يرد عنه خطر قبيلة الصقر عندما ساعده العامليون :

وافى بها في يوم تربيخا وقد   جاست خيول الدارعين خلالها
أنسيتم أيام سخنين الـتي   لم ينسكم طول المدى أهوالها
والصقر لولا الخوف من عقبانها   ما أزمعت عن أرضكم ترحالها

وقد كانت قصائد الحاربصي سـجلا تاريخياً للحروب والمعارك ووثائق المعاهدات بين العامليين وغيرهم ، وصورة واضحة لوضع المناطق اللبنانية وحالها في القرنين السابع عشر ميلادي والثاني عشر هجري . فهو يذكر الصفديين وشعراء ظاهر العمر بما فعلوا أيام وقعة ملحم ، وقد ساعد فيها الصفديون العامليين ، ولكن عبد الحليم النابلسي وقد حاول أن يعنف العامليين بفضائل قومه عليهم ، أثار في ابراهيم الحاربصي عزته العاملية ، فذكرهم بأيام مرجعيون وموقف العامليين ، ووقعة الدولاب ، وقد تحمل العامليون وحدهم أخطار هذه الحروب ليردوا عن محالفهم ظاهر العمر الاخطار . . .

لمَ لا ترى أيامنا في خصمكم   والحرب فيها لم تضع أوزارها
فاقدم اذا شئت العراك أو اتئد   عن ورطة مدت عليك غبارها

١) سلك الدرر ٢/٢٥٤ .

٢) وقعة تربيخا انتصر فيها العامليون بقيادة ناصيف النصار على ظاهر العمر الذي حـاول اغتصاب قرية البصيصة العاملية فحاصر ظاهر العمر تربيخا التي استرجعها ، واسترد البصيصة ناصيف النصار عام (١١٦٨هـ - ١٧٥٢م) .

الوصف :

في لجب المعارك لن يرتفع صوت غير صليل العوالي وصيحات الرجال ، وفي خضم من الدماء ، لن تؤخذ عين بمنظر وأمامها مشاهد الموت وغبار النزال ، ولن ينطق اللسان في هذه الحال الا بما رأت العين ووعت الاذن ، وأدركته البصيرة ، وريشة الشاعر لن تمتد الا الى تصوير الوقائع في لوحات يبرز فيها الابطال ببروزهم في المعركة ، بألوان حمراء قانية وبهذا تحددت الاوصاف عند الحاريصي ، فبات مصوراً بارعاً لبطل امتشق حساماً ، يستقبل الموت ثابت القوى ، جريء العزيمة ، يشري العلا من سوق الوغى والثمن ردىً القاه القضاء في ساحة حروب :

لو ترى سيف علي عندها   سلّ هنديا أبوه ذو الفقار
اوقف الخيل ونادى ههنا   منتهى الفخر لمن نال الفخار

فقد يعمد الحاريصي الى وصف مقدمات المعركة والجو المحيط بها فتقبل الكتائب من الجرود العالية ، مندفعة كموج البحر ، فتنشب الفرسان مخالبها دون خشية وارتياع ، ثم تدور حول البطل جماعات من فرسان مثنى وثلاث ورباع ، ويمد النقع في جو المعركة غماماً لا تظنن ان سيعقب بانقشاع ، ويخرج البطل من هذه المعمعة مصيباً رابحاً ، وبهذا تكتمل الصورة وتظن ان المدح لا يكتمل إلا بإبرازها واضحة فكلما أمعن الشاعر في رسم الخطوط ، وأوغل في التفاصيل ، ارتفعت مكانة الممدوح، وبذلك يكون الحاريصي قد وصل الى غايته من قصيدته لما هي حالة البطل النفسية آنذاك :

ومد النقع فوقهم غماما   تراكم لا تقول له انقشاعا
رويدك لا تظني ان نفسي   ترى الاقطار شبراً او ذراعا

وقد يسبغ على وصفه المعارك لمحات ملحمية ، فتدور المعركة في قرية أحاط بها الأعداء بعسكر لجب ، وأوشك الخصم أن تخضع له الرقاب ، ويدين لنصره سكان البلدة الذين توقعوا حلول الكرب ، ولا منجي من ذلك الا قوة الهبة ، في

هذه الآونة :

أتاهم علي في كماة اعدها   ليوم الوغى كل على الموت يجسر
فمذ عاين الأعدا بريق صفاحه   تولوا على أعقابهم ثم ادبروا
وعافوا هناك الخيل والبيض والقنا   ولم يطلبوا الا النجاة فقصروا

وهكذا تراه يصور الأزمة وقد بلغت القمة في العسر ، وبات لا منجي إلا الله ، او قوة خارقة ، وبهذا يكون قد سامت الحاريصي بوصفه المعارك ، قصائد ذوي النَّفَس الملحمي ، او أنه يشدُّ بممدوحه الى العلاء ، فكأن الحرب التي يخوضها وغىً عنترية ، اقتحم نارها وولج بين سيوفها الملتحمة على حصان محجل ، وقد اسود فضاء المعركة ، وتطايرت الهامات ، وامتلك الهلع فلول الصناديد ، فاعتزلوا القتال وامتد الموت بظله على ساحة المعركة ، منادياً أن ليس من شرب إلا من منهله. وبهذا نرى الحاريصي يرسم الصورة كاملة بدقائقها وأخص تفاصيلها، وقد يتعدى بذلك قوة الرسام فيدرك بشعره وصف مشاعرهم، وخلجات قلوبهم، ما يقف عنده فن الرسم حائراً مقصراً :

والخيل ناكصة على أدبارها   والبيض تلمع في ظلام القسطل
والهام طائرة وكل مدجج   رعش الفؤاد عن القتال بمعزل

ولا يطرح الحاريصي الصورة دائماً في اللوحة الشعرية على لون أحمر ، في اطار من المجد والعزة ، يسيل عليها من الوان شاعريته ، ما يجعل البطل فيها يسامت العظمة ، فيتخطاها شامخاً الى رتبة اعلى . ولكنه قد يترك حمرة اللون ، وصورة البطل ، الى تصوير شامخ من القصور ، على ربوة عالية عند سفحها نهر ، ينطبع خياله على مرآة القصر ، فتبدو أمام عيني الشاعر صورة ولا أجمل منها إلا تصويرها بشعره ، نهر يطير فوق قصر ، يتضاءل أمام عظمته قصر غمدان ، فهو زينة الدنيا كمنارة في نقش جميل يتناغم متجانساً أو مختلفاً الوانه ، فكأن الحاريصي قد تحول الى عين ولسان ؛ عين نفاذة تحيط بسرعة خاطفة بلطائف الشكل وخفاياه ، ولسانه يجيد التعبير ويؤدي المعنى مفصلا لا مجملا ، بل بالدقائق كما رأت العين :

ما الشقيف الصلد إلا جنة ... ولنا قصر بأعلاه استتار
ليس يدنو منه في حسن البنا ... قصر حمدان ولا عظم الجدار
تنظر المرآة فيه فترى ... فوقك النهر تراءى بانحدار
ما رأينا قبل هذا جدولاً ... فوق قصر شامخ في الجو طار
لا ولا قصر كهذا انه ... فلك يزهو ولكن لا يدار
زينة الدنيا على أرجائه ... تزدهي في كل نحو كالفنار
نقشها مختلف مؤتلف ... في ابيضاض واحمرار واخضرار

ويبدو أن هذه القلعة كانت مركز حكم الصعبيين في تلك المنطقة ، وقد عاد اليها ابراهيم مردداً أوصافها بما يذكر بأوصاف البحتري لإيوان كسرى ، والطبيعة المصنوعة ، ولعل للقلاع في عهد الجاربعي ، عصر المفاجآت الحربية ، والوقائع المتتالية ، قيمة كبرى ، فهي لهذا تستدعي طرف الشاعر ، والطريف من شعره ، فهذه القلعة رغم كره الحاسدين :

جليت بها حتى بلغت بها السهى ... وقصر عنها كل قصر مشيد
وأبرزتها للوافدين فأقبلت ... تنادي على شحط المدى كل مجتدي

الغزل :

في شعره حب وغزل ، وباسمها يبدأ قصائده على نهج كلاسيكي ، منتقلاً الى ممدوحه برشاقة خاطفة ، تضعك أمام سيل من صفات الممدوح ، فكأن هناك ارتباطاً عفوياً بين أجزاء قصيدته ، فلا ينقذه من ورطة حبه ، وجفاء حبيبه ، والعذاب الذي تملك نفسه ، إلا رجل صعبي ، وهو موضوع ما تبقى من قصيدته ، فهو يسأل الرفق به ، بقلبه المشتعل بنار لا تخمدها إلا مدامع عين ساهرة ، فقد طال البعاد وما زال يشكو مر الفراق ، وقد سمح برقه في الهوى :

أمن سمحت لها برقي في الهوى ... أمن المروءة ان أجود وتبخلي

ولا تبدو وحدات غزله مبتدعة ، فهي تقليدية إذ هو يسأل الوصال ؛ وقد

تصببت عبرته لأنه بات يا أسما :

يرعى في الليل كواكبه ... ويعددها نجما نجما

ولا يعتمد النسيب فقط ، يشرح وضعه ويبدي رغائبه وقلقه وشوقه ، فهذا القلق وذاك الاشتياق ، مبعثها جمال حبيبه الذي فتن به وهذا الجميل :

دعج الأجفان كأن من الـ ... حور الأتراب له أما
ما الريم أخوه ولا أبه ... حاشاه وليس له عما
قمر ما البدر كطلعته ... خجلا البدر وإن تما

وقد يبالغ في غزله أو ينطلق بعيداً أكثر من الأقدمين ، فيتعدى رمي العيون بالحور ، والقد بالقنا ، الى وجنة حمراء ومبسم يلثو كأقاح ، وصدر مرمري لين اللمس ، فوقه نهدان مستديران فكأنه يجول النظر في خفايا جسد المرأة ، فينساق الى تفحص الوجه ليتبين خالاً فاحماً ، ويبدو شعرها المظلم وقد استعار من الليل لونه ، ويستعير من الطبيعة ألوان حبيبه وجماله ، إسمعه يقول :

انظروا وجنتها ذات احمرار ... يا لخد غار منه الجلنار
وانظروا مبسمها كيف لثا ... من اقاح وهو دن للعقار
واثيث الفرع من جنح الدجى ... كالأفاعي دب من تحت الخمار
ونحيل الخصر لطفاً كالصبا ... فوق ردف لا يوازيه إزار . . .

وهو هنا يشبه رساماً وضع أمامه مثالاً في الجمال أولع بوصفه ، وطبع صورته في شعره ، فبتنا أمام قصيدته كأننا في حضرة هيكل جمع كل المثالات متألقة في نموذج للأنثى ولا أروع ، حتى أنه لم يغفل شرطاً واحداً من مستلزمات الانوثة الا وازدحم به هذا التمثال . وهذا ما يوضحه لنا غزله التقليدي ؛ وشعره في هذا المجال لا يعد عملاً فنياً فهو لا يوحي لنا ، لأنه رسم القمة في الجمالات المتعارفة ؛ ولا يحرك الشعور فينا لأنه ليس وليد التجربة العاطفية والانفعال الذاتي ، ولكن في شعره تمثلت فنية العمل . ان لم يكن عملاً فنياً وهذا شأن

الفنان المقلد أو الناقل ، فالعمل الفني يخالطه الشعور ، وتوقظ الحياة فيه عاطفة متحركة .

الحكمة :

ان الخاربصي يمتلك ثقافة واسعة في الأدب وتاريخ الأقدمين ، ويلم بأطراف العلوم العقلية والنقلية ، ولكن حكمته لم تكن وليدة فلسفة في الحياة ، أو نظرة عقلية ، بل نتيجة التجربة الشخصية ، والمشاهد العيانية ، ترفدها ثقافته ، فتزداد وقعاً في النفوس وتؤازرها الأمثلة الحية وصور التاريخ ، وهي تتخذ شكل النصيحة والارشاد . وقد وضع الخاربصي حدوداً للرجل المثالي ، وهو من تحدث عنه المجد ، ويلم بالسيف المعالي فانتزعها من زمرة سباع :

وليس المرء كل المرء الا فتى عنه حديث المجد شاعا
رأى نيل المعالي بالعوالي فزاحم في مواردها السباعا

اما الحق فهو في رأيه لا ينال ولا يحرس إلا بالحسام ، والعلياء لا تبلغ الا بالسيف ، والفخار السرمد طريقه الصارم ، واذا ما مرقت المعالي كان طبيبها فانه :

لا حق الا للحسام وكل من طلب الحقوق بغيره لم ينجد

وليؤكد الحكمة ويبرز ما الشجاعة والكرم من مكانة ، وقد توفرت هاتان الصفتان في ممدوحيه من أمراء عامل يسعى الى امثلة بارزة من التاريخ القديم ، فحاتم الطائي لم يبلغ قدره السني ، بلغه الا بالكرم ، وعنترة العبسي الا بالسيف ،

لولا نوال بنان راحة حاتم لم يعل قدراً فوق أرفع أمجد
والاسود العبسي لولا بأسه يوم الوغى ما كان قدر الاسود

وقيمة المرء يحددها اقدامه ، لان المجد لا يقبل المتخاذلين ، وخشاة الموت ؛ فهذه حكم من واقع التجربة ، فمن رهب الموت حل دار الذل ، والحياة لذيذة حقاً ، ولكن القدر المحتوم على الانسان سيلحقه هارباً كان أم نائماً ، فانه :

على قدر الاقدام للمرء مفخر ولا حظّ في الدنيا لمن يتعذر

وله آراء عديدة في غير الحرب والشجاعة والكرم ، يسوقها نصائح ينهى بها عن الغرور والعجب ، لان الغرور مهلك النفس ، والعجب سبيل الضرر ، وينحي بالائمة على الباغي الذي يهدم مجده ببغيه ، وان قصدر حيناً فالنهاية حتماً الخسران . لهذا فهو يعيذ ممدوحه من البغي قائلاً :

والبغي يهدم اركان العلا وبه اقسمت لا يفلح الباغي وان قدرا

وكثيراً ما يدعو أميره لان يقرن بقوله العمل ، لماذا ؟

اقرن بقولك فعلاً ما به خلل لا يصدق القول حتى يصدق العمل

هذه الحكمة وضعها بتصرف الامير في حربه وفي كرمه واقدامه وفي تصرفه وأحواله ، فكأنه يسعى الى تقديم هذا الغذاء الفكري لاميره ، يزوده به ساعة الحاجة ، فكأنه خبير عارف ، وموضع ثقة ، ومكان استشارة ، فهو يدعوه لاعتماد المرونة في المعاملة ، التي يجب أن تتأرجح بين اعوجاج واعتدال ، وطريقته في الحكمة ، أن يفرغ الدعوة في الشطر الاول من البيت ويتبعها بحكمة عامة في شطره الآخر :

فكن مع الدهر معوجاً ومعتدلاً فانما الشهم معوج ومعتدل
وصل ولا تقطع المعروف عن احد فالحر لا يقطع المعروف بل يصل
واحمل ولا تشتكي للدهر حادثة ان الكريم لأثقال الورى جمل

الاسلوب :

في دراستنا لأسلوب الخاربصي نلاحظ نقطتين اثنتين نتوقف عندهما :

اولاً : طريقته في نظم القصيد والنهج الذي سار عليه في وصف المواضيع .

ثانياً : الحلة والشكل الذي ضمن فيه المعاني ، وأخرج الفكرات .

أما طريقته في نظم القصيدة فهي تتبع النهج الآتي : بداية تتأرجح بين غزل تقليدي ، أو حكم يسوقها في المطلع ، وينتقل من هذه المقدمة التي تختلف من

قصيدة لأخرى ، الى مدح الأمير بالكرم والشجاعة ، ورجاحة العقل ، وينهيها بأن يزف القصيدة عروساً الى الممدوح ، ويدعو له بدوام العز وعلو المجد . وقد يتخلل هذه المراحل وصف المعارك ، او شيئاً من الطبيعة المصنوعة ذاك أن النزعة الغالبة على الحاريصي هو كونه وصافاً شديد الملاحظة ، ولكن هذه المواضيع تأتلف في سياق واحد ومظهر واحد هو المدح . وهذه الطريقة تعود الى النهج الكلاسيكي أكثر منها أسلوباً شخصياً .

أما النقطة الثانية وهي التي نعني بها الأسلوب مباشرة ، لأنها توضح الخصائص المميزة لبناء أدب الحاريصي ، لأن الأسلوب هو الرجل . وفي هذا المجال نلاحظ خاصة بارزة في شعره ألا وهي تعلقه بالمحسوس ، في وصفه ومدحه وغزله ، ولا يتخلى لحظة في شعره عن كل ما تشكل كياناً ملموساً ، فممدوحه في كرمه بحر وفي شجاعته أسد ، وبالسيف يرتبط المجد والعلا ، ووجه حبيبه بدر ، ولجفونه استعار من لغة الحرب نعوته :

وبكل يوم عن قسي حواجب ترمي فلا تخطي سهامك مقتلي ،

ونلحظ أثر الثقافة التاريخية والأدبية واضحاً في شعره ، فهو يردد أسماء معن بن زائدة ، وقس بن ساعدة ، وحاتم الطائي ، وعنترة العبسي ، وابن مسعود ، والحجاج ... وهو في وصفه لخيل علي الصعبي ينثر في بيت واحد جملة من أسماء الخيول العربية في التاريخ القديم :

فما الحفنا وما الغبرا لديه وداحس والوجيه وذو العقال

أو يذكرنا من التاريخ بقصص أثبتها القرآن كما فعل بقصة سليمان والهدهد وبلقيس ، حين زف قصيدته للأمير :

خذها كبلقيس وأنت لها سليـ ـمان وإني صادق كالهدهد

وإذا جارت الحياة فانها كسيف ابن ملجم قاتل الامام علي :

لقد جار الزمان وسل بغيا عليّ كما ترى سيف بن ملجم

وهو يعتمد صناعة واعية في الشعر ، فيحمله ضروباً من البيان ، وبأنواع مختلفة من الجناسات تامة ومنقوصة او مقلوبة نحو :

تلقى به الألف في يوم العراك اذا ثار العجاج ويعطي الألف مقتدرا

أو قوله :

ضده واهي القوى هاوي البنا

وهو يحاكي المتنبي في رصف الأفعال ، الكثيرة في بيت واحد ، بل فات المتنبي في ذلك فقد يأتي في شعره بيتان اثنان ، لا تجد فيها غير أفعال متتالية مثلا :

ودم واسعد ومر وانه وأول وعاد واجف واعف وادن واسلم
وقل وافعل وحل وفل وانه وشد ومد واغز واسط واعتم

هذا ويمثل الحاريصي بشعره الوجه السيامي في عهد الحكومات الإقطاعية ، ومحاولات الاستقلال ، لأن شعره تعبير عن وقائع هذا العصر ، ولسان حاله ، وتصوير لأوضاع فترة من الزمن ، تعتبر جزءاً مهماً من تاريخ بقعة من بقاع لبنان ، وكشف عن الماضي الذي يبدو فيه سافراً لا تغطيه من التصنع غلالة ، جاء في جميل من القول ولطيف من التعبير .



ابراهيم يحيى

١١٥٤ هـ - ١٧٤١ م

١٢١٤ هـ - ١٧٩٩ م

•

نشأته ودراسته :

ولد ابراهيم في الطيبة عام ١١٥٤ هجرية ، لفاضل من علماء القرن الحادي عشر الهجري هو الشيخ يحيى الذي تسمى به أحفاده ، « كما تسمى آباؤه بآل قياش وآل عطوي سابقاً »[1] . ودرس ابراهيم في شقراء مـدة من الزمن ، ثم هاجر الى ايران طلباً للعلم وحل في مدينة أصفهان مدة عشر سنوات ، رجع بعدها الى وطنه عالماً مكتمل المعرفة فأقام في مسقط رأسه الطيبة .

هجرته :

وفي عام (١١٩٥ هـ - ١٧٨٦ م) قتل الشيخ ناصيف النصار بوقعة يارون ، بيد عسكر الجزار الذي أغار على جبل عامل ناهباً ومعتدياً ، فاضطر الشيخ ابراهيم أن يهجر بلاده مع الوفير من رجالات عاملة[2] الذين تفرقوا في لبنان والشام وايران والهند ، أما صاحبنا فقد هرب الى دمشق لاجئاً ، ثم انقلب عنها الى العراق ، واغتنم مدة اقامته فيها ، فدرس على كبـار علمائها ، كالسيد بحر

١) الأميني شهداء الفضيلة ، ص ٣٢٣ . ٢) سليمان ظاهر العرفان ٤٦٧/١١ .

العلوم والشيخ جعفر الكبير صاحب كشف الغطاء[1] ، ثم سافر الى ايران زائراً ، وعاد الى دمشق ليستقر فيها مدة طويلة . ولقد توفي في عام (١٢١٤ هـ - ١٧٧٩ م) ودفن في دمشق في مقبرة باب الصغير قرب مقام السيدة سكينة ابنة الحسين بن علي ، وقال الأمين : وكان له قبر مبني وعليه لوح فيه تاريخ وفاته رأيته وقرأته فهدم في زماننا[2] .

آثاره :

خلف من الآثار جملة مؤلفات دينية منها الصراط المستقيم في علم الفقـه ومنظومة في علم الكلام والاصول ، بألفي بيت سماها الجمانة النضيدة ، وله ديوان شعر يربو عدد أبياته على أربعين ألف بيت[3] من بدائع الشعر وغرره . وقال سليمان ظاهر : وقفت على مجموع من الأسرة الصعبية في النبطية وفيه قطعة من مدائحه في أجدادهم ، بينها ثمان وعشرون قصيدة محبوكة على مثـل محبوكات صفي الدين الحلي ، وهي في مدح الشيخ علي الفارس الصعبي ، من حكام القرن الثاني عشر الهجري الاقطاعيين[4] .

وقد جمع السيد محسن الأمين من شعره ما يبلغ سبعة آلاف وخمسمائة بيت ، ورتبها على الحروف الأبجدية ، وما زالت مخطوطة ، وهنـاك نسخة من ديوان ابراهيم يحيى في النجف عند محمد السماوي النجفي[5] .

شعره وشاعريته :

أوتي ابراهيم يحيى شاعرية مطواعة ، ومقدرة على النظم لا تجارى ، صقلتها معارضاته لقصائد المشاهير ، وولعه بتخميس الروائع في أدب السابقين ، فانطلق

١) بحر العلوم وجعفر الكبير اثنان من كبار علماء النجف في القرن الثاني عشر هجري ، ومن أصحاب المؤلفات الفقهية الذائعة .
٢) أعيان الشيعة ٤٤٧/٥ . ٣) العرفان ٤٦٨/١١ .
٤) ظاهر ، العرفان ٤٦٩/١١ . ٥) أعيان الشيعة ٤٥٠/٥ .

وقد تثقفت ملكة الشعر لديه ، يعبر بسري الانشاد ويحوم في أجواء الشعر بمواضيع مختلفة تأتلف في صدق العاطفة وقوة التعبير ، صفتان لازمتا شعره في جميع الفنون .

المدح :

ليس المدح أبرز ما يواجهنا في شعره ، ولكنه الفن الادبي السائد في عصره ، والذي يحمل طابع العهد الذي عاش فيه ابراهيم ، وهو ليس كالحاريصي يقصر شعره على المدح السياسي ، فقد نظم وهو الحبر الفقيه ، عقوداً في مدح النبي وآله ، وقصائد في أعيان العفاه من أساتذة واعلام ، من فقهاء زمانه وفاء للعلم والدين. وفي سائر هذه الانواع من المدائح يسلك نهجاً اتباعياً فيقدم القصيدة بمطلع من النسيب ، متذكراً ماضيه في ديار الاحبة ، فهو إن مدح النبي تذكر ربى نجد ، ودمناً هناك ، وأياماً سلفت له بحزوى ، ومسجد الخيف ، وليـالي يلوح فيها برق يماني :

لست أنسى ليلة الخيف وقد   هزم البرق اليماني وجاها
هو نور الله لا يجحده   غير عين كتب الله عماها
مبدأ العلياء طه المصطفى   وإليه بعد هـذا منتهاها

ولا يمدح النبي في قصيدة من قصائده ، إلا ويعرج على مدح أبنائه فهم :

حماة كماة ينهضون الى الوغى   خفافا وأصلاب الرجال تقصف

ويخالط هذا المديح لمحات عرفانية ، تسمو الى عميق الإيمان ، فهو يطري أبناء النبي لأنهم قوم نوه بفضلهم الانجيل والقرآن وهم :

اذا قال ابراهيم برد رضاهم   بخوض أوار النـار لا يتخوف
ذوي قيم الغر الحسان التي لها   من الدر واليـاقوت عقد منصف
تحدث عما في الفؤاد من الهوى   وبالعرف ما يخفى من المسك يعرف

واذا مدح استاذه أبا الحسن الموسوي ، فهو يمدح فقيهاً جليلاً بلغة فقيه ،

فممدوحه حبر معظم له على العلم والدين أياد بيضاء :

ابو الحسن الحبر الذي بعلومه   اغاث ربوع الدين فهو خصيب

وعلى طريقة القدماء تراه ينوه بالصعوبات التي اعترضت طريقه الى الممدوح ، وبالشوق الذي يعانيه من فراق الأهل والاحباب ، فقد غادر غانية جميلة ، قاطعاً البر صادياً ، ليمدح الامير محمود بن نصار ، وهذه الغانية تسأله :

تقول الى من تقطع البر صادياً   فقلت الى محمود بحر المواهب

وقد يعتمد الموشحات وسيلة مدح ، فهي لم توجد لتغني جمال الطبيعة ، ومجالس اللهو ، فالاندلسيون قبله مدحوا بها الامراء والقادة ، وهو هنا يمدح أحد اعيان عصره بخمسة عشر سمطاً ، تأتلف في موشحة يبدأها متغزلاً وينتهي بها مادحاً :

لا كمن يتلو علينـا نسبا   طيباً وهو عن المجد رقود
كلما قرّض جداً وأبا   سالفاً أنشدته نعم الجدود
فارس يحكي اذا قبل البدار   جده الكرار في يوم المغار
وله سيف يحاكي ذو الفقار

الرثـاء :

تتبع دراسة المدح بفن الرثاء لانه في الواقع مدح ، ولكنه للأموات ، وقد يكون رثاء ابراهيم سياسياً ، فيندب الأمراء ومشايخ عامة ، وقد يرثي أساتذته وشيوخه ؛ انما الرثاء السياسي لديه يخرج عن كونه تفجعاً على شخص واحد ، بل ان الفاجعة التي حلت بوفاة ناصيف النصار أمير الجبل ، هي شاملة عمت البلاد وأردتها في هاوية من الذل ، بعد تغلب الجزار ، فانقلب الرثاء الى بكاء ، وتأثر على الوضع التي صارت اليه البلاد مغنى للجزار ومغنم ، فبيوت العدل خاوية خالية ، حلها الجور بعد فرار أهلها ، فلا كريماً تلقى ، ولا عالماً بقي للهدى ، وقد كانت من قبل مأهولة :

وعهدي بها مأهولة وربيعها ... على كل مرتاد العفاة محرّم
وكان لها من آل نصار صارم ... صقيل وسهم لا يطيش ولهذم
هو البدر وافاه المحاق وانما ... يكون خسوف البدر وهو متمم

واذا بكى مجداً مكلوماً، وعزاً سالفاً، فقد يبكي شيخاً مربياً، تردد القوافي فضله، وحبراً اهتز مجد العلم لفقده، فلا عجب من دمعه السخي، اذ تفطر فؤاد المكرمات وذبلت رياض الفضل، واصبحت دموع عيونه وقد كانت لؤلؤاً، دماً ياقوتي اللون وعنبر فوده كافوراً:

فيا قبره واريت منه مهذبا ... صقيلاً بأسرار العلوم مجوهرا
تحوّل عن دار الشقاء مكرماً ... وصار الى دار النعيم مطهراً

الوصف وتصوير الاوضاع:

أطل بعينه وبصيرته على أوضاع قلقة في جبل عامل، حيث يحاول امراؤه انتشال استقلال بقعة من أيدي الولاة، وطمع العثمانيين، وكم قامت معارك بين العامليين وولاة عكا، وصيدا، تذكرنا بنضال فخر الدين في سبيل حرية البلاد واستقلالها، وان حفظت وثائق التاريخ معاناة أمير الشوف وجهاده لبلوغ الاستقلال، فان الأدب في جبل عامل حفظ معاناة الجماهير العاملية، وشيوخ المنطقة لمرارة المطالبة بالحرية ولقد حركت المعارك المتكررة شاعرية الشعراء، فوصفوها مدققين وكأنهم عاينوا الوغى، وقد رسم لنا ابراهيم يحيى لوحة لحرب شعواء، أغار فيها العامليون بقيادة ناصيف النصار على اعدائهم، يعتلون جياداً تثير سنابكها نار الحباحب، بحسام أفلقت العدو فراغ كالثعلب منهزماً فبات:

كأني بهم عند المضيق وقد هوى ... هنالك رأس القوم من غير ضارب
فلست ترى الا سلاحاً على الثرى ... وخيلا بها قفر الى كل راكب
وأعجب شيء أن خمسين فارساً ... تمزق ألفي فارس بالقواضب

ان ابراهيم يحيى ليس كالحاريصي، لا يتوقف طويلاً عند الوصف، فقد تعلق

هنا بمرحلة من مراحل المعركة التي هي الانتصار، ولكنه قد صور أوضاع الجبل وما حل به من الهوان وتفريق الخلان، فقد تبدد الاهل وصار الامر اما باق خائف، يحاول الهرب من البلاد، أو شهيد قتل:

وصيرهم ما بين حي مروع ... يطير مع العنقاء حيث تطير
وبين قتيل يشهد الله أنه ... شهيد له قبل النشور نشور

وقد يطرق الشام هاربا، فلا تحجب الهموم التي ملأت صدره عينه عن النظر، واستعذاب الجمال، فيوكل للشعر تصوير الجنان ووصف رياض دمشق، التي يحاول أن يضفي شيئاً من صفات الانسان عليها، فلها من الانثى حسن الغادة تتبختر في ثوب جميل قرب انهار صافية، عندها رياض لو مر قربها نسيم خفيف أثارت آهة المشتاق، وحركت حنين المتيم، فدمشق جنة جميلة، ولكن لو امتنع عندها الفناء:

هي الغادة الحسناء ترقص فرحة ... فينثر دينار عليها ودرهم
تبارك من أولى الشآم محاسناً ... غرائبها يمن لمن يتشأم
هي الدار نعم الدار لو أن عيشها ... يدوم ولكن الفناء محتم

الحنين وتذكر الاحباب:

لعل أكثر شعره صدقاً في العاطفة وجلاءً في الموضوع والتعبير هو شعر الحنين، فقد نكب بفراق أكره عليه، وكم ايد للنكبات على الشعر والادب، فكلما أمعنت النكبة في القسوة، وحركت بنا من العاطفة أعماقها، كلما ازداد زناد الشاعرية أواراً، فيخرج من الشعر ما هو ذوب لجين، ولقد نكب جبل عامل بضربة قاصمة شردت أهله وأعيانه، وكان ابراهيم أحد هؤلاء المشردين فماذا فعل في غيابه المكره عن وطنه:

أكفكف دمع العين وهو غزير ... واكتم نار القلب وهي تفور
وانتشق الارواح من نحو عامل ... وفيها لمثلي سلوة وسرور

منازل أحباب إذا ما ذكرتهم ... شرقت بماء المزن وهو غبير
ولي عندها أفلاذ قلب تركتها ... ومنها صغير باغم وكبير

وان دمشق الجميلة التي وصفها معجباً بمحاسنها ، لم تمنعه من تذكر وطنه ، فقد سئم مقامه في الشام لأنه أسير غربة وفراق ، وهو يقول وقد أثر فيه الفراق :

أروح وأغدو ظامياً في ربوعها ... وللماء حولي صيحة وخرير

وتطول غربته ويشتد ألمه من الفراق ، لحرمانه لذائذ العيش الهنيء في وطنه، بين فتيات وفتيان ، فهو يتذكر أياماً عذاباً بين الجبال والهضاب ، فقد كان له في هذه المرابع أوقات طيبة قضاها بين الرياض ، والورود الزاهية مع عز موفور :

من لي برد مواسم اللذات ... والعيش بين فتى وبين فتاة
ورجوع أيام مضين بعامل ... بين الجبال الشم والهضبات
عهدي بهاتيك المعاهد والدنى ... فيهن مثل الحور في الجنات
والشمل مجتمعُ واخوان الصفا ... أحنى من الآباء والامات

ولماذا يحن الى جبل عامل وما يتذكر فيه ، من مطارح لهو ولذات بريئة ، بل يتذكر حياة سليمة كريمة في وطن حافل بمجد عزيز ، يزدحم بكرام النفوس وأبطال فرسان وعلماء ، واحدهم قاموس معارف ، وزهاد لفتهم الورع وخشوا الإله فبا :

لهفي على تلك الديار وأهلها ... لو كان تنفع غلتي لهفاتي
خطب دعاني للخروج من الحمى ... فخرجت بعد تلوم وأناة

وكأنما كتب على صاحبنا معايشة الفراق ففي غربته أصيب بنكبة تشتت جديدة ، فقد نزل الطاعون بدمشق سنة (١٢٠٧ هـ – ١٧٩٣ م) ، فتفرق اخوانه في جهات شتى هرباً من الامراض وشطت منازلهم مرتحلين الى الحجاز ، وآخرون في العراق ، ومنهم من اعتزل في قرى الشام فألهب هذا الفراق شاعريته :

خليلي إن شطت منازل من أهوى ... فلست أبالي والفؤاد لهم مثوى
ترامت بهم أيدي النوى خيفة الردى ... فشتوا على رحب الفضا غارة شعوا

وكثيراً ما شكا دهره لهذا الفراق فيأمر بالصبر نفسه ، فاذا كان لها بالشكوى راحة فهي لديه ألم ممض والى من يشكو :

الى الله نشكو لا الى الناس إنه ... بنا من ذوي القربى أبر وأرحم
فراق ولا وصل وفقر ولا غنى ... وخوف ولا أمن وضد محكم

الغزل :

لا يمكن أن نقع لدى الشيخ ابراهيم إلا على غزل تقليدي ، لم يشارف التجربة ولا المعاناة ، فبات نسيبه مقتصراً على مقدمات قصائد أكثرها في المديح والحنين ، حيث يطرح من عاطفته المشبوبة بفراق ممتد الأيام على النسيب ملامح غزلية وهو لا يدرك التشبيب في هذا الغزل ، فكله شوق مبرح ، وتذكر ديار ، ويعود هذا الغزل بلفظه او مفردات قصيده الى عهود متقادمة من أدبنا العربي ، يتذكر رياضاً عند العذيب وبارق اجتمع حول مياهها عشاق وريم ، تأنف أن تشبه بالهلال وهي رهينة خدر مسجف ولكن :

اسر هواها والدموع تذيعه ... وهيهات أن يخفى على الناس مدنف

وقد يهجر حبيبته عند قربها ويقصدها ودونه أخطار ، ويعرض لعفته عن رشف ثناياها ، وفي هذا التناقض من حاله يطلب خمرة من صاحبه :

خليلي قوما وأسقياني سلافة ... لها في عظام الشاربين دبيب
وخمراً تجلي في الكؤوس كأنها ... دموع محب شط عنه حبيب

ومن أجمل شعره في الغزل ما صور به ابتلاءه بحب عميق في غربة مشجية وبات قلبه رهين غرام ، ومحط نيران وجد ، يوريها الشتات ويسأل مي التي يهوى رأفة به وخشية من الله ، في فتى ، يمسي ويصبح على أخبار القوافل ، فهو في

فارس وقد شط مزاره ، وتمنى لو أتيح له أن يعود لأحياء الغانيات الجميلات :

وانزل في الحي الذي ترتع المها   به والظباء الحاجريات تسنح
واصبح في الاحباب حيث يلفني   وإيام روض من العيش اصبح

الشعر الحكمي :

ليست الحكمة عند ابراهيم يحيى فناً مستقلاً ، واضح المعالم ، سري المنزلة ، إنما هي شذرات آراء ، ونتف أبيات تضيع في خضم قصائده الطوال ، ولا تزخر بنظرة عقلية إنما هي اكتناف الشعر لمتداول القول ، تكسبه الصيغة وجوده ، وتحفظ له كيانه ؛ وابراهيم يحيى ليس شاعر حكمة ، فنحن لا نكتسب فكرة جديدة مثلاً حين يذكر صعوبة يوم القرى على البخيل ضمن قصيدة طويلة قالها مادحاً الكرم :

يرى أرغد الأيام يوم مواهب   ويوم القرى عند البخيل عصيب

وقد يكون عطاء الكريم كطعم المن مستعذباً بينما عطاء سواهم ليس إلا كسُم رقطاء :

فمنْ كرام الناس كالمن طعمه   ومنْ سواهم مثل سم العقارب

وخطته في الحكمة أنه يصوغها في الشطر الثاني من البيت ، بينما شطره الاول يشتمل على ذكر حادث او شيء يتعلق بشخصه ، فيكتسب العجز من البيت صفة الشمول . وهو قد ترك الحياة الطيبة ، وهل تفارق اللذائذ :

وتركته فوق الهوان وربما   ترك النمير مخافة الهلكات

ولقد غادر الشاعر وطنه الذي يحن اليه في غربته ، ويتمنى أبداً أن يعود اليه ، ولكن هذه الدار أصبحت محط هوان ، وهل يلذ العيش قرب الغاشم :

ترحلت عن دار الهوان وقلما   يطيب الثوى في الدار والجار أرجم

هذه طريقته في الحكمة يلجأ اليها في شعره كمحطات يستمد من النزول عندها

لفكرته تأكيداً ويكسبها صوابا ، فهو يذكر الخاص ويتبعه بالعام تقوية لما سبق ، وكل هذه الحكم حسبة في تركيب فكراتها ، لانها وليدة تجربة معتادة ومتعارفة ، وليس فيها من النظر العقلي المجرد ما يجعلها في مصاف الحكمة عند المشاهير من أصحابها .

التاريخ الشعري :

ولعل من مظاهر الصنعة الأدبية في عصور الانحطاط للأدب العربي عامة ميلهم الى تحميل الشعر مهمة تأريخ الأحداث والوفيات ، وليس هذا الدور بالنسبة للأدب في جبل عامل عهد انحطاط ، إنما هو متأثر بكثير أو قليل بالوضع العام للنشاط الأدبي في العالم العربي ، وقد كثر هذا النوع من الشعر في ديوان الشيخ ابراهيم يحيى ، فتراه يميل الى تأريخ كل حادثة من المهم في حوادث عصره ، أو وفيات كبار الزعماء والرجالات . فهو يؤرخ مقتل أحمد الزعفرنجي من رجالات الشام وقد كان مسجوناً في قلعة دمشق :

فقال مبشراً بالخير أرخ   أجل قتل اللعين الزعفرنجي

(١٢٠٦ هـ)

أو انه يؤرخ مقتل شيخ مشايخ جبل عامل ناصيف النصار :

وتداولتنا بعده أيدي العدا   من فاجر أو غادر أو أهوج
هي دولة عم البلا والظلم في   (تاريخها والله خير مفرج)

(١١٩٥ هـ)

الاسلوب :

يجد الأسلوب في أدب ابراهيم يحيى نهج تقليدي ، وثقافة دينية ؛ أما المظهر التقليدي فواضح في الخطوط الكبرى التي بنى عليها قصائده من توفر المواضيع في القصيدة الواحدة ، وبراعة الاستهلال ، وحسن التخلص الى الأغراض الأخرى .

وأما الثقافة الدينية ، فأثرها بارز في مدحه الديني ، والمفردات المتناثرة في تضاعيف شعره ، ولقد اشتمل ابراهيم على ثروة لفظية ، فاقت مواضيعه ، ففاض اللفظ على المعنى في القصيدة او البيت الواحد، وامتنع عليه الإيجاز، فاعتمد الاطناب ليصرف عن نفسه الكثير مما تزخر به من مفردات ، فهو يحاول أن يمدح استاذه، فيصفه بالعلم والكرم بمجموعـــة من الأبيات لا يزاد على صدر البيت الأول أي معنى جديد :

هو البحر علماً والسحاب مواهباً   فما الناس إلا سائل أو مسائل
فتى ترد الأعـــلام أبحر علمه   فتصدر عنها وهي منها نواهل

ولعل ميله الى الاطناب ما جعل قصائده في المدح والرثاء طويلة تقصر عنها اشعاره في الذكرى والحنين ، التي قد يدركها الايجاز او المساواة ، فان فنون المدح والرثاء عباب واسعة ، يمكنها أن تحوي الوفير من الالفاظ والنعوت دون ان تسيء الى الفكرة . وهناك ملاحظة مهمة في اسلوبه هو أنه يتعلق بالمحسوس حتى نراه يرغب في تشخيص المبهم المجرد فللبعاد أسياف وللنوى أيدٍ .

قال :

فيا ليت شعري هل يبل بقربكم   فؤاد بأسياف البعـــاد مفرح

أو قوله :

رمت بهم أيدي النوى خيفة الردى   فشنوا على رحب الفضا غارة شعثوا

وقد نجد في شعره تقسيماً جميلاً ، تنبعث منه موسيقى عذبة ، ففي الشطر الواحد تتوالى من البيت اسمـــاء وأفعال ، ونعوت ، يقابلها في العجز بعددها وبترتيبها أفعالٌ ونعوت ، مثلاً :

اكفكف دمع العين وهو غزير   واكتم نار القلب وهي تفور

وتزدحم في شعره كما مر معنا الفاظ قديمة كالعذيب والنقا ، كما يحاول أن يرصّع

ابياته بكلمات من عالم الفقه والاصول تشير الى اسماء عديدة من المؤلفات الفقهية :

خبير (بتحرير) (القواعد) سالك   (مسالك) مأثور (الشرائع) فاضل

ولبراعته في اللغة وطول باعه في قواعدها والبيان والبلاغة ، نلاحظ في هذا الشعر من وجوه البيان وألوان المجازات والاستعارات ، ما دفعه اليه اضطلاعه الواسع بالعربية .

ولا نجد في شعره هفوات تنزل أدبه من عليائه ، بل لا نجد تفاوتاً في هـــذا الشعر الذي يشيد على مستوى واحد ، فلقد شغف طبعه بمماشة الرفيع من أدب الماضين ، بانشاد أغراضه الخاصة وبرع في تتبعه للسابقين .

آراء النقاد فيه :

قال سليمان ظاهر :[١] « شعره من النمط العالي وهو متفوق بروحه الشعرية واساوبه على روح العصر الذي نشأ فيه بين شعراء جبل عامل والشام ، وبرع في فن التخميس براعة بذ فيها الأوائل والأواخر ممن ضربوا في هذا الفن بسهم وافر ، حسبك انه انصب على ديواني الشريف الرضي والامير أبي فراس الحمداني فخمس جل الأول والثاني برمته مضافاً الى ما رصّعه به من القصائد المشهورة لكثير من مشاهير الشعراء كالبردى والتائية لابن منير طرابلسي وقصيدة ابن زريق » .

وقال محسن الامين :[٢] « ولا يخلو شعره من نكتة بديعيــة أو كناية أو إشارة الى واقعة ، لكن كثيراً من شعره محتاج للتهذيب فيظهر أنه قلما كان يعيد النظر فيه ، وكانت له اليد الطولى في التخميس » .

مكانة الشاعر وقيمته :

يحمل ابراهيم يحيى على عاتقه دون تكلف تصوير عصره بمناحي الفكر

١) العرفان ١١/٦٨ ٤ .
٢) أعيان الشيعة ٥/٤٤٨ .

والاجتماع فلقد امتد عطاؤه الأدبي ضمن اطار زمانه ومجتمعه ، والقت سيرته على انتاجه ضوءاً من الوضوح . فكان بمجمله في حياته وشعره أبرز الوجوه، وأشدها تعبيراً عن هذا العهد في ربوع عاملة . وهو بالنسبة لحركة الفكر عامة احدى الواحات التي استظل عندها الادب في عصور الانحطاط، فأومأ بوجوده وبأمثاله الى دوام حياة الفكر العربي نازلا معتزلاً في الربوع العاملية من لبنان .

زَيْنَب عَلي فَوّاز

١٢٦٢ هـ – ١٨٤٦ م

١٣٣٢ هـ – ١٩١٤ م

●

نشأتها وحياتها :

ولدت زينب بنت علي بن حسين بن عبد الله بن فواز العاملي في بلدة تبنين ، سنة (١٢٦٢ هـ – ١٨٤٦ م) ، وكانت تبنين مركز حكم المشايخ من آل علي الصغير نظراً لأهمية قلعتها ، وقيمة بنائها في العهود الصليبية . ونشأت زينب لأبوين فقيرين ، فالتحقت بخدمة دار الشيخ العاملي علي بك الاسعد ، وتلمست فاطمة زوجة البك بوادر نبوغها ، فاحتضنتها واختصتها لنفسها ، وكانت فاطمة[1] تجيد الشعر وتحب الادب والعلم ، وتتصل بالعلماء فاكتسبت من معارف أساتذتها الكثير ، ونما فيها تعشقها للعلم والادب وفي مطلع صباها زوجت زينب بمحمد الحمود أحد خدم القصر ، وكان سائساً للخيول[2]،غير أن الاختلاف في الطباع والمستوى والتفكير حال دون دوام الزواج فطلقت . ثم هاجرت الى مصر وتلمذت في الاسكندرية على الاستاذ حسن حسني الطويراني ، ويبدو أنها تزوجت خلال هذه المدة بأميرال في الجيش المصري . وما لبثت أن طلقت ، وهناك كتبت واشتهرت ثم زارت دمشق وتزوجت بالشاعر الدمشقي أديب

١) زينب فواز، الدر المنثور، ص ٤٢٨ . ٢) أعيان الشيعة : ٣٣ (الترجمة) .

نظمي وافترقا بعد قليل ، فعادت الى القاهرة لتقيم بها وتنقطع الى الكتابة والتأليف ، وتوفيت في القاهرة في ٢٠ صفر ١٣٣٢ هـ — ١٩ كانون الثاني ١٩١٤ م وكتبت عنها الجرائد والمجلات العديدة وقت وفاتها وبعده[١]. ولم تخلف بأبناء من بعدها ، وماتت وملء قلبها الحسرات لتكون أماً ، ولكنها استعاضت عن ذرية الدم بذرية القلم .

ثقافتها ونتاجها :

سلكت ثقافة زينب فواز خطاً تصاعدياً نامياً ، يمتد علاءً ويكثر على المعارف اشراقاً، فلقد بدأت متعلمة بجدود في لبنان ، وانطلقت في الأدب في الاسكندرية ، متعمقة في درسه ، وأخذت بالفقه وعلوم الدين ، ونهلت من ينابيع التاريخ بأسفاره المراجع ، وألمت بكل علم بدر في عصرها ووسطها ، حتى بالنجوم والفلك ، وهكذا تكونت لديها ثقافة نامية ومتزايدة ، فأنتجت في مجالات شتى أطيب الثمار ؛ كتبت في الاصلاح الاجتماعي بوجوهه المتعددة ، وفي التاريخ والأدب والشعر ، وكانت في ميدان الصحافة محررة قديرة لا تجاريها البارعات في حاضرنا ، وكان لها من الآراء النيرة في المجالات الانسانية التي تعتبر فيها احدى السباقات الناجحات .

آراؤها في الاصلاح الاجتماعي :

في الخفي من ذهنية زينب فواز جذوة فكر ، واستعداد فطري ساهمت ظروف عديدة لاخراجه من ظلمة الضمير الى ضوء الانتاج ، حنت عليها يد مبدئها فابعدتها عن أمية الحرف ، ودفعها الفضول بأن تتابع في الاسكندرية ودمشق نشاط العلم والأخذ من معينه فكان لها . وعندما انطلقتا من وسطها الاجتماعي في جبل عامل وكان على تأخر وفقر في نهاية القرن التاسع عشر[٢] الى

١) الهلال ٢٢/٣٨٦ .
٢) Lortet : La syrie d'aujourd 'hui, page 134

مصر وكانت قد أخذت بأسباب النهضة التي أناخت في رحابها منذ سنة ١٧٨٩م وأطلت على تطور اجتماعي ، أدرك صفوف أوساط كثيرة ، وعاشت تراملها العلية من المجتمع المصري آنذاك ، والفئة المهتمة بشؤون الفكر من أدباء وصحافيين ، واطلعت على النهضات النسائية المعاصرة ، ورقي المرأة الأوربية ومساهمتها في الحياة الاجتماعية ، ازداد شعورها بالفارق الكبير ، بين وسطها الاجتماعي وأحلامها لنهضة المرأة ، وفي ذاتها ميل خير ، فانطلقت تمعن في الاصلاح الاجتماعي ، بنفس متعطشة للتحرر ، فكتبت في المجلات ، ونشرت في الصحف في سبيل غاياتها الاصلاحية المتعددة المواضيع :

١ — المرأة وتحررها :

نتاج زينب فواز إلا قليل ، نـاتي الموضوع ، فلقد أدركت الهوة السحيقة ليس بين المرأة العربية والأوربية ، بل انها بعيدة ايضاً بين الرجل والمرأة في المجتمع الشرقي ، فكانت أولى دعواتها الى تعليم المرأة والاهتمام بشؤونها كركن أساسي في بناء المجتمع ، فانه « ما من أمة انبعثت فيها أشعة التمدن في أي زمان الا وكان للنساء فيه اليد الطولى والفضل الأعظم ، كما لا يخفى ذلك على من اطلع على تواريخ المصريين واليونان القدماء، فكل هذه الأمم تعتبر النساء كعضو لا يتم العمل إلا بمساعدته »[١] .

وهي تدفع الرجل وتستثيره للمساهمة في تعليم المرأة ودفعها في تيار النهضة لما في ذلك من فائدة له ، وكثيراً ما خاطبت الرجال : « كيف تأملون النجاح لأولادكم والراحة لأرواحكم وأنتم تتقلبون على فراش الهمجية والجهل »[٢] . لأن الأم معهد تربية الأجيال الصاعدة ومن هذا المعهد يغتذون ويأخذون اسباب نهضتهم ، « فكيف يصلح شبابنا وقد تغذوا بلبان الجهل ونشأوا في مهد الهمجية حتى اذا شب الطفل في حجر امرأة جاهلة أخذ عنها ما درسته عن أمها ، من

١) زينب فواز ، الرسائل الزينبية ، ص ١٠ .
٢) المرجع نفسه ص ١٠٣ .

الحسد والشحناء والبغضاء والتعصب العائلي »[1] .

وتخطو زينب أبعد من هذا فهي لا تقنع فقط بتعليم المرأة وتحريرها من الجهل والتأخر ، بل تعلو بها لتساوي الرجل في الحقوق والواجبات ، وتشارك الأعمال خارج البيت وشؤون المنزل ، وتطالب حتى بالحقوق السياسية لها ؛ وكانت في دعوتها هذه قد سبقت الطالبات المجددات في العالم العربي ، وقالت عن حق لم تتح لنساء أوربا الا منذ فترة بسيطة ، وكيف لا تكون المساواة بالحقوق والسماح لها بالعمل ، حتى في عالم السياسة ، « والرجل والمرأة متساويان بالمنزلة العقلية ، وعضوان في جسم الهيئة الاجتماعية لا غنية لأحدهما عن الآخر ، فما المانع اذاً من اشتراك المرأة في أعمال الرجال ، وتعاطيها الأشغال في الدوائر السياسية وغيرها ، متى كانت جديرة لأن تؤدي ما ندبت اليه »[2] . وهي تعتبر نشاط المرأة في العالم موحد الجهود والغاية ، لا تتطلع فقط الى المرأة في مجتمعها ، بل الى شؤون المرأة الأوربية شؤونها ، فهي مثلاً تدافع عن نساء انكلترا الطالبات بحقوقهن السياسية وترد على معارضيهم[3] ، وتعتقد بأن تحرر المرأة أمر حتمي ، « ولا بد من المطالبة به وان اعترضتها الصعوبات وهزىء منها المتفرجون من الرجال ، « فان مثابرة المرأة على طلب التقدم حتى تنال حقوقها لا يعد ذنباً بل يفتخر بها مدى الدهر ، ولتكون مذكورة بلسان من الشكر على فتحها باب النجاح لأخواتها » .

وتراقب الحركة النسائية في أوربا وأميركا ، وتتصل بالمشرفات عليها ، فتكاتب رئيسة القسم النسائي في المعرض الأميركي (شيكاغو)[4] وتراسلها في شؤون المرأة وتهتم بالرد على معارضي اعطاء حرية المرأة من رجال أو نساء ، وقد ردت في شأن اشتغال المرأة بالشؤون السياسية على الدكتور أمين الخوري في اعتقاده أنها للرجال فقط لا للنساء[5] ، وعلى السيدة هنا كوراني في مقالاتها ضد اعطاء

١) الرسائل ، ص ١٩٢ - ١٩٤ .
٢) الرسائل ، ص ٢١ .
٣) الرسالة الخامسة .
٤) الرسائل ، ص ٥٩ و ٢١ .
٥) الرسائل ، ص ١٩٩ .

الحق السياسي ، والسماح بالعمل خارج المنزل للمرأة ، نشرتها في جريدة لسان الحال البيروتية[1] .

السفور والحجاب :

تدعو زينب فواز المرأة الى الانطلاق في دنيا الحرية والعلم والانتاج ، فلا بد أن تكون من دعاة السفور ، كما رأى الكثيرون من معاصريها وبعدها بقليل ، كأحمد شوقي ، وقاسم أمين – صاحب كتاب المرأة الجديدة – والذي رأى حوله كثيرون يقولون قوله ، ولكنهم لا يجرؤون على مصادرة الرأي العام ، فتقدم هو ونشر كتاباً سماه تحرير المرأة[2] . رغم هذا نرى أن زينب فواز تقول عكس معاصريها ، من دعاة النهضة النسائية ، وتتمسك بالحجاب ، تؤمن فيه كأمر يسلم به . ولقد سألتها رئيسة القسم النسائي لمعرض شيكاغو عن عدم حضورها اليهم فشرحت لها رأيها في تحريم الدين مخالطة الرجال ، متبنية في ذلك رأي الفقهاء متوسعة في الأمر لأن « الشروح المختصة بأمر الحجاب كثيرة والعادات جمة ، قد اكتفيت منها بهذا القليل ايتها العزيزة الفاضلة »[3] ، واكثر من هذا فهي لا تجد أي تضارب بين الحجاب والنهضة « فالحجاب لا يمنعنا من الاشتغال بأعمال الرجال »[4] .

٢) نقد الاوضاع الاجتماعية :

ان الشعور الاجتماعي لا يمكن أن ينقسم ولا يتجزأ ، وقد تكون زينب فواز بدافع من واقع المرأة في عصرها ، وبدافع من فطرتها كامرأة ، عنيت أشد ما تعنى بشؤون جنسها ، ولكنها لم تهمل نقد ما تراه سيئاً في مجتمعها ، وتسعى لتقويمه ، وقد نزلت الى صفوف المجتمع ، فتعرفت الى الكثير من عادات النساء والرجال التي تنمي عن الاستسلام لارث غني بالتقاليد السقيمة ، والاوهام

١) الرسائل ، ص ٥ ، ٩ ، ١٠ .
٢) زيدان ، آداب العربية ، ٣١٦/٤ .
٣) الرسائل ص ٧٤ .
٤) العرفان ٢١٧/٢ .

المسيطرة على العامة ، وفي تعرضها لهذه الأمور تكشف عن الأوضاع القائمة في مجتمعها المملوء بالمفاسد والمفسدين الذين يزيدون سوء الحال كعادة تحضير الارواح وتلبسها أجسام البشر ، والارواح هذه هي ارواح الولاة وأصحاب الطريقات ، وهي تدل على معتقد واه اخذ بعقول النساء خاصة ، فعرضته زينب فواز على قرائها بقصة يشمئز منها الناس ، لما تبديه من مساوئه ويسمى هذا العمل بالزار ، وقد كتبت في الصحف مقالات كثيرة ومن أشهرها ما كتبت بعنوان كشف الازار عن مسألة الزار [1] .

وعرضت لما كان يسرح في ربوع مجتمعهم من الدجالين والسحرة ، وكيف يوهمون الناس ، وتثار في وسطها مشاكل اجتماعية عارضة ، تطلب من الدولة التدخل بمعالجة أمور الخادمات مثلاً ، وحاجة البيوت لهن وتفشي الآثام والسرقة بينهن ، فلا بد من تنظيم أمور الخدم [2] .

وهي تدعو للفضيلة والتساهل بين الاديان وعدم التعصب ، وتأسيس جمعية تسمى جمعية الرفق بالانسان [3] .

الدعوة للخير الاجتماعي :

وكأنها ذات عين بصيرة واذن تنفذ اليها الأخبار ، تتسامع الأنباء البعيدة والقريبة ، والواضح منها والخفي، تسارع زينب فواز بدافع من نضالها الاجتماعي الى ابداء الرأي ، واصلاح الامر ، فهي تدعو الى البر والاحسان ، ومساعدة الفقراء ، وتوزيع عائدات الوقف الخيري على المساكين او تستثير الاحسان لبناء الاوقاف [4] .

ويقع في عام (١٣١٢ هـ) زلزال بالآستانة فتكتب زينب فواز في جريدة المؤيد في العدد ١٣٤٧ ، تدعو المحسنين لاغاثة المصابين ، وكانت تدافع في مقالاتها عن الحقوق الضائعة ، وكثيراً ما وقعت رسائلها في الجرائد والمجلات بحاملة

١) الرسائل ، ص ٤٧-٤٨ و ١٥٨ .
٢) الرسالة ٤٧ ، ص ١٥٢ .
٣) الرسالة ٥٢ .
٤) الرسالة ٣٤ ، ص ١٢٣ .

لواء العدل [1] .

وتعالج كل طارىء من المشاكل وجديد ، فهي تدعو الى التردد على دور التمثيل وتشيد بقيمة هذا الفن واثره في المجتمع ، اذ يبعد العامل المتعب من شغل نهار كامل ، عن الوقوع في نهاية يومه في احضان الخمرة واللذائذ المحرمة ، ويستبدلها بفضائل وعظات [2] .

أثر الدين في ارشادها الاجتماعي :

للوصول الى غايتها من النصح ، وتأثيرها في وسطها الاجتماعي ، كانت لا تتعدى في مجتمعنا الوسائل التي يعرفها ،معتمدة على الدين الذي يؤثر في نفوسهم بوضع آراءها موضع التنفيذ ، وهي في قرارة نفسها تود أن تحافظ على معطيات الشرع الاسلامي. فلمعالجة مشكلة الزار وتحضير الأرواح ،ترى بطلان هذا الرأي بالنسبة للأديان وتحريم الأخذ به [3] . وبدعوتها الى تحرر المرأة لا ترى في ذلك خروجاً عن الدين كما ادعى بعض ناقديها ، وهي ترى ضرورة تعليم الدروس الدينية في المدارس ، بعد أن انقلب شباب المجتمع على الدين ومظاهره وحتى صار اذا ذكر الأزهر الشريف في مجالسهم اشمأزوا من هذه الذكرى » .

وترى زينب فواز كثرة العيوب الاجتماعية ، والمفاسد الخلقية ، فتحاول معالجتها وتجد « الشفاء من داء التفرق والحسد ، يزول بأن تدفنوه بين دفتي المصحف ، وتغسلوه بصابون الأحاديث النبوية ، وتتحصنوا من هول هذه الحيرة بالقواعد الشرعية » [4] .

زينب فواز المؤرخة :

العناية بالتاريخ ظاهرة واضحة في نتاجها وقد كانت قاعدة في ثقافة

١) الرسائل ، ص ١٠٩ .
٢) الرسائل ، ص ٦٠ – ٦٣ .
٣) الرسالة ١١ و ١٢ .
٤) الرسائل ، ص ١٩٧ .

وتآليفها ، عدا عن رجوعها اليـه في أمثلتها ونصائحها ، وفي قصص العصاميات وتراجمهن ألفت أضخم سفر لها أسمته (بالدر المنثور في طبقات ربات الخدور) ، ترجمت فيه لنساء من التاريخ القديم والحديث . هذا عدا عن كتابها المباشر في التاريخ الذي أسمته (مدارك الكمال في تراجم الرجال) ، عدا أن كتابها (الجوهر النضيد في مآثر الملك الحميد) ،وفي أدبها الروائي تعتمد التاريخ جسراً الى غايتها التهذيبية ، والتوجيه للفضائل ، فروايتها حسن العواقب تعتمد على التاريخ العاملي القريب ، والملك قورش على التاريخ القديم ، وهي تعتبر « علم التاريخ أحسن العلوم وأفضل المنطوق والمفهوم ، كثرت رجاله واتسع نطاقه ، وانتشرت في الخافقين صحفه وأوراقه » [١] .

زينب الصحفية :

أسهمت زينب فواز في نشاط الصحافة في البلاد العربية في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان في مصر جملة عديدة من جرائد ومجلات ، حررت فيها زينب فواز وكتبت مواضيعها الاجتماعية . وقد نشرت رسائلها في أكثر من عشرة جرائد كانت تصدر في مصر وبيروت ودمشق كجريدة لسان الحال البيروتية ، وجرائد : المؤيد – الاتحاد المصري – النيل – الأستاذ – فرصة الأوقات – الفتاة – الأهالي – اللواء – رائد النيل – ؛ وهي صحف مصرية ، وجريدة الشام كما كتبت في مجلات : الفتى – المهندس – أنيس الجليس – المنار .

أما روحها الصحفية فكانت تظهر في مقالاتها العديدة وخاصة ما تقوم فيه بتحقيق صحفي (ريبورتاجات) ، وقد قدمت لجريدة الفتاة تحقيقات تشبه تحقيقات اليوم ،ويعتبر عملها هذا سباقاً في مضماره فقد كتبت عن حفلة عرس كريمة هانم إحدى بنات الطبقات العليّة يومها ، ودخلت بيتها فوصفت غرفها وأثاثها الجديد في ثلاث رسائل صدرت في الأعداد ٣ – ٤ – ٥ لجريدة الفتاة سنة ١٣١٠ هـ [٢] .

١) الدر المنثور ، ص ٥ . ٢) الرسائل ، ص ١٢٥ – ١٣٦ .

فواز الأديبة :

وضعت زينب أفكارها بصورة قصصية ، ولعل رواياتها خير ما يمثل أدبها ويضعها في مصاف الأديبات في القرن التاسع عشر ،وكان قوة الفكرة فيه تتعدى براعة التعبير ، والقصة عندها لا تشتمل على الشروط الحديثة فالغاية منها ابراز الفضائل الأخلاقية لديها . ومن رواياتها الأدبية :

١ – رواية الملك قورش :

مادتها التاريخ وغايتها تبيان تأثير الأنثى وانزلاق الرجل في هواها ، فهي من التاريخ تعرض لسقوط دولة الماديين ، وحلول دولة الفرس مكانها ، واستيلاء الملك قورش عليها واتساع المملكة وبلوغها نينوى وبابل ، وقد كان هذا الفتح السريع بتأثير الغرام وفتك الأجفان السقيمة بقلوب الملوك العظام ، وفي روايتها هذه ابتسار وإيجاز في الفصول الأخيرة مما يسيء الى روعة النهج القصصي [١] .

٢ – حسن العواقب :

كسابقتها تعتمد على التاريخ موضوعاً ، وعشائر جبل عامل هم مدار هذه الرواية ، وقد عاشت الأديبة في ظلالهم مدة طويلة فصورت الخلال والصفات الرائلة والشهامة العربية .

أما رسائلها فتكشف عن أدبها وتعلقها بجميل الألفاظ ، هذا عدا عن مواضيع نثرية عديدة تتعرض لها ،ومنها ما يبدي عن فكر رفيع يسامت الفلسفة الاجتماعية كاعتقادها بعدم وجود حرية مطلقة في العالم وان تحررت الأشياء فهي خاضعة لقوانين وسنن موضوعة ، نعم اذا طرح الانسان ثقل العالم عن عاتقه وارتضى بما قسم الله له غير مكترث بما يجري وما يقوم حوله كان بذلك حراً [٢] .

١) العرفان ٢٠/٢٢٠ . ٢) الرسائل ، ص ٩١ .

شعرها :

ليست زينب فواز شاعرة مكثرة إنما قد نظمت بعض مقطوعات صغيرة وبعض قصائد تمليها عليها المناسبات وتناظر الأدباء من أصحابها ، وقد رثت أخاها محمداً وكان محامياً في مصر ،وقد توفي سنة (١٣١١ هـ – ١٩٠٣م) بقصيدة مطلعها :

مصاب عظيم الوقع في النفس هائل … وخطب جسيم الصدع للقلب غائل
سأبكيك ما الأطيار تألف وكرها … وما صدعت بين الصدور البلابل

وقد تذكرت خلال اقامتها في مصر وطنها لبنان وجبل عامل ملعب صباها وتبنين وقلعتها ، قالت تناجي القلعة :

يا أيها الصرح إن الدمع منهمل … فهل تعيد لنا يا دهر من رحلوا
قد كنت مسقط رأسي في ربى وطن … ان الدموع على الأوطان تنهمل

آثار زينب فواز :

تركت جملة من مؤلفات تعتبر ذات قيمة تاريخية كبيرة واجتماعية أيضاً ، ومن أشهرها :

١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور :

كتاب في ٥٥٢ صفحة من القطع الكبير طبع في بولاق (١٣١٠هـ –١٨٩٣م) ترجمت فيه لـ ٤٥٦ امرأة من شهيرات النساء ، في العالمين الشرقي والغربي ، وقد اعتمدت فيه من المصادر على أربعين مؤلفاً تعتبر القاعدة في المراجع العربية هذا عدا اعتمادها على المجلات والجرائد ومقالات النساء .

الرسائل الزينبية :

مجموعة رسائل نشرتها في المجلات والجرائد العربية تضمنت مباحث جليلة في

الدفاع عن حقوق المرأة والنهوض بالمجتمع ، وفي الجزء الأول منه ٢١٨ صفحة تضمنت ٧١ رسالة نشرت في الصحف .

ولها روايات ثلاث هي: حسن العواقب أو الغادة الزاهرة، رواية الملك قورش ـ الهوى والوفاء – كتاب الجوهر النضيد في مآثر الملك الحميد ، ومدارك الكمال في تراجم الرجال ، وديوان شعر .

قيمتها ومكانتها :

زينب من الرائدات الأوليات لتحرير المرأة، تعتبر مع عائشة التيمورية وجه النهضة النسائية في ختام القرن التاسع عشر [١] . وهي استعداد عاملي توفرت له اسباب الفكر الحديث ، فانطلقت مع النهضة خالصة من صور الماضي ، تكتب وتؤلف كابرز اعلام النهضة ، ملتزمة في أدبها اصلاح مجتمعها فكان نتاجها في مجمله وعظي الطابع ، شأن الكثير من مفكري عصرها . والحركات النسائية الناهضة اليوم تقطف ثمار نشاط زينب فواز ومثيلاتها .



١) العرفان ٣٧ / ٢٤٣ .

الفصل السادس

دور النهضة الحديثة

- العرض التاريخي .

- عوامل النهضة :

المدارس الحديثة – الصحافة – المطابع – الجمعيات الادبية والمؤسسات الاجتماعية – المكتبات العامة .

- أوجه الحركة الفكرية ومظاهرها :

في الدين والعقيدة والفقه – في علوم اللغة – في الفلسفة والاجتماع – في التشريع – في التاريخ والسيرة .

- النشاط الادبي .

- مرحلة احياء القديم :

ميزات الأدب في هذه المرحلة – لمحات الجديد .

- مرحلة التطور :

الشعر الاجتماعي – الاتجاه السياسي والوطني – الاخوانيات والطبيعة .

- مرحلة التجديد :

- النقد الاجتماعي والأسى الرومانطيقي – الشعر السياسي – الانسانية في الشعر العاملي – التصوير الاجتماعي .

- خاتمة

دورُ النهضةِ الحديثة

في أواخر القرن الثامن عشر ظهرت بوادر النهضة الفكرية في العالم العربي بعد نزول بونابرت مصر عام (١٧٨٩م) ، التاريخ الذي اعتمده مؤرخو نشاط الفكر والأدب حداً لانطلاق النهضة ، وقد استجاب كل من مصر ولبنان لدعوتها ، فولت قبل الغرب وجهيا تكتسب من نهضته نهضة ، تدعمها الدولة ويشجعها الحاكمون في البلد الأول ، وتدفعها الإرساليات الدينية في الثاني ، ترفدها بالمدارس والمطابع والمكتبات ، بينا بقيت سائر الأقطار العربية في غفوتها ، يستفيق بعضها على أثر الصرخات القائمة حول المناداة بالجديد والدعوة للسير في ركابه .

وفي جبل عامل من لبنان ، لم يتوقف الفكر والأدب عن الحركة ، إنما بقي كما سبق له مسترسلاً في اغتراف ثقافته من ينبوع الشرق بتراثه الفكري الكلاسيكي القديم ، ومن جامعة النجف بعطائها في الفقه والتشريع ؛ ديني الطابع كان في نتاجه وتعليمه ، ولم تبرز محاولات للتجديد حتى عام (١٣٠٠ هـ – ١٨٨٢ م) يوم افتتحت أول مدرسة فيه على الطريقة الحديثة ، تساير الجديد ، فكانت الشعاع الخافت الذي أبرز الحد والتاريخ لبدء النهضة في جبل عامل ، التي تأخرت أمداً بعيداً عن النهضة في مصر وفي جبل لبنان والساحل .

وإذا لم يتوفر للجبل العاملي الأسباب التي ازدحمت على أعتاب غيره ، فقد كان يتطلع بشوق الى النهضة الضاربة في القاهرة ، وعلى مرمى حجر منه في العاصمة اللبنانية وفي الجبل اللبناني الذي كان يشهد سباقاً حاراً بين الارساليات المعنة في تعداد الوسائل ومضاعفة النشاط .

وكما كان يمتلك أيضاً الاستعداد اللازم للسير في طريق النهضة قوليه الجديد بأمثلة من نبوغ صارخ ، انطلق يوم توفرت له البيئة الآخذة بالمدنية الصاعدة ، فجدد في الفكر والنتاج .

حسن كامل الصباح [1] مفخرة لبنان باختراعاته اتصل بالغرب طالباً في الجامعة الاميركية في بيروت أولاً ، ثم في اميركا أخيراً ، فقدم للعلم وافراً من الاختراعات في الكهرباء والطاقة والبخار .

زينب فواز ربيبة البيت الاسعدي في تبنين لو بقيت في جبل عامل ولم تتصل وتقيم بمصر وهي آنذاك بلد منفتح على الحضارة ، تعيش في خضم النهضة لما استطاعت أن تكتب بالتاريخ ، وتبادر الى كتابة القصة فتكون من رائداتها الأوليات .

النهضة في عامل دخلت متأخرة ، إنها في العمر تنيف عن نصف قرن ، سائر لبنان سبق جبل عامل في النهضة الفكرية الجديدة ، إنه الآن يسهم في نتاج لبناني صرف الابداع ، ليتابع عادته في العطاء متجدداً ... مع كل لبنان .

العرض التاريخي :

دور النهضة الحديثة يبدأ في نهاية القرن الثالث عشر الهجري (١٣٠٠ هـ – ١٨٨٢ م) ، وما زلنا نحيا هذا الدور . وحركة الفكر في جبل عامل ما زالت تشتد نشاطاً يدفعها عوامل عديدة ؛ ولا بد لنا قبل سرد العوامل الفاعلة من أن نتصدى للاطار التاريخي الذي أحاط بهذه النهضة الفكرية في جبل عامل ، فهو الغلاف الطبيعي لهذه الحركة .

فلقد انقضت العهود الاستقلالية للجبل العاملي بعد وفاة علي الأسعد (١٢٦٩هـ

---

١) ولد حسن كامل الصباح في النبطية ، ودرس في مدارس عديدة اولاً ، ثم في الجامعة الاميركية ، وتخرج منها سنة ١٩١٨ م . ثم هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية ، ومنحته جامعاتها شهادة استاذ في العلوم ، وقد بدأ يمدها باختراعات مدهشة ، تاركاً منها ما يزيد على الاربعين وتوفي سنة ١٩٣٥ م .

١٨٥٢ م) . ولما طويت صفحة الاستقلال عام (١٢٨٢ هـ - ١٨٦٤ م) ، عاد الأتراك الى حكم البلاد مباشرة ، فمنحوا زعماء الأسر ووجهاء القرى صلاحيات واسعة ، وحرضوا الفئات ، وتعسفوا في الحكم ، فمرت البلاد في حالة من الفقر تزيد من غلوائه الضرائب الباهضة ؛ والتجنيد الاجباري أخلى البلاد من رجالها [١] ، وهكذا بقيت الحال حتى الحرب العالمية الثانية ؛ وقبل الانتداب قسم جبل عامل الى ثلاث قائمقاميات ، وسلخ عنه جزين ومشغره . وهذه القائمقاميات هي صيدا وصور ومرجعيون ، وكانت الحولة تابعة لمرجعيون . وكان يتبع هذه الأقضية مديريتان هما النبطية وتبنين . وبقي جبل عامل على هذه الحال حتى كان الاحتلال الفرنسي إذ أصبحت فيه صيدا متصرفية (محافظة) وأقيمت مراكز محاكم في كل من صيدا وصور ومرجعيون .

ولقد قاسى جبل عامل عام (١٩٢٠ م) ، الكثير من الضغط والارهاب فقام بثورات متعددة [٢] ، فرد الافرنسيون بقسوة ، وسلبت أموال العامليين وفرضت عليهم الغرامات والضرائب القاسية ، وأهين علماؤهم ووجهاؤهم [٣] .

وفي هذا العام ضم [٤] الجبل العاملي الى لبنان الكبير ، وقضى التحديد الفلسطيني الواقع تحت الانتداب البريطاني أن يقتطع أجزاء من جبل عامل ، لتضم الى فلسطين والقسم الأكبر يتبع لبنان الكبير .

وكان سكان الجبل خلال هذه الفترة يتطلعون الى التطورات السياسية القائمة حولهم ، فعندما حل الملك فيصل الأول في سوريا ، قصده وفد من العامليين ليحضروا حفلة تتويجه حاملين معهم تفويضاً بما يلزم لدى الملك [٥] .

وكثيراً ما كان علماء الجبل العامليون يطالبون بحقوقهم وانصاف طائفتهم ،

---

١) عارف الأمين - الأدب العاملي في النصف الأول من القرن العشرين ، صفحة ٢ .
٢) راجع مذكرات التاريخ في العرفان المجلدات ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ .
٣) العرفان ٥/٢٠ .
٤) سليمان ظاهر - معجم قرى جبل عامل . العرفان ٢٠/٥/٢٥ .
٥) الأدب العاملي في النصف الأول من القرن العشرين ، صفحة ٤ .

وكثيراً ما قسى الجنرال غورو عليهم فارضاً الشروط القاسية [١] .

وقد ظل جبل عامل مع سائر لبنان يعاني الأزمات ويشارك في المطالبة بالاستقلال حتى تم ذلك للبنان بأسره ودخل في العهود الاستقلالية الزاهرة التي تنعم بها اليوم .

عوامل النهضة

العوامل التي فعلت في النهضة في جبل عامل ، هذا الدور عديدة ، بعضها يعود بنسبه الى العهود السابقة ، كالمدارس الدينية القائمة في ربوعه . والرحلة العلمية الى النجف وايران [٢] وهي التي عملت على استمرار الحركة وأوصلتها نشيطة حتى مطلع هذا الدور ، يضاف اليها عوامل جديدة ، غيرت من شكل نشاط الفكر وروحه فتلبس متشداً ثوب الجديد .

هذه الأسباب العتيدة هي نفسها التي بعثت على النهضة في مصر ولبنان ، إنها المدارس الحديثة ، والصحافة والمطابع ، والجمعيات الأدبية ، والمؤسسات الاجتماعية ، والمكتبات العامة .

المدارس

كانت المدارس في جبل عامل ، منذ بدء النشاط العلمي فيه ، ولكن هذه المدارس كانت محددة الاتجاه ، دينية الطابع ، حملت مهمة استمرار الحركة حتى مطلع هذا الدور ، وبقيت جادة في عملها ، وأضيف الى نشاطها نشاط مدارس حديثة ، تستمد غذاءها من النهضة القائمة في العالم العربي ، ومن أهم هذه المدارس :

١) المدرسة الحديثة في النبطية :

أسسها مدير ناحية النبطية رضا الصلح عام (١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢ م) . وقد

---

١) العرفان ٣/٣٤-٢٠٣ ومجلد سنة ١٩٣٢ . ٢) راجع فصل الرحلة العلمية والمدارس .

استطاعت بما لديها من أساتذة مجددين ، وبما بذله مديرها مصطفى العكاري أن تقذف بالجديد الى البيئة العاملية ، وتخرج نفراً من المفكرين والأدباء وظلت تعمل أمداً طويلاً ، وتولتها من بعد جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في النبطية ؛ وبقيت تشرف عليها حتى أوائل الحرب الثانية ، وبعدها أصبحت النواة للمدرسة الرسمية التي أدارها عبد اللطيف فياض المربي الكبير والذي بقي مديراً لها حتى منتصف القرن الحالي ، وقد خرجت خيرة شباب الجنوب المثقف اليوم ، كما فتحت نظارة المعارف ايضاً في النبطية مدرسة للبنات وكان ذلك عام ١٩٢٢ [١] .

٢) مدرسة غونه رشدي :

انشأتها الحكومة التركية في صيدا حوالي عام ١٨٧٣ ، ولكنها كانت متأخرة فترة طويلة حتى مطلع القرن العشرين ، اذ وجهت لها عناية خاصة ، وبدأت تعتني بتعليم الخط والعربية واللغة الفرنسية [٢] .

٣) مدارس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية :

تأسست في صيدا في ٢٦ ربيع الثاني (١٢٩٦ هـ - ١٨٧٩ م) ، وكان لهذه الجمعية خمسة عشر عضواً ، منهم ناصيف الاسعد ، وقد تقدمت مدارس هذه الجمعية واتسعت ، وأدت لجبل عامل خدمات جليلة في العلم . وكان لها في مطلع القرن العشرين أربعة مكاتب للاناث والذكور تضم ٦١٨ طالباً و ٥٣٢ طالبة .

٤) المدرسة الوطنية في صيدا :

أنشأها سنة ١٨٧٨ الخوري الياس عطية ، وكيل النائب الأسقفي لطائفة الموارنة في صيدا ، وقد اهتم بها الوالي مدحت باشا لما وفد الى صيدا ، وأدت للعلم خدمات عديدة .

---

١) العرفان ٨/٦٥٦ .

٢) عارف الزين ، تاريخ صيدا ، ص ١٢٢ .

٥) مدرسة الاخوة المريميين :

قامت هذه المدرسة على أنقاض المدرسة اليسوعية ، وحلت في بنائها ، وكان اليسوعيون قد جاؤوا صيدا من مدة تناهز الثلاثة قرون ، وغادروها عام ١٩٠٩ م ، ليحوّلوا مركزهم الى جزين . ومنذ هذا التاريخ نزل الاخوة المريميون صيدا وأقاموا ديرهم ، وقد اهتموا بتعليم سائر العلوم ، وما تزال هذه المدرسة في رقي ونشاط حتى يومنا هذا [١] .

٦) مدرسة الفنون الاميركية في صيدا :

قررت الارسالية الاميركية ، انشاء معهد علمي في صيدا ، برئاسة وليم إدي سنة (١٨٨٠م) ، وفي خريف هذا العام بدأ عملها بأربعة تلامذة ، وفي نهاية السنة أصبحوا عشرين تلميذاً . ولم يكن لهذه المدرسة بناء مستقر حتى شيدت بناءها في عهد مديرها الجديد الدكتور فورد .

وقد تطورت هذه المدرسة ففي سنة (١٨٩٥م) ، أضيف لها فرعان جديدان غير التعليم ، فرع صناعي ، يهتم بصناعات النجارة ، الخياطة ، البناء ، والاحذية . أما الفرع الآخر فهو للأيتام .

وقد تخرج منها الفوج الأول ، نائلاً شهادتها سنة (١٨٨٩م) ، ومنذ هذا التاريخ بدأت تعطي شهادتها للمنتهين الذين كان باستطاعتهم دخول الجامعة الاميركية دون امتحانات ، وكانت تدرس العربية والفرنسية والانكليزية [٢] .

وقد تخرج من هذه المدرسة عدد وافر من متعلمي الجنوب .

٧) مدارس الاناث في صيدا :

كان في مطلع القرن العشرين مدرسة واحدة للمرسلين الامريكان وكان فيها ٦٥ تلميذة ، وهناك مدرسة لراهبات القديس يوسف وهي قديمة العهد في صيدا ،

---

١) تاريخ صيدا ص١١٦ .

٢) تاريخ صيدا ، صفحة ١١٧-١١٨ .

كتب عنها كيران بعد سنة ١٨٥٠ [1].

٨) مدارس الارساليات في صور :

كان في صور مدارس للفرنسيسكان ، ومكاتب لطائفة الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك ومكتبان للانكليز أحدهما للذكور والآخر للإناث ، كما انشأوا مكتباً لتعليم العميان [2].

٩) مدارس في مرجعيون :

كان هناك جملة مدارس رسمية في مطلع القرن العشرين ترعاها الحكومة العثمانية ، لكنها كانت عديمة الفائدة ضئيلة القيمة أمام نشاط مدرسة الروم الارثوذكس فيها ، وكانت الحكومة الروسية تشرف على هذه المدرسة ، والجمعية الفلسطينية تدفع رواتب المدرسين ، بينما كانت طائفة الروم الارثوذكس هي التي أشادت البناء ، وقد عملت الحكومة الروسية على إخراج الترخيص للمدرسة من قبل الحكومة العثمانية ؛ وقد قامت مكاتب للبروتستانت للذكور والاناث في مرجعيون [3].

١٠) المدارس في جزين :

في الربع الاول من القرن العشرين ، كان في جزين ثلاث مدارس للصبيان والبنات بادارة الرهبنة اليسوعية ، وقلبي يسوع ومريم ، ومدرسة للصبيان بادارة الامير كان [4].

١١) مدرسة دير المخلص :

أسس هذا الدير والرهبانية المخلصية المطران افتيموس الصيفي أسقف صيدا،

---

١) تاريخ صيدا ، ص ١٢١ .
٢) جماعة من المؤلفين ، ولاية بيروت ، القسم الجنوبي ، ص ٢٨٥ و ٣٠٧ .
٣) المرجع نفسه ٣٢٩ .
٤) العرفان ، ٨/٧٧٣ .

وقد ولد في دمشق سنة (١٦٤٨ م) .

وقد بني هذا الديرسنة ١٧٠٩ ميلادية ، وقد توالى على رئاسته حتى عام (١٩٢٨م) سبعة وعشرون رئيساً . وصادف خلال هذه المدة نكسات عديدة ، ونكبات كثيرة ، اولاها كانت على عهد الجزار سنة (١٧٧٧ م) .

وفي الدير مكتبة ومدرسة ثانوية اليوم خرّجت الكثير من أبناء الجنوب ، وفيه مطبعة أيضاً [1].

١٢) المدارس الرسمية في قرى جبل عامل :

عمدت نظارة المعارف اللبنانية عهود الانتداب الى فتح عدة مدارس ابتدائية في القرى ، وقد تأسست حوالي أربع مدارس في حاروف ، وعرمتى ، وعدبسة ، والعباسية ، وقد كان الشاعر محمد علي الحوماني مدرساً في مدرسة حاروف ، وقد كان في بلدة الغازية مدرسة قبل عام (١٩٢٢م) وكان يوليها مفتش المعارف أديب خليفة كل عناية ، وقد كان نشاطها محصوراً كونها كانت مدارس ابتدائية [2].

١٣) المدرسة الجعفرية في صور :

بدأت هذه المدرسة نشاطها التعليمي عام (١٩٣٨ م - ١٣٥٧ هـ) ، بهمة العلامة الكبير السيد عبد الحسين شرف الدين ، وقد نمت هذه المدرسة بسرعة وفي منتصف هذا القرن ، أنشيء لها بناء كبير بمساعدة المهاجرين اللبنانيين ، وقد تألفت لها جمعية تشرف على سيرها وعلى أوقافها ، وهي اليوم مدرسة ثانوية في صور ، تدعى بالكلية الجعفرية .

وقد انتشرت المدارس الرسمية في القرى بكثرة عهود الانتداب ، وخاصة بعد الاستقلال ففي كل قرية اليوم مدرسة ابتدائية أو تكميلية ، وحتى القرى النائية فيها ، فانك تجد فيها مدارس رسمية يشرف عليها مدرسون من قبل وزارة التربية ، الى جانب مدارس ثانوية خاصة ورسمية فتحت مؤخراً .

---

١) العرفان ، ١٦/٦٤ .
٢) العرفان ، ٨/٨٠٣ و ١١/٧٨٣ .

الصحـــافة

•

تعتبر الصحافة أم العوامل الفاعلة في النهضة الفكرية العربية عامة ، يساوقها في التأثير مؤسسات علمية وطنية وأجنبية ، مع نشاط مطابع تدفع بالألوف من الكتب لسوق القراء العرب .

ولقد عرف العالم العربي الصحافة عام(١٨٢٨م) ، فكانت (الوقائع المصرية) أولى الجرائد الرسمية ، وتلتها بعد فترات صحف خاصة كانت أولاها (حديقة الأخبار ١٨٥٨ م) لتأتي من بعد صحيفتا (الجوائب ١٨٦٠م ، والاهرام ١٨٧٥م) يسهم فيها نشاط لبناني في أرض الكنانة أولاً ، ويغزو نشاطهم أرض وطنهم التي رحبت الحرية مؤخراً فعرفت الصحافة أرض لبنان في بيروت .

ولكن جبل عامل هذا الجزء من لبنان ، لم يبصر نور الصحافة منذ اشراق بدرها في العالم العربي ، فقد أقعده عنها وعن التجديد سيرة طويلة عرفت بتعلقها بالقديم واحيائها له تشبثاً محتفظاً بجبروته وقت أظلمت العهود ، فلم تدخـــل الصحف رحابه حتى مطلع القرن العشرين ؛ واتصف نشاط صحفه بأنها كانت مسرحاً لأقلام الأدباء والعلماء ورجال الفكر ، تنطق بلسان البيئة العاملية ، وتحمل عنها الصور للآخرين ، ولقد عرف مثقفوه صحافة الآخرين محررين فيها مقالاتهم ، وكان منهم الشيخ أحمد رضا ، والشيخ سليمان ظاهر ، ومحمد جابر صفا ؛ كتب هؤلاء في الهلال والمنار ، والمقتطف [١] ، ثم في مجلة المجمع العلمي

---

١) العرفان ، ٥/٤ .

العربي بدمشق [١] . وقد بدأ نشاط الصحفي في الأرض العاملية عام (١٩٠٩م) بتأسيس مجلة العرفان ، وتلتها جملة من الجرائد والمجلات .

١) العرفان :

أولى المجلات العاملية ، صدرت في ارض جبل عامل ، وانطلقت منها ، استحصل على امتيازها علي الزين من الحكومة العثمانية عام (١٩٠٩م) وتولى التحرير فيها ولده احمد عارف الزين [٢] ، وأسهم معه في التحرير من الكتاب أحمد رضا وسليمان ظاهر ، ومحمد جابر ، وشريف عسيران ، ومحمد رضا الشبيبي .

وتهتم مجلة العرفان بالمواضيع الادبية ذات الصفة الوعظية في مطلع عهدها ، ثم بدأت تنشر القصائد ، والابحاث في النقد الأدبي ، والتاريخ ، والفلسفة ، والأخبار الاجتماعية والمحلية ، جامعة شتى المواضيع ، متكلمة بإسهاب عن الاختراعات الجديدة ، والزراعة ، والطب ، والتربية ، انها فعلاً دائرة معارف واسعة ، وهي عدا ذلك مصورة تضم صور العلماء والأدباء والسياسيين والمخترعات الجديدة .

وقد صدر العدد الأول من العرفان في ٥ شباط سنة (١٩٠٩م) المحرم من سنة (١٣٢٧هـ) بحجم صغير ، وقد طبعت في السنة الاولى بالمطبعة الأهلية في بيروت ، ثم انشئت لها مطبعة العرفان سنة (١٩١٠) .

وقد حملت العرفان واجبها الاجتماعي تجاه جبل عامل ، وأدت الأمانة

---

١) راجع مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق منذ عام (١٩٢٠م) وما بعده .

٢) ولد احمد عارف الزين في قرية شحور من جبل عامل سنة (١٣٠١هـ - ١٨٨٣ م) ، درس المبادىء الاولية في بعض كتاتيبها ، دخل مدرسة النبطية الرسمية في الحادية عشرة من عمره ، ومنها انتقل الى مدرسة السيد حسن يوسف مكي الدبلية . درس على السيد عبد الحسين شرف الدين وبعض العلماء شيئاً من الفقه والاصول . وتعلم الفرنسية والفارسية والتركية . انشأ مجلة العرفان سنة (١٩٠٩ م) ، ثم جريدة جبل عامل .

ترك من المؤلفات : تاريخ مدينة صيدا - شرح الوساطة بين المتنبي وخصومه ، الى جانب مقالات اكثر من أن تحصى ، نشرها في مجلة العرفان . توفي سنة (١٩٦٠م) ، ودفن في ايران .

موفورة ، فصحت عن آرائه ، ورفعت صوته وتكلمت باسمه مشجعة أدباءه وعلماءه ، وأسهمت الى حد كبير في تشجيع النهضة القائمة في ارضه وبين أبنائه .

وما تزال العرفان تصدر الى يومنا هذا ، وقد توفي منشئها سنة (١٩٦٠م) ، وما زال ولده نزار الزين يتابع العمل بعد والده ، ويصدرها اليوم مجلة جديدة ، بشكل جميل . وقد كرمت مجلة العرفان سنة (١٩٥١م) بيوبيلها الخمسيني فتألفت لجنة من وزير الانباء اللبنانية ، وفريق من الادباء ، واقاموا لها مهرجان في ١٤ تشرين الأول من تلك السنة ، وقد شارك فيها اللبنانيون ، وأدباء من البلاد العربية ، وقد اشترك هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية السورية آنذاك بكلمة ألقيت في الاحتفال[1] .

٢) جريدة جبل عامل :

أصدرها أحمد عارف الزين سنة (١٣٣٠ هـ – ١٩١١ م) بعد أن أحس بضرورة إنشاء جريدة في جبل عامل ، وقد كانت أسبوعية ، توقفت بعد صدورها بعام واحد ، إذ حوكم صاحبها وسجن ، وكانت هذه الجريدة تنتقد الأوضاع العامة ، وتهاجم الفاسد في السياسة ، وقد عادت للظهور وانقطعت بعدها مرات عديدة[2] ، ودام انقطاعها حتى عام (١٩٦١ م) ، إذ عاد نزار الزين في ١٩ حزيران الى اصدارها من جديد ، لتعنى بشؤون جبل عامل ، وهي تصدر اليوم بشكل ملحق لمجلة العرفان .

٣) مجلة المرج :

أصدرها أسعد رحال ، ودانيال زعرب أولاً في ٢٥ كانون الثاني سنة (١٩٠٩م) ، وظل يصدرها الدكتور أسعد رحال حتى سنة ١٩٢٧ ، ليأتي بعده ولده الدكتور

---

١) راجع العرفان ، عدد كانون الاول سنة (١٩٥١م) .
٢) راجع العرفان ٢٤ / ٨٨٤ – ٨٨٥ .

أديب رحال ، فأصدرها من سنة (١٩٢٧ – ١٩٥٢م) ، ثم باشر اصدارها الأستاذ أسعد أديب رحال ، وقد أسماها اصحابها مجلة الجنوب ورسوله الى المهجر .

وهي مجلة قليلة الصفحات ، تكتب بحوثاً في السياسة والاجتماع والأدب والتاريخ ، وتهتم بشؤون الجنوب اللبناني المقيم والمغترب ، وبالأحداث الاجتماعية من وفيات وزواج وولادة ، وكثيراً ما تعرض لأهم الأحداث العامة والخاصة في مدن الجنوب وقراه ، وكانت تنشر للأدباء الناشئين في الجنوب ، وقد كان لهذه المجلة مطبعة صغيرة في مرجعيون ، وفي سنة (١٩٣٠م) أصبحت تطبع في مطبعة العرفان .

غير أن هذه المجلة قد توقفت أثناء الحرب العالمية الأولى ، فعمد مؤسسها الى اصدارها في النبطية بمساعدة ولده الدكتور أديب رحال بعد عودته من مصر ، وكانا قد انتقلا الى النبطة عام (١٩٢٥م) ، ثم عادا الى مرجعيون لمتابعة اصدارها[1] ، وقد كتب فيها جملة من أدباء الجنوب الكبار ، منهم الشيخ سليمان ظاهر .

٤) جريدة النهضة المرجعيونية :

أصدرتها في مرجعيون جمعية النهضة المرجعيونية ، وهي جريدة أسبوعية ، كانت تطبع في مطبعة العرفان أولاً ، ثم أنشأ لها أعضاء الجمعية مطبعة خاصة بها[2] ، وقد صدر العدد الأول منها في ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٧م[3] .

٥) جريدة الاتفاق :

أصدرها السادة سعيد رزق الحامي ، وحبيب ناصيف في جزين ، وقد صدر العدد الأول منها في ١٦ آب ١٩٢٠ ، وقد انقطعت مدة من الزمن ، ثم عاد سعيد رزق لاصدارها بالاشتراك مع محمد كامل شعيب العاملي ، وكانت تصدر كل يوم إثنين

---

١) معجم قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر المنشور في مجلة العرفان .
٢) العرفان ١٣ / ٨٣٢ .
٣) فيليب دي طرازي تاريخ الصحافة العربية ، ج ٤ / ٣٩ .

من كل اسبوع ، بثمان صفحات ، واشتراكها ٢٥٠ قرشا سوريا في سوريا ولبنان وسبعون فرنكا في الخارج [١] ، وكانت جريدة أدبية علمية تبحث في الزراعة والسياسة أيضاً .

٦) جريدة القوة :

أصدرها في مدينة صور السيد حسن دبوق ، في ١١ شباط ١٩١٢ وقد كانت ادارتها في صور ، أما مكان طباعتها فكان في بيروت ، لعدم وجود مطبعة في صور . وقد احتجبت القوة بعد صدورها بوقت قصير [٢] .

٧) جريدة الشلال :

أصدرها الخوري يوحنا رزق في جزين ، وكان صدور العدد الأول منها في ٢ أيار ١٩٢٦ .

٨) جريدة (ابو دلامة) :

أصدرها في صيدا السادة رفقي بكار وحسيب شاهين وكان صدور العدد الأول منها في سنة ١٩٢٧ في ٤ كانون الثاني .

٩) جريدة الأدب :

أصدرها السيد فائز غسطين في بلدة قيتولي من قضاء جزين ، وكانت جريدة خطية وكان تاريخ صدورها في ١ تشرين الاول عام ١٩١٠ م .

١٠) جريدة صدى الجنوب

أنشأها الأستاذ راضي دخيل سنة ١٩٣٧ ، ولكنها ما لبثت أن توقفت عن الصدور .

---

١) العرفان ٧/٠٢ .

٢) تاريخ الصحافة العربية ، ص ٤٠ .

١١) جريدة القلم الصريح المرجعيونية :

صدرت في ٣ آب ١٩٣١ يوم الاثنين ، أسسها الفرد أبو سمرا ، وقد كان شعارها أنها : ميدان اسبوعي للشباب الناهض المتجدد في الوطن والمهجر . وقد انصرفت هذه الجريدة الى معالجة الشؤون الوطنية والاجتماعية والاقتصادية دون أن تعالج المشاكل السياسية ، وقد كتب فيها الشيخ سليمان ظاهر ، وهي تحتوي على قصائد شعر ، وطرف ، واحصائيات ، وما زالت تصدر حتى يومنا هذا [١] .

١٢) مجلة العروبة :

أنشأها الشاعر محمد علي الحوماني سنة ١٩٣٥ في مدينة بيروت ، وكان قد أصدرها قبل هذا التاريخ بعام واحد ، باسم (بعد نصف الليل) ؛ وكانت على سياق مع مجلة العرفان ؛ احتوت مقالات لغوية ووعظية واجتماعية مفيدة ، تبحث في العلم والفن والأدب [٢] .

هذا وقد اشترك العامليون في التحرير بالمجلات ، كما فعل محمد علي الحوماني إذ كان أحد أعضاء لجنة التحرير في مجلة الأمالي الصادرة في بيروت وقد صدر العدد الأول منها في ٢ ايلول ١٩٣٨ وقد حرر فيها العامليون من الكتاب [٣] .

كما قامت محاولات لانشاء مجلات وجرائد ظهرت مدة بسيطة من الزمن ، كجريدة الساعة لصدر الدين شرف الدين ، أصدرها في بغداد ثم عاد الى إصدارها في لبنان حوالي سنة ١٩٥٠ ، كما أصدر مجلة الألواح ، ثم مجلة النهج التي ما تزال تصدر حتى اليوم .

وقد أسس قبل منتصف القرن العشرين جعفر شرف الدين مجلة المعهد .

---

١) الادب العاملي في النصف الاول من القرن العشرين ، صفحة ٣٠ .

٢) العرفان ٢٥/١٩٩٨ .

٣) مجلة الامالي ، الاعداد ٣ — ١٥ — ٢٣ — ٢٧ — ٣٠ — ٣١ — ٣٢ — ٣٧ — ٤٠ — ٤٣ — ٤٧ — ٥٠ — ٥١ .

المطابع

•

لم يعرف جبل عامل المطابع حتى عام ١٩١٠ ، إذ أنشأ أحمد عارف الزين مطبعة العرفان ليطبع فيها مجلته ، ثم استعملت فيما بعد لطبع الكتب العديدة في الأدب والفقه والتاريخ ، وعملت على إحياء تراث العرب الماضي ، بطبع المؤلفات القديمة ، وما تزال المطبعة حتى يومنا هذا ، ركيزة للطباعة في الجنوب .

ثم مطبعة النهضة المرجعيونية ، تأسست لطباعة جريدة النهضة المرجعيونية في مرجعيون ، ومطبعة جريدة المرج في مرجعيون ، وكانت تطبع جريدتها عليها حتى عام ١٩٣٠ م .

وقد قامت منذ مدة مطبعة في صيدا عرفت باسم المطبعة العصرية طبع عليها عدد وافر من الكتب الأدبية والمدرسية .



الجمعيات الأدبية والمؤسسات الاجتماعية

•

لقد تبدت رغبة العامليين الملحة ، للسير مع النهضة الحديثة ، بإقبالهم على إنشاء الجمعيات والمؤسسات الأدبية والاجتماعية ، وبأنه لا بد من جمع الجهود الفردية المتناثرة ، الراغبة في بعث روح اليقظة العلمية ، ودفع العامليين للانفتاح على الجديد النامي في العالم العربي . وكانت هذه الجمعيات اما صاحبة دعوة أدبية تثور فيها على الأساليب القديمة ، وتعمل لاعتماد الجديد ، واما مؤسسات ذات غاية اجتماعية ، أولاها فتح المدارس والكليات ، اذ اعتبروها العامل الكبير الأوحد في دفع النهضة الى الأمام . وأهم هذه الجمعيات والمؤسسات :

١) جمعية العلماء العامليين :

تنادى بعد الربع الأول من القرن العشرين ، نفر من رجال الدين العامليين لتأسيس جمعية منهم ، تبغي انشاء كلية علمية عاملية . وتوالت اجتماعات العلماء عام (١٩٢٨ — ١٩٢٩م) وما بعد ، في النبطية ، وشقرا ، وصيدا ، وكان في الجمعية عام (١٩٣٠م) ما يزيد على ثلاثين عضواً ، منهم خمسة عشر عضواً عاملاً.

ولقد بثت الجمعية دعاتها ولجانها في القرى والمدن لجمع المال بغية بناء الكلية ، وكان الشيخ حسين مغنية مديرها المسؤول ، يساعده في ذلك السيد محسن الأمين ، وعدد وافر من العلماء المجتهدين ، وقد حاولت الجمعية إيفاد لجنة خاصة للمهجر لجمع الأموال ولكنها لم تفعل ، ولم تكمل الجمعية عملها حتى النهاية . وقد أصدرت

بيانها الأول في حزيران (١٩٣٠ م – المحرم ١٣٤٩) ، بعشرين مادة [١] .

٢) الجمعية الخيرية العاملية في صيدا :

تأسست عام (١٩٢١ م – ١٣٣٩ هـ) ، وكانت غايتها القيام بالأعمال الخيرية من بناء وتعليم ، وفي سنتها الثالثة ، كان فيها إثنا عشر عضواً ، منهم أحمد عارف الزين وقد درجت الجمعية على اقامة احتفال سنوي كل عام ، وقد حضر متصرف اللواء احتفالها الثالث ، وكان لها مشاريع عمرانية منجزة في صيدا ، ويتبرع لها أبناء الجنوب في مدنه وقراه ، وكانت تصدر كل عام كراساً صغيراً تبين فيه أعمالها وميزانيتها [٢] .

٣) جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في النبطية :

بدأت نشاطها عام ١٨٩٩ م ، وكان من المشتغلين لها أحمد رضا ، وسليمان ظاهر ، ومحمد جابر صفا ، وغيرهم من رجالات العلم والأدب ، وقد بدأت بتشييد المدارس ، وانشاء الأوقاف لها ؛ ولها اليوم في النبطية مدرسة للصبيان هي المدرسة العلية ، ومدرسة للاناث هي مدرسة الزهراء الى جانب أوقاف عديدة في البلدة ، تقدر بمبالغ كبيرة ، وقد سبق لأعضاء هذه الجمعية قبل تأسيسها نشاط ثقافي ولغوي ، واجتماعات تلقى فيها الخطب والأبحاث [٣] .

٤) الجمعية الخيرية الاسلامية العاملية :

تأسست سنة ١٩٢٣ في بيروت ، قام عليها جماعة من أبناء جبل عامل المقيمين في بيروت والمهاجرين اليها ، وقد أصدرت هذه الجمعية قانونها سنة

١) العرفان ١٨/٢٦٤ – ٤٤١ – ٥٣٥ – ٥٥٠ ، والعرفان ٢٠ / ١٠٨ و ١٩/٥٩٨ .
٢) العرفان ٩/٣٩ .
٣) مقدمة معجم متن اللغة ، ج ١/٩ – العرفان ١٤/٥٢٧ .

١٩٢٤ م ، وقد بعث فيها النشاط والهمة رئيسها رشيد يوسف بيضون فعمدت هذه الجمعية الى فتح المدارس في بيروت ، وفي قرى الجبل العاملي وبدأت بشراء أرض وأوقاف لها في بيروت ، وقد كانت هذه الجمعية نواة للجمعية الحالية التي شادت الكلية العاملية ، وملحقاتها في بيروت ، والتي سدت فراغاً علمياً كبيراً في العاصمة اللبنانية ، واحتضنت أبناء الجبل العاملي وغيرهم [١] .

٥) جمعية النهضة العاملية في النبطية :

تشكلت عام (١٩٢٧ م) ، وقد جعل لها بيان وقانون ، كان محمد جابر صفا الكاتب والمؤرخ أحد واضعيه ، وكبيراً بين أعضائها ، وقد انتمى اليها عدد وافر من الشباب المثقف في جبل عامل ، وكان غرضها احياء الحركة الفكرية والثقافية في البلاد [٢] .

٦) جمعية العلماء :

حاولت بمساعدة ومساهمة كامل بك الاسعد سنة (١٩١٠م) تأسيس كلية علمية في جبل عامل . يكون مركزها النبطية ، وكان من أعضائها سليمان ظاهر وأحمد رضا ، والسيد علي محمود الأمين ، والشيخ حسين مروه ، وقد اجتمعت هذه الجمعية في الطيبة لدى كامل الأسعد ، كما جمع لها مبلغ كبير .

٧) جمعية النهضة المرجعيونية :

أصدرت بيانها سنة (١٩٢٣ م) متضمناً أعمالها خلال المدة الواقعة بين أول نيسان (١٩٢٢ م) حتى ٣١ آذار سنة (١٩٢٣ م) ، وقد أصدرت هذه الجمعية جريدة النهضة المرجعيونية في ٢٧ كانون الثاني سنة (١٩٢٧ م) ، وكان غرض هذه الجمعية غرضاً تثقيفياً وتعليمياً [٣] .

١) العرفان ، ٩/٧٤٩ و ١٤/٤٩٠ . ٢) العرفان ، ١٤/٥٢٧ .
٣) تاريخ الصحافة العربية ، ٤/٤٠ .

٨) الجمعية الخيرية للشبيبة الاسلامية العاملية :

تأسست هذه الجمعية خارج الوطن ، في بلدة باريسو – الارجنتين ، وكانت غايتها مناصرة كل دعوة وطنية ، وجهد سـام ، وقد أعلن تأسيسها عام (١٩٢٨ م) ، الموافق ١٢ ربيع الاول (١٣٤٧) ؟ وكانت هذه الجمعية تحرص على الاهتمام بالشعائر الدينية في المهجر ، والقيام بالاحتفالات الدينية ، كمولد النبي الكريم ، الذي كان موعد إنشائها عام (١٣٤٧ هـ) . وقد اعتبرت السيد محسن الامين رئيس شرف لها ، ومحمد ضيا رئيساً ، ومحمد محمود نائباً للرئيس ، وعبد الحسين دبوق أميناً للسر[١] .

٩) جمعية الشبيبة العاملية النجفية :

تأسست في النجف الأشرف – العراق عام (١٩٢٥ م)،قام بتأسيسها الطلاب العامليون الذين كانوا يتابعون دراستهم في جامعة النجف الدينية . وقد كانت غاية هذه الجمعية غاية علمية أدبية خالصة ، وكانت تكتل الشباب في البداية حول مبدأ ثابت هو تأييد الجديد في الأدب ، ومناهضة القديم، والثورة على التقليد في الجيل العاملي .

وكان من أبرز أعضائها علي الزين ، محمـد شرارة ، حسين مروة ، محسن شرارة ، وهاشم الامين ، وكثيراً ما أطلقوا على أنفسهم اسم « اخوان الصفا » ، وقد جاء شعر أحدهم وهو علي الزين متضمناً لهذه التسميـة ، حاوياً لغايات وأهداف هذه الجمعية :

من لي كإخوان الصفاء بفتية ... تخذت نهاها مرشداً ودليلا
مهما تنوعت المطامع دونها ... لا تبتغي غير الحقيقة سولا
ومن البيان الحر أذكت شعلة ... تستأصل التمويه والتضليلا

وكان أعضاء هذه الجمعية الأدبية يكتبون في مجلة العرفان ، وما زال بعضهم

---

١) العرفان ٥٤٣/١٦ .

يكتب فيها حتى يومنا هذا ، وكثيراً ما كتبوا في المجلات والجرائد العراقية ، وقد كتب الاستاذ محمـد شرارة ، في مجلة الهاتف النجفية ، وكذلك حسين مروة[١] .

١٠) جمعية النهضة العربية الهاشمية في الولايات المتحدة الاميركية :

وكان سكرتيرها السيد عبد الله بري الكاتب والأديب[٢] .

١١) عصبة الادب العاملي :

نراه هذه الجمعية الأدبية أبصرت النور في النجف عام (١٩٢٥م) يوم تشكلت جمعية الشبيبة العاملية النجفية ، وعندما عاد الطلبة المهاجرون الى النجف في سبيل العلم الى موطنهم ، يحملون الأمل الكبير باحداث نهضة وتغيير في الأدب والمجتمع ، تنقذه من القديم ، وتدفعه بتمرد نحو الجديد ، أسسوا عصبة الأدب العاملي سنة (١٩٣٥ م)،وقد أذاعت مبادئها وشروطها وغاياتها في بيان طويل، سنعود الى تبيانه .

وكان رئيسها وموجهها الشيخ علي الزين يشاركه نفر كبير من أدباء الجيل ، وقد كان لهذه الجمعية الأثر الكبير في إحداث النهضة ، وتجديد الأدب ، وقد بلغت ذروة نشاطها عـام (١٩٣٧ – ١٩٣٨ م) وتوقفت عن النشاط حوالي عام (١٩٤٣) .

١٢) الرابطة الادبية العاملية :

إن التفكير بانشاء هذه الرابطة يعود الى سنة (١٩٢٨ م) ، ولم يبـادر أصحابها الى إعلانها رسمياً حتى قامت عصبة الأدب العاملي ، فرغبت الرابطة

---

١) جريدة الهاتف العدد ١١٠ سنة (١٩٣٨ م - ١٣٥٦ هـ) .

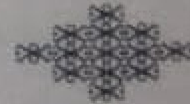
٢) مجلة الامالي العدد الاول ، صفحة ٢١ سنة (١٩٣٨ م) .

مشاركتها في بعث الجديد ، وإشعال النهضة الفكرية في جبل عامل ، ولم يكن للرابطة منهج محدد واضح ، إنما كانت متأثرة بالأفكار الجديدة المنتشرة في الأقطار العربية .

ومن أعضاء الرابطة : أحمد حجازي ، زكي بيضون ، عارف الحر ، علي ابراهيم ، وزهرة الحر ، لهم مقالات وقصص وقصائد نشرت على صفحات العرفان ، والعروبة ، والأمالي ، والمكشوف ، وعدة مطبوعات . ولم يكن للرابطة اجتماعات معينة ، إنما وقع بعضهم مقالاتهم باسم عضو الرابطة الأدبية [1] .

ولقد قامت عدة جمعيات ما تلبث أن تخبو بعد نهوضها ، وقد سعى نفر من علماء الدين العامليين مؤخراً الى إنشاء جمعية تحمل اسمهم ، عملت في انشاء مدرسة في صور ، اليوم ، ويرأس هذه الجمعية الشيخ موسى عز الدين .

والملاحظ أن سائر هذه الجمعيات كانت تعتني بالعمران والتثقيف والتعليم على حد سواء ، لأنها كانت مدفوعة برغبة الاصلاح والنهضة بمجتمع الجبل العاملي الخامل ، وانقاذه من الجهل والفقر ، يحركها للعمل الشعور بالحرمان في أرضها ، والنهضة القائمة في المناطق القريبة منها .



١) استندنا في كلامنا عن الرابطة الأدبية العاملية على ما كتبه احد اعضائها السيد علي ابراهيم في رسالة لنا .

المكتبات العامة

•

مما سبق لنا ذكره أن المكاتب الخاصة ، كانت كثيرة في جبل عامل في العهود السابقة ، ولم نقع على ذكر مكتبة عامة ، وإن قام بعضها في أنحاء العالم العربي ، فانها كانت محاطة باهتمام الدولة والرجال الرسميين ، واذا لاحظنا مؤخراً قيام بعض المكتبات العامة تطل في جبل عامل ، فانها كانت تقوم على جهود جمعيات أو أفراد يتوثبون للقيام بدور فعال ومنتج في عهد النهضة التي تحيط بهم في كل مجال ، ومن أهم المكتبات التي قامت في هذا الدور :

١) مكتبة التهذيب العاملية :

قامت هذه المكتبة في بنت جبيل ، أسست سنة (١٩٣٠ م – ١٣٤٩ هـ) ، وقد قام بتأسيسها جماعة من الشباب المتوثب للنهضة ، ودعت مجلة العرفان الى مساعدتها ومساندتها بتشجيع نشرته على صفحاتها [1] .

٢) المكتبة الانجيلية في صيدا :

هي غرف للقراءة أنشأتها جمعية الخدمة الوطنية الانجيلية في صيدا ، التي تأسست عام (١٩٠٢ م) ، ولم يكن الاقبال عليها كثيراً أول امرها ، وكانت تطبع هذه الجمعية تقارير عن أعمالها في مطبعة العرفان ، وقد طبعت تقريراً لها

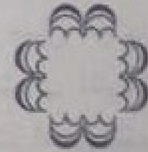
١) العرفان ٢٠/٥٢٢ .

سنة (١٩١١ م) تضمن اعمالها في سنتها التاسعة [١] .

٣) مكتبة عامة في صيدا :

كانت تضم كتب محمود حلمي التي وقفت لهذه الغاية ، وقد أضيف لها كتب المرحوم كامل حشيشو ، وقد جمع ثمن هذه الكتب من أهـالي صيدا ، لتكون هذه المكتبة في خدمة أبناء البلدة ، وكان موعد انشائها عام (١٩٢٩ م) .

هذه هي العوامل التي أسهمت في ابقاء نشاط العـلم خلال هذا الدور نامياً متطوراً ، يعنى بشؤون شتى للفكر ، فما هي وجوه هذا النشاط ومظاهره ؟



١) العرفان ٣/٤٧٦ .

اوجه الحركة الفكرية ومظاهرها



لقد قدر للعاملين المنفتحين حديثاً على الجديد ، وهم في هذا الدور ورثة علم تمتد جذوره الى العريق من فكر العربية وآدابها ، والقديم من عطاء الاسلام ، أن يمزجوا الجديد المحدث بالقديم المتأصل في نفوسهم ، والذي لم يكن لباساً هين الخلع ، فيكون نتاجهم متعدد الجنبات ، متنوع المظاهر ، فأبدعوا في الفقه والتشريع والفلسفة والتاريخ ، الى جانب نشاط أدبي متسع الحقائب يعنى بالشعر والنثر والنقد .

في الدين والعقيدة والفقه :

كان العامل الديني ، هو الدافع الاساسي ، خلال الادوار السابقة للفكر في جبل عامل ، على الانتاج ، وقد بقي حتى مطلع هذا الدور يسترفد من جامعة النجف الدينية طاقته على البقاء والمتابعة ، وكانت المبادرة الى الجديد رهن أيدي رجال الدين ، فئة منهم عملت على نقض الماضي متخلية عنه في رحاب الجامعة النجفية طلاباً ، وفي أرض الوطن مؤهلين للارشاد والتوجيه ، ولقد كان العطاء في التأليف الديني ضخماً وواسعاً .

فالعقيدة الدينية كانت نواة سائر مواضيعه ، وقد كانت المؤلفات إما رداً أو توضيحاً ودفع تهمة ، أو انها كانت مؤلفات مفردة تتناول مسائل اسلامية شيعية مستقلة .

أما الردود فكان الباعث عليها الخلاف المذهبي ، وما أثير في مجلة « المنـار

الدمشقية »[1] وغيرها من مصنفات ، تضم تهماً للشيعة من غيرهم ، واذا كان الشيعة خلال الحقبات السابقة قد اعتصموا بالتقية أولاً ، وبالفرار الى ايران ، فانهم في لبنان وجدوا بعد انهيار العثمانيين مجالاً رحباً لنشر ردودهم ، ودحض مزاعم الآخرين بطريقة علمية ، وفي ذلك يدعون لوحدة الصف ، معتمدين الطريقة العلمية ، والمنطق العلمي ، وكثيراً ما زخرت مقدمات تلك الكتب بمثل هذه الدعوة للألفة ، التي وردت في كتاب الفصول المهمة في تأليف الامة للإمام عبد الحسين شرف الدين[2] ، ذلك أنه (لا تلتق أمور العمران ، ولا تستتب أسباب الارتقاء ، ولا تلبث روح المدنية ، ولا تبزغ شموس الدعة من أبراج السعادة ، ولا ترفع عن أعناقنا نير العبودية بيد الحرية إلا باتفاق الكلمة واجتماع الأفئدة وترادف القلوب)[3] .

أو في الكتاب المسمى بالرد على مسائل جار الله ، للمؤلف نفسه . والذي كان الباعث على تأليفه الغيرة على الدين (خيفة على الوحدة الاسلامية أن تنفصم عروتها وتتفرق جماعتها)[4] . متعرضاً في كتابه لمواضع التهم التي يُرمى بها الشيعة ، محاولاً بمنطقه المجرد جلاء الحقيقة خالصة ، مما يتعلق في عقائد الشيعة وعباداتهم .

---

١) المنار الجزء السادس وما بعده من المجلد ٢٩ .

٢) ولد عبد الحسين شرف الدين بالكاظمية في العراق سنة (١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣ م) ، تلقى علومه في النجف وسامراء على ايدي كبار العلماء فيها ، وعاد الى بلاده وموطنه الاصلي جبل عامل وهو في الثانية والثلاثين من العمر ، عمل في الجهاد الوطني ، وقاوم الانتداب الفرنسي وانتقل خلاله الى دمشق ، ثم غادرها الى فلسطين بعد وقعة ميسلون ، فمصر . وفي سنة (١٣٣٨ هـ - ١٩٢٩ م) عاد الى فلسطين ثم الى جبل عامل .

أنشأ المدرسة الجعفرية في صور سنة (١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م) .

الف كتباً عديدة منها المراجعات (١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م) ، ترجم الى الفارسية ؛ الفصول المهمة (١٣٢٧ هـ) ، اجوبة مسائل جار الله (١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م) ، ابو هريرة - المجالس الفاخرة - عدا عن مؤلفات عديدة اخرى تبحث في العقيدة والدين .

ولقد توفي عام (١٩٥٧ م) ، ودفن في النجف الاشرف .

٣) الفصول المهمة ، صفحة ١٣ .

٤) اجوبة مسائل جار الله ، صفحة ٢ .

وفي مجال الردود كتب السيد محسن الأمين[1] . وصنف مؤلفات عديدة ، كان أبرزها : (نقض الوشيعة في نقد عقائد الشيعة) . التي تختص بعاملاتهم وشعائرهم الدينية ، وكانت الروح العلمية مسيطرة على هذا المؤلف ، مع كثير من الرصانة في مؤلفه و « كتاباً وافياً بإثبات الحق في حل المسائل الخلافية وأهمها مع تفصيلها وتفصيل أدلة الطرفين فيها والله هو المستعان »[2] .

وفي مسائل الخلاف عمد السيد عبد الحسين شرف الدين الى ايضاحها مفندة ومرتبة ، فجاء كتاب المراجعات رداً وتوضيحاً لأسئلة طرحها عليه بعض كبار العلماء في مصر يوم زارها المؤلف وهذا ما قاله العلامة شرف الدين في كتابه[3] : « ولذلك قررنا أن يتقدم هو بالسؤال خطاً عما يريد ، فأقدم له الجواب بخطي على الشروط الصحيحة ، مؤيداً بالعقل أو بالنقل الصحيح عند الفريقين » .

ومن المؤلفات ما تعرض لمسائل عديدة في عقائد الشيعة وأسس التشريع عندهم ، تدفع تهماً شتى عنهم ، وتدحض وترد التقولات عليهم . جاءت كبحث خالص مجرد ، كما في كتاب عقيدة الشيعة للسيد حسين مكي[4] ، الذي قرن

---

١) ولد السيد محسن بن عبد الكريم الامين في قرية شقرا من جبل عامل سنة (١٢٨٤ هـ - ١٨٦٧ م) ، وتعلم فيها المبادىء الاولية ، ثم انتقل الى مدرسة عيثا الزط (١٢٩٧ هـ) وبنت جبيل (١٣٠١ هـ - ١٨٨٣ م) ، حيث درس علوم العربية والمنطق والفقه والاصول . وسافر الى جامعة النجف سنة (١٨٩٠ م - ١٣٠٨ هـ) حيث درس على اساطين العلم فيها . وعاد منها يحمل اجازة في الاجتهاد بعد مرور احدى عشرة سنة فيها ، ليقيم في دمشق يرشد ويوجه كمسؤول اكبر عن الطائفة الشيعية فيها . وقد زار مصر والجامع الازهر فيها ، وبعد مدة من الزمن انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق .

وفي عام (١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م) سافر الى العراق فايران ، ليتم جمع مواد سفره الضخم وموسوعته الرجالية (اعيان الشيعة) . ثم عاد الى دمشق .

سكن في المدة الاخيرة من حياته بيروت ، حيث توفي فيها سنة (١٩٥١ م - ١٣٧١ هـ) . ونقل جثمانه الى دمشق حيث دفن في مقام السيدة زينب .

٢) نقض الوشيعة ، صفحة ٥ .

٣) المراجعات ، الصفحة ٤٠ .

٤) ولد السيد حسين محمود ابراهيم مكي في حبوش (١٩٠٨ م) ، وتلقى دراسته في النجف الاشرف ، وعاد منها بدرجة اجتهاد الى دمشق . له عدة مؤلفات منها : مصباح الداعي =

بحث مسائله بالمنطق معتمداً على معطيات القرآن والسنة ، وأحداث التاريخ الاسلامي المثبتة .

وان لم تكن المؤلفات رداً مباشراً فانها في غالبها كانت تدور حول موضوع الخلافة ، وحق علي بذلك ، ككتاب الموازين النفسية في سياسة الخلفاء الراشدين للشيخ عبد الله نعمة [1] .

أو أنها كانت تتناول مسائل كبرى في الفقه والمعتقد فتبحثها موفاة ككتاب المتعة في الاسلام (١٩٦١ م) للسيد حسين مكي الذي تعرض فيه للمرحلة الطويلة التي مر بها تشريع المتعة وما طرأ عليها في التاريخ من تقلبات عابرة مثبتاً إياها ، جزءاً أصيلاً من صلب المعتقد الاسلامي ، يؤكد القرآن والسنة وموثوق الروايات بقاءها كتشريع ثابت في الاسلام ، وقد ترجم هذا الكتاب للفارسية .

هذا الى جانب رسالات صغيرة وبحوث عابرة في هـــذه المواضيع التي تهم العقيدة ومسألة التشيع التي برزت حرة واضحة في هذا الدور ، وكان نشرها تدليلاً على الحرية الفكرية التي مارسها العامليون خلال هذه الحقبة الحاضرة من التاريخ .

في علوم اللغة :

يبدو أن البراعة في اللغة والتمهر في فقهها ، كانت ضرورة أولى بالنسبة لعلماء العامليين وشعرائهم ومفكريهم ، بل إن الاخذ بعلومها كان شـــرطاً أساسياً في المرحلة الأولى من التعليم ، بعد أن يصبح طلابهم قادرين على القراءة والكتابة .

وكان من الطبيعي أن تجدهم يتداولون الكتب الأعلام ، المؤلفة في نحو لغة

= العصمة ـ المتعة في الاسلام ـ وعقيدة الشيعة في الامام الصادق ، وما زال منصرفاً الى التأليف في دمشق ، عاملاً في التدريس في جامعة النجف .

١) الشيخ عبد الله نعمة من قضاة المحكمة الجعفرية في لبنان ، له مؤلفات عديدة في الادب والفلسفة ، وأبرزها كتابه فلاسفة الشيعة .

العرب وعلومها ، كالأجرومية ، وقطر الندى ، وألفيـــة ابن مالك ، ومغني اللبيب لابن هشام . وقد تعدوا حدّ البراعة فيها الى مرحلة التأليف والابداع ، فقد ألف الشيخ محمد سليمان الزين (١٣١٨ هـ ـ ١٩٠٠ م) كتاباً في الصرف ، وكتب السيد محسن الامين حواشي على المطول [1] . والشاعر محمد علي الحوماني منظومة في ٥٠٠ بيت جمعت المفردات المذكورة في مغني اللبيب لابن هشام ، الكتاب الذي يحتوي سائر الحروف ، وعللها واعرابها ومعانيها ، واختلاف فقهاء اللغة فيها ، فجاءت منظومة الحوماني حاوية لاحكامها مع براعة في النظم وبلاغة في الاسلوب [2] .

ولقد بلغت التآليف في هذا المجال قمتها ، ليس في جبل عامل فقط بل في البلاد العربية قاطبة ، في النصف الأول من القرن العشرين بمؤلف كبير هو (معجم متن اللغة) الذي بامكانه أن يضاهي البارز من قديم المعاجم في اللغة العربية ، كالمحيط للصاحب اسمعيل بن عباد، ومقاييس اللغة للرازي ، والصحاح لأبي نصر الجوهري ، وتاج العروس للزبيدي، ولسان العرب ، إنه معجم متن اللغة للعلامة الكبير الشيخ أحمد رضا [3] . ولقد كلفه المجمع العلمي العربي في دمشق بالعمل ، على اعداد معجم مطول يجمع فيه ما تناثر من جواهر العربية في بطون

١) أعيان الشيعة ، ج ١ ق ١٥٤/٢ . ٢) العرفان ٤٣٦/٧ .

٣) ولد احمد رضا سنة (١٨٧٢م) ، بدأ دراسته في كتّاب بلدته النبطية عام (١٨٧٨م) ، ثم أخذ يتنقل بين مدارس انصار والنبطية الفوقا والتحتا ، وانقطع عن الدراسة المنتظمة سنة (١٨٨٤ م) ، ولكنه تابع الاشتغال بالعلم رغم انصرافه الى كسب حياته ، فدرس على العلامة السيد حسن يوسف مكي بعد عـــام (١٨٩١ م) في مدرسة الحميدية التي أصبح من بعد استاذاً فيها . . .

وقد كان يتطلع الى كل جديد ، تدفعه الرغبة الى تحسين أوضاع جبل عامـــل الشيعية ، وقد عمل كعضو في الجمعيات السرية التي تسعى الى تحرير البلاد ، وقد كان مع رضا الصلح وعبد الكريم الخليل من أفراد القافلة الاولى التي قدمهـــا السفاح جمال باشا للمحاكم العرفية في عاليه ، ولكنه استطاع أن ينجو . قاوم الانتداب الفرنسي ، واشترك في ثورة جبل عامل على الاحتلال الفرنسي سنة (١٩٢٠ م) ، مثل بلاده في عدة مؤتمرات سياسية وأدبية ، منها مؤتمر الوحدة السورية ، ومؤتمر الساحل، ومؤتمر بلودان ، والمؤتمر الاسلامي في القدس ، ومؤتمر بيت مري ، =

المطولات اللغوية القديمة ، والحاق ما استحدث من الألفاظ والمصطلحات به)[١].

ولقد بدأ العلامة العمل منذ عام (١٩٣٠ م) وانهاه عام (١٩٣٩م) ،وظل قيد المراجعة حتى عام ١٩٤٧ ،ورصدت له الحكومة السورية مبلغاً كبيراً لطبعه ، وتشكلت لجنة من المجمع العلمي للاشراف عليــه ، ولكن المرض والاحداث السياسية حالت دون اتمام هذا العمل ، حتى كان عام ١٩٥٨ م ، باشرت طبعه دار الحياة في بيروت في ستة مجلدات ، وانتهى العمل من اخراجها عام (١٩٦١).

وكانت مجمل صفحات الأجزاء الستة ما يقرب من ٣٥٠٠ صفحة ، وللمعجم مقدمة حوت مباحث على جانب كبير من الأهمية ، تناولت نشوء اللغة ، وحاجة الانسان اليها ، مؤكداً أن أم اللغات واحدة ، وانها تدرجت من الإيماء والاشارات الى مقاطع صوتية ، وقد خص اللغة العربيــة ببحث مفصل عن نشأتها ولهجاتها . أما ترتيب الكتاب فكان :

١) على أصل المادة المجردة من الزيادات في الحروف .

٢) بدأ بالترتيب على نسق كالألف قبل الباء ... الخ .

٣) ذكر الفعل الثلاثي ومصادره لأنها سماعية ليس لها ضابط .

ولقد ذكر الصيغ المتعددة ، والنسب الشاذة ، والكلمات الدخيلة في العصور الماضية والتي اندثرت ، وتفرد بشيء جديد هو أنه حاول رد الكلمات العامية الى أصلها الفصيح . ولقد اعتمد الكتاب الأقدمين المرجع لدراسته دون المحدثين ، ولم يذكر الاصطلاحات الفنية لأنها خارجة عن اللغة .

وقد أشار للكلمات المعرّبة سواء أكانت من عمل المجمع المصري ، أو المجمع العلمي العربي بدمشق ، او مما وضعه أنستاس الكرملي .

= الثقافي الذي عقدته جامعة الدول العربية ، وفي ١٨ تشرين الاول (١٩٢٠ م) قرر المجمع العربي بدمشق انتخاب احمد رضا عضواً في المجمع (راجع معجم متن اللغة ، ج ١/ ١١) .
وقد ترك مؤلفات عديدة منها : رسالة في الخط ، ورسالة في هداية المتعلمين ، عدا بحوثه ومقالاته . توفي سنة (١٩٥٣ م) .

١) معجم متن اللغة : ج ١ صفحة ٦ .

وهذا الكتاب على جانب كبير من الأهميــة اللغوية ، لم يعجز على شاكلته في سائر البلاد العربية والمشتغلة بالضاد ، فهو ليس قمة عالية في نتاج عامل ، بل رصيد ضخم أضيف الى ارث العرب الحضاري اليوم . ويدل على مقدرة صاحبه اللغوية ، ومدى ثقافته المتسعة ، خاصة وانه قد حرص على أن يكون كتابه جامعاً لكل مادة موجودة في لسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للزبيدي ، وأضاف لها الكلمات الجديدة ، فجاء المعجم مكتملاً باحتوائه للجديد والقديم على السواء .

في الفلسفة والاجتماع :

غالب المؤلفات الفلسفية في هذا الدور ، تستند الى الدين موضوعاً لها ، ولم يكتبوا في الفلسفة الحديثة من منطق وأخلاق وعلم النفس والعلوم الاجتماعية إلا نادراً .

ولقد دارت مؤلفاتهم حول محور الفلسفة الالهيــة في اتجاهين اثنين ، فمنها ما تناول الفلسفة بشكل عام ، متعرضاً لكبريات المسائل فيها ، كما في كتاب معالم الفلسفة الاسلامية للشيخ محمد جواد مغنية[١] ، متناولاً بالبحث مسائل الوجود ، والقدم والحدوث ، والماهية والجواهر والأعراض ... ومصير النفس الى صفات الله ، وآراء المعتزلة والأشاعرة .

أو كتاب الفرق الاسلامية للشيخ محمد خليل الزين[٢] ، باحثاً ليس عن الشهير من هذه الفرق ، بل عما خفي منها أيضاً واستتر ، معتمداً على تاريخ صدر

---

١) الشيخ محمد جواد مغنية من خريجي جامعة النجف ، وهو اليوم عدا كونه من اكبر قضاة المحاكم الجعفرية في لبنان ، علم من أعلام الفكر . أغنى المكتبة اللبنانية بما يزيد على عشرين مؤلفاً في الفلسفة والتشريع والعقيدة الشيعية .

٢) ولد محمد خليل الزين سنة (١٩٠٩ م) ،ودرس في النجف وعاد منها سنة (١٩٣٩ م) ، وهو من العلماء الافاضل ، وقد طبع كتابه هذا ، في النجف - العراق - مطبعة الغري .

الاسلام ، ليرد نشوء هـذه الفرق الى العامل السياسي من يوم السقيفة ، دون أن يلوي الاشارة الى آراء هذه الفرق وفلسفاتها بتعمق أكثر الأحيان .

ومن هذه المؤلفات ما تناول موضوعات مفردة جزئية من هـذه الفلسفة ، ويبدو أن هذا دليـل على تمثلهم هذه الفلسفة ، وطول باعهم فيها ، وقدرتهم التحليلية ، وليست نظرتهم لها مبهمة غامضة ، بل جلية واضحة ، كما في كتاب العصمة للسيد حسين مكي إذ تعرض المعنى الفلسفي لهذه الكلمة مدققاً بعمق الفرق بين العصمة والعدالة ، كما هو الفرق بين الفطرة والملكة المكتسبة ، مفرداً للنفوس الخيرة مبحثاً خاصاً فيه كثير من فلسفة الأخلاق ، يتوكأ بعد ذلك في سائر بحوثه على علم الكلام مستمداً من أحداث تاريخ الاسلام أمثلة .

أو في كتاب فلسفة المبدأ والمعاد ، للشيخ محمد جواد مغنية ، أو كتاب التصوف والكرامات ، ففي الأول ملامسات الفلسفة الحديثة ، وتعرض للمذاهب المادية ونقد الفلسفة الماركسية .

وقد كتب العلامة مغنية جملة من كتيبات صغيرة في حجمها ، كبيرة في موضوعها ، منها كتاب قم هو الله والعقل ، بحث فيه مواضيع قيمة تدور حول ما يلي : من خلق الله ؟ من رآه ؟ أين يوجد ؟ مجيباً على هذه الأسئلة بمنطق فلسفي سليم ، ذاكراً الملاحدة ، راداً عليهم بحجج كثيرة ، وعلى غرار هذا الكتاب ، ألف كتاب النبوة والعقل ، وفسر بأدلة عقلية ضرورة النبوة .

ومن البحوث المفردة في الإلهيات ألف الشيخ محمد علي ناصر كتاباً أسماه المبدأ الأول متناولاً البحث في وجود الله ، أو كتاب اثبات الصانع للشيخ خليل ياسين ، غايته اثبات وجود الله فلسفياً .

ولعل من أبلغ المؤكدات على أن الدافع الديني كان في أس التأليف الفلسفي وخاصة بالاتجاه الشيعي ، هو ما حدا بالشيخ عبد الله نعمة لتأليف سفر ضخم أسماه فلاسفة الشيعة ، يزيد عدد المترجمين فيه على سبعين فيلسوفاً ، عبر العصور الاسلامية الغابرة ، مفتشاً عن تراثهم الغني بكنوز الفكر ، في الفلسفة والمنطق والكيمياء ، والرياضيات ، وسائر العلوم .

والأستاذ عبد اللطيف شراره مؤلفات فلسفية عديدة ، منها كتاب فلسفة الحب عند العرب وهذا الكتاب عدا كونه في مطلعه مبحثاً أدبياً ، فهو يلامس الفلسفة بتناوله الحب العذري ، وتبيان أثره الأكبر في نشوء الصوفية والتفكير الصوفي ، والكتاب دراسة كانت الأولى من نوعها لموقف النفس العربية عبر العصور ، من هذه العلاقة بين الجنسين ، وكيف نظر اليها الشعراء الفقهاء ، والفلاسفة في المحيط العربي .

كما له كتاب اجتماعي ، بحث في القومية العربيـة ، أسماه روح العروبة ، وطبعه سنة (١٩٤٧ م) ؛ وكانت الغاية منه توضيح كيف يكون الإنسان عربياً ، من حيث التكوين النفسي ، والاخلاق والاتجاهات الانسانية .

أما في السير المفردة للفلاسفة ، فقد ألف الشيخ عبد الله نعمة في سيرة هشام ابن الحكم الفلسفية متحدثاً عن الحركة الكلامية في عهودها الأولى ، عارضاً لآرائه المثبتة في الفلسفة ، وغايته من تأليفه ، ابراز هذه الشخصية التي جهلها الناس لتناسي تاريخ الفلسفة له ، فتوفرت همة العلامة الكبير على نبش الماضي احياء لذكرى العباقرة .

في التشريع :

نقصد بالتشريع هنـا ، ما ألف في الفقه (العملي) الذي أخذ ليكون في متناول حاجات الناس ، فألفت رسائل عملية كانت أولاها محاولة السيد محسن الأمين أسماها (بالدر الثمين) ، ترسم للمسلم الشيعي طريق العبادة والمعاملة ، وقد أعاد السيد حسين مكي ابرازهذا الكتاب بما يطابق فتوى السيد محسن الحكيم المرجع الشيعي الأعلى اليوم . سنة (١٩٥٥ م) في دمشق .

وقد ألف الشيخ محمد جواد مغنية كتاباً في هـذا الباب أسماه (الفصول الشرعية) . وهو ليس جديداً في محتوياته وموضوعاته ، لأنها تستند الى القرآن والكتاب والسنة ، ومئات المجلدات السابقة المصنفة ، لكن ما يعتبر جديداً وجريئاً في هذا المجال ، هو الأسلوب الجديد الذي عرض به مسائل الزواج

والنفقة والطلاق الرجعي والبائن والوقف والوصية والارث ، وحيثيات الاحكام كلها بحوث مفصلة موجزة في الأحوال الشخصية على المذهب الجعفري ، وقد جاءت هذه الأبواب في مواد مرقمة ، بلغت ثلاثمائة مادة ومادتين ، وبسهل هذا الكتاب الطريق على القضاة ، ويمكن أن يكون مرجعاً قانونياً ، يسهل الاطلاع على طريقة الاحكام الجعفرية في المحاكم ، ويفصل ما يتعلق بالأحوال الشخصية .

وما يمكن لنا أن نلحقه بهذا الباب ، كتاب تاريخ الفقه الجعفري ، للسيد هاشم معروف الحسيني ، تكلم فيه عن الحاجة للتشريع ، وبحث مواضيع مختلفة من عبارات ومعاملات كالحج والصلاة والزكاة ، وأسس تشريع هذه الشعائر . وفي القسم المتأخر من هـذا الكتاب ذكر دور الشيعة والتشيع ومساهمتهم في تدوين الحديث ، وقد جاء هذا الكتاب محتوياً على تشريع الفرائض ، أكثر منه في تاريخ الفقه الجعفري .

ومنها كتاب الفقه على المذاهب الخمسة ، للشيخ محمد جواد مغنية ، عرض فيه للمسائل والشعائر الاسلاميـة ، ذاكراً آراء المذاهب الخمسة : الجعفري ، الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي ، عارضاً نقاط الاتفاق والاختلاف حول هذه المسائل .

في التاريخ والسيرة :

كالعهود والأدوار السابقة ولج العامليون في هذا الدور الناهض باب التاريخ وتعددت في السيرة مؤلفاتهم ، وكانت كتاباتهم في هذا المجال ، مدفوعة بباعثين: باعث اقليمي وطني ، وباعث ديني مذهبي ، فتحددت بهـذه البواعث نوعيات مؤلفاتهم التاريخيـة ، فمنها ما بحث في تاريخ الجبل العاملي ، منذ تسميته بهذا الاسم حتى أيامنا هذه ، ككتاب جبل عامل في التاريخ للشيخ محمد تقي الفقيه ، تكلم فيه عن جغرافية الجبل ، قبل ذكر الوقائع ، التي اتبع في سردها سير الأيام والأعوام ، معتمداً على وثائق التاريخ ، وبقايا الأدب .

أو كتاب مع التاريخ العاملي للشيخ علي الزين ، الذي تناول فيه مؤلفه أم

المواضيع ، متعرضاً للأسر التي حكمت جبل عامل والحركة العلمية التي نشطت في تضاعيف حكمهم ، عائـداً الى غربلة الصحيح من المصادر ، في جرأة نادرة على اكتشاف الحقائق ، موضحاً النقاط الكاذبة ، مشيراً الى التزوير والتلفيق الذي لحق تاريخ العائلات الحاكمة ، محدداً في مقدمته الخطوة التي سيخطوها هو ، والتي يجب أن يخطوها كل مؤرخ بقوله : « ولهذا كان على المؤرخ الطامح الى وحدة أمته ، ومصلحة بلاده ، أن يكتب التاريخ بروح علمية بريئة ، تبعث فينا هزة الاكبار لكل مخلص أمين على واجبه القومي والانساني والوطني ... »[١] .

ولقد بين الواجبات والخطى التي يجب أن يقوم بها المؤرخ ، ضارباً المثل بنفسه وبمؤلفه ، ثائراً على فكرة التحريف ، معتبراً إياها آفة الوثائق التاريخية[٢] .

وعلى صفحات العرفان[٣] ، كتب محمد جابر صفا[٤] مقالات وبحوثاً عديدة ، أسماها صفحات من تاريخ جبل عامل ، ذكر بإيجـاز ما مر على جبل عامل في مطلع عهده بالتشيع ، مفصلاً أكثر في العهود المتأخرة ، مشيراً الى النشاط العلمي ، وخاصة المدارس فيه .

وهناك مؤلفات عديدة تختص بقرى ومدن جبل عامل ، منها : معجم قرى جبل عامل ، ذاكراً تاريخ هذه القرى وما مر عليها من أحداث ، وما غشيها من حركات فكر وعلم ، وأصابها من أهوال ، ووقع في ساحتها من حروب ، وبرز

---

١) مع التاريخ العاملي ، صفحة ٧ . ٢) مع التاريخ العاملي ، صفحة ١٩٠ و ١٩٦ .

٣) العرفان ، المجلد ٢٦ – ٢٧ .

٤) محمد جابر صفا . ولد في النبطية سنة (١٢٩٠ هـ – ١٨٧٢ م) ، درس في مدرستها الرسمية مبادىء العلوم ، وأتم النحو والصرف والمنطق والبيان على السيد محمد ابراهيم ، كان محباً للعربية عاملاً لها ، وقد سبق للحركة العربية في عاليه ، اشترك مع سليمان ظاهر وأحمد رضا في انشاء جمعية المقاصد الخيرية في النبطية ، وعمل على انشاء جمعية النهضة العاملية التي تألفت في عام (١٩٢٨م) .له عدة مؤلفات في الأدب والتاريخ ، وكل هذه المؤلفات مخطوطة . توفي سنة (١٩٤٥م) في ١٣ نيسان .

في تاريخها من رجال ، اشرها مصنفها الشيخ سليمان ظاهر [١] ، على صفحات مجلة العرفان [٢] ، فقدم بذلك دليلاً تاريخياً لهذه المنطقة الصاخبة بالحضارات من لبنان ، تضاهي معجم البلدان لياقوت الحموي ، وعلى نفس النسق ، لكنها جاءت محصورة بجبل عامل فقط .

ومن الأبحاث ما نشر مؤخراً في العرفان [٣] ، كمذكرات تاريخية عن فترة قصيرة من الزمن ، للشيخ أحمد رضا ، فقد كتب يوميات عن الأحداث والثورات ، ومقاومات العاملين للفرنسيين ، الحالين في أرضهم سنة (١٩٢٠ م) ، متصديا لذكر الوقائع المؤلمة ، وتعديات الفرنسيين على قرى الجبل العاملي ، ويمكن اعتبار هذه المذكرات أصلاً تاريخياً ، فيه من التجرد والنزاهة ، والموضوعية في سرد الحادثة ، ما يمكننا اعتمادها وثائق جاهزة للتأليف التاريخي .

ومن المؤلفات ما تناول مواضيع مفردة ، تبحث في تاريخ مدن أو قلاع ، كما فعل الشيخ أحمد عارف الزين ، في كتابه تاريخ صيداء ، مدفوعاً بعاطفة الاخلاص للمدينة التي أقام فيها ، مبرراً تأليفه لهذا الكتاب في مقدمة قائلاً : « لما رأيت بأن مدينتنا صيداء لم يفرد لها أحد من مؤرخي الشرق والغرب ،

---

١) ولد سليمان ظاهر بالنبطية سنة (١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣ م) ، وتلقى علومه الاولى في احد كتاتيبها ، ثم تنقل بين مدارس النبطية الفوقا ، وبنت جبيل ، وعاد لبلدته النبطية التحتا ليدرس في المدرسة الحميدية للسيد حسن يوسف مكي من سنة (١٨٩١ حتى سنة ١٩٠٦ م) ، واشتغل بعدها في التأليف والكتابة . شغل في القضاء مراكز عديدة، وتنقل بين النبطية وجونية والهرمل.
كان من العاملين في سبيل النهضة العلمية والفكرية في جبل عامل ، وبلدته النبطية؛ اشترك في تأسيس جمعية المقاصد الاسلامية ، وانشاء المدارس التابعة لها .
ولقد كان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وكتب بمجلة هذا المجمع مواضيع عديدة ، بينها مواضيع عن الشيعة وجبل عامل .
ترك عدة مؤلفات ؛ منها دواوين شعرية : الالهيات ، والفلسطينيات ، ومعجم قرى جبل عامل ، وقلعة الشقيف ، وكتاب مخطوط عن تاريخ الشيعة ، كما حرر في عدة مجلات وصحف غير مجلة العرفان . وقد توفي في النبطية عام (١٩٦١ م) .

٢) العرفان .

٣) العرفان ؛ راجع مذكرات للتاريخ ، الشيخ احمد رضا ؛ المجلدات : ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ .

تاريخاً خاصاً ، يضم به شتات أخبارها وأحوالها ... مع كثرة ما جاء عنها في بطون التواريخ .. رأيت أن أفرد لتاريخها هذا البحث ... » [١] .

وقد ذكر فيها مبدأ بنيانها ، ونشاط الفينيقيين فيها ، وما مر عليها من حملات ، واحتلال الآشوريين والفرس واليونان ، متكلماً عن الآثار القديمة المكتشفة في أرضها ، وعن حالها في العهود الوسطى ، والاسلامية ، والصليبية ، والعثمانية ، كما تكلم عن حالها في عصرنا الحاضر ، فكان مؤرخاً لمدينته فيما سبق ، وواصفاً لها في الحاضر .

ومن نوع هذه المؤلفات التي تختص بالبحث مدينة أو بقعة صغيرة ، ألف الشيخ سليمان ظاهر كتاباً عن قلعة الشقيف ، تكلم فيه عن موقع القلعة ، وتاريخ بنائها ، وما مرت فيه من أطوار وأدوار من عهود الرومان ، الى عهود العرب والصليبيين ، وما أضيف على هذه القلعة وما هدم . كما كتب الشيخ سليمان ظاهر نفسه عن قلعة هونين ، وتبنين ، على صفحات مجلة العرفان .

أما المباحث التي كانت قد كتبت وصنفت بباعث ديني ، فهي دون شك تختص بالشيعة وتاريخها وسير رجالها .

ومن هذه الكتب ، مؤلف للشيخ محمد حسين الزين ، أسماه الشيعة في التاريخ ، وطبعه سنة (١٩٣٨ م) ، تعرض فيه لنشأة التشيع ، والفرق الشيعية ، ومواطنها وترجم للرجالات اللامعين من الشيعة .

أما في السيرة ، فإن سفراً ضخماً يحتل مكانه البارز ليس بالنسبة لجبل عامل فقط ، بل بالنسبة للتشيع في سائر بقاع الأرض العربية والفارسية ، تناول بالدرس الألوف من الرجالات ، كلاً على حدة ، متعرضاً لحياة كل منهم ، ولمؤلفاته ونتاجه الفكري والأدبي ، وآثاره ، هو أعيان الشيعة ، الذي يمكن اعتباره دائرة معارف كبرى ، وموسوعة طبع منها حتى الآن ٥٢ مجلداً ضخماً .

وفي سنة (١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م) بدأ مؤلف هذا الكتاب السيد محسن

---

١) عارف الزين ، تاريخ صيدا ، صفحة ٩ .

الأمين في جمع مواد مؤلفه الضخم، وسافر الى العراق وإيران، ليمكث ما يقارب العام، ويطلع على المخطوطات وقديم الكتب ويقتني منها ما يقتني، ويلسنخ ما يستطيع، وقد بدأ بطبع هذا الكتاب سنة (١٩٣٥ م) ولا يزال طبع أجزائه المخطوطة مستمراً حتى الآن، بإشراف ولده حسن الأمين.

ومن بين مجلدات (أعيان الشيعة) ما يعتبر مصدراً هاماً ليس بالنسبة لتاريخ الشيعة، ونشاطهم الفكري والأدبي، منذ نشوئهم حتى اليوم، إنما يعتبر مرجعاً عاماً لدراسة الأدب العربي، فقد أفرد المؤلف مجلدات كاملة، لدراسة كل من أبي نواس، وأبي الطيب، وأبي تمام وأبي فراس، كما تناول الأعلام منهم، كالشريف الرضي، والسيد الحميري.

ولقد كان طول الترجمة الواحدة لأحد هؤلاء الأعيان تتفاوت بين سطر واحد، ومئات الصفحات، أو المجلد الكامل.

وإذا كان أعيان الشيعة يعتبر مرجعاً هاماً في السيرة، وتاريخ الحضارة الشيعية، فإن مؤلفات العامليين التاريخية عمدت الى بلورة تاريخ جزء من لبنان، وخريطة صحيحة من بلاده.

وعلى هذا يبدو أن نتاج العامليين في هذا المجال، هو على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتراث الفكر اللبناني، ويعتبر نشاطهم هذا مثالاً صادقاً، في التأليف التاريخي، ونموذجاً يحتذى في الأمانة التاريخية، والدقة في عرض الأحداث، وملاحقة الضمير العلمي لديهم.

النشاط الأدبي

•

لبدت مظاهر النهضة واضحة خلال هذا الدور بالنتاج الأدبي، وما داخله من جديد في الموضوع والشكل أحياناً، أكثر ما تجلت بالنتاج العلمي والفكري، من فلسفة، وفقه، وتاريخ، وتشريع، فقد كان للعامليين سبقهم في الأدب في عهودهم الماضية، فهو في أرضهم أرسخ، وفي تاريخهم أقدم عهداً، والعهد بهم أقرب، أما العلم فهو بالنسبة للعالم العربي أجمع، يمر في مرحلة طفولة حتى اليوم، ويكفي العامليين في مطلع هذا الدور أنهم أخذوا بوسائله، وأن ما كان من نشاط ظاهر، في العدد المتكاثر من مؤلفاتهم، في مجالات الفقه والفلسفة والاجتماع والتاريخ، ضمن مدة بسيطة من الزمن، لينمي عن نهضة فكرية ذات وزن نوعي مرتفع. وان الروح العلمية قد داخلت نفوسهم، فعمدوا الى الأدب بنظرة ثانية غير تبصرهم له في السابق، وأصبح لهم وعي أدبي يهتم بماضي الأدب، ونتاج العباقرة السابقين فأنتجوا وللمرة الاولى مؤلفات وكتبوا بحوثاً في النقد الأدبي.

ولقد كتب الشيخ سليمان ظاهر بحوثاً في تاريخ الادب نشرها على صفحات العرفان [1] تحت عنوان «آداب اللغة العربية».

ولقد سعى العامليون بدافع نهضتهم بالأدب في هذا الدور والعمل على نشره وهذا ما فعله احمد عارف الزين، ليس على صفحات عرفانه، بل في تصحيحه وشروحه وتعليقه على كتاب الوساطة، بين المتنبي وخصومه للجرجاني، طبعه سنة (١٩١٣ م) في ٤١٦ صفحة.

(١) العرفان، مجلد ٥ / ١٣ و ٥٨.

وقد كتب بدافع شيعي ، الشيخ عبد الله نعمة مؤلفاً في الادب أسماه « الأدب في ظلال التشيع » عرض الى تأثير هذه الفكرة على الأدب ، متكلماً عن أبرز الاعلام الشيعية من كبار الادباء .

ولقد كتب حديثاً في مواضيع النقد الأدبي ، الاستاذ عبد اللطيف شراره مؤلفاً أسماه « التجربة الشعرية » ، عرض فيه لأهم الآراء والأفكار والمدارس الشعرية القديمة والحديثة ، وقد كان ايضاحاً لواقع الحياة الشعرية لدى العرب ، قديماً وحديثاً .

كما اهتم العامليون بالحركات الأدبية الناشطة في ربوع العرب ، فألف محمد يوسف مقلد كتاباً عن (شعراء موريتانيا) القطر العربي الطامح حديثاً ، ليجابه حياة الاستقلال ، وقدم من شعراء هذا القطر الصغير ، البارزين العديدين من القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا ، وعرض لشعرهم وأدبهم الذي يعود الى الجاهلية بشكله ، ويعبر عن طفولة فكرية كان يعيشها هذا الشعب الناهض اليوم .

وقد اطلع أدباؤنا هذه الفترة على نشاط أدباء الغرب ، ولم يكتفوا بهذا بل انطلقوا الى التأليف حول سيرهم ونتاجهم ، فقد كتب عبد اللطيف شراره عن برناردشو بعنوان « برناردشو العقل الساخر » ، وقد كانت دراسته مفصلة لسيرة هذا الكاتب الأرلندي ، وعرضاً لآثاره وأفكاره ، وتأثيره في الحياة الحديثة .

أما في دنيا العرب ، فقد تكلم عن الحجاج طاغية العرب ، وقد كان كتاباً قيماً ، ذكر فيه الصراع الذي نشأ في أعقاب الحركة الاسلامية ، بين الروح الوثنية التي ظلت راسبة في البيئات العربية ، وبين الدين الجديد .

ويعتبر عبد اللطيف شراره في النتاج الأدبي ، القمة التي بلغها النشاط الفكري في جبل عامل ، من حيث المواضيع التي عالجها ، والكمية التي أنتجها ، فلقد عدا الكتب التي ذكرناها ، ملحمة نثرية خيالية أسماها « في قرى الجن » ، ومجموعة من قصص دعاها « الدنيا تتحدث عن نفسها » ، وهي مجموعة أقاصيص رمزية بشكل أحاديث .

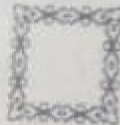
وفي دراستنا للشعر والنثر في هذا الدور ، وتفحصنا لمظاهره الأدبي ، يتبين لنا ثلاثة أجيال يسمح لنا نتاجها المختلف الميزات ، والذي يسجل تطوراً ونمواً في جديد الفكرات والقالب ، أن نجرؤ على تقسيم الدور الذي مر فيه هذا الأدب الى ثلاث مراحل :

١ – مرحلة إحياء القديم .

٢ – مرحلة التطور .

٣ – مرحلة التجديد .

ولا بد لنا من العرض لكل من هذه المراحل بنتاجها وأعلامها لنتبين خصائصها عن كثب .



مرحلة احياء القديم

•

ليس بالإمكان تحديد الفترة الزمنية لهذه المرحلة بالضبط ، فقد تداخلت هذه المراحل ، تداخل القديم والجديد ، كما أنه ليس باستطاعتنا تجريد أي مرحلة من هذه المراحل ، من نسمات قديم تهب بين حين وآخر ؛ نسيم صحراء يدخل الروضة الغناء ، من أدبنا المعاصر ، ولكننا نستطيع تحديد نقطة المنطلق لهذه المرحلة ، كونها الأولى في دور النهضة هذه التي بدأت في نهاية القرن الثالث عشر سنة (١٨٨٣ م) موعد افتتاح المدرسة الحديثة في جبل عامل . ولقد كان الأدب في هذا الدور امتداداً للماضي ، فوجود الحركة ليس جديداً في الجبل ، إنها كانت في الوجود خلال أدوار نشاط الفكر والأدب سابقاً ، انما اتخذت لها نهجاً جديداً متأثرة بعوامل النهضة .

ميزات الادب ومواضيعه في هذا الدور :

لقد تنوعت المواضيع في هذا الدور ، ولكنها بقيت بقالب القديم ، يتلمس الشعراء الجدد خطى القدماء ، ويتفننون في براعة الاستهلال ، عامدين للتخلص الى مواضيع أخرى في القصيدة ، حريصين على فخامة اللفظ والتركيب الرصين ؛ ولعل ما كان يهمهم في البداية ، ويبدو موضوعاً جاهز الفكرات ، هو المدح الديني لديهم الذي كان في العهود السابقة ، وما زال للعهد الحاضر يرفده الشعور الديني ، والعصبية الشيعية ، ينبع من معين لا ينضب هو بطولات علي وأبنائه ، خاصة الحسين منهم الذي كانت مأساته حدثاً إنسانياً ، خرج عن نطاق الأمجاد الشيعية ، ليضاف الى تراث البشرية ، ضرب من الجهاد الخالد ، حدا بالكثير من

شعرائنا ، وفي طليعتهم في هذا الدور الشيخ عبد الحسين صادق[1] ، الذي استقى من حادثة كربلاء مواضيع ديوان كامل ، فأبرز شجاعة بطلها الحسين المتفادي الذي :

أقام سوق وغى راجت بضائعها ... فابتاع لله منها ما علا وغلا
تعطيه صفقتها بيض الصفاح وسمـ ... ـر الخط تربح منه العلى والنهلا
فضى منبع القفا من طعن لائمة ... مذ للقنا والمواضي وجه بذلا

إنما كانت شهادة الحسين خيراً للدين ، واستشهاده في سبيل الحق والكرامة والانسانية :

أحيا ابن فاطمة في قتله أمما ... لولا شهادته كانت رميم بلا
تنبت من سبات الجهل عالمة ... ضلال كل امرىء عن نهجه عدلا[2]

وكثيراً ما شغلتهم المواضيع التقليدية كالمدح والرثاء والغزل الذي لا يعدو أن يكون غزل فقيه لم يباشر الحب متهتكاً ، طليق العاطفة ، إنما جاء في بزة تقليدية ، يعبر عن عاطفة أو تجربة عاطفية ليست عقيدة ، إنما شعور يخالج خالج الشاعر منهم في حياته .

---

١) ولد عبد الحسين بن ابراهيم بن صادق العاملي في اواخر سنة (١٢٧٩هـ - ١٨٦٢م) في النجف ، وفي السنة الاولى من ولادته عاد به والده الى جبل عامل ، ثم درس في محدل ملم زمناً ، النحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق ، والاوليات في الفقه ، ثم هاجر قاصداً طلب العلم الى النجف سنة (١٣٠٠ هـ - ١٨٨١ م) ، حيث قضى مدة سبعة عشر عاماً رجع بعدها عنها مجازاً سنة (١٣١٦ هـ - ١٨٩٨ م) ، ليعود الى بلدة الخيام ويشيء فيها مدرسة دينية وقد توفي في النبطية سنة (١٩٠٥ م) .

وقد ترك مؤلفات عديدة في اصول الفقه ، منها كتاب المواهب السنية في فقه الامامية ، وكتاب الشذرات ، وقد غلبت الشاعرية على نتاجه حتى نظم في المواريث ، وله منظومة اخرى رد فيها على فتاوى مشايخ الوهابية ؛ أما في الشعر الخالص فقد ترك لنا ثلاثة دواوين هي : سقط المتاع ، وعرف الولاء ، والنظرات والمناظرات ؛ وهي بالتالي اجزاء متلاحقة .

٢) اعيان الشيعة ٣٧٠/٩٧ .

وهذا ما حدث في غزليات الشيخ عبد الكريم الزين (١) :

شيمي لحاظك ريبة الحجب — لا تذهي بدمي ولا نشبي
ودعي الهوى يعدو على كبدي — أنى أنتحى ويدب في عصبي
كم ليلة بتنا وزمقنا — عين الأقاح وأعين الشهب

وقد يكون لقاؤه بحبيبه في روض بهيج ، تغني على أغصانه ورق شاديات ، وكلما أمعن الشاعر في ابراز مجالات الحب ، كلما تلمست تقليديته ، فشعره هذا لا يتناسب وسيرته الفاضلة حين يقول في الخمرة :

أو أنها من ثغره سكبت — لكن تسمى بابنة العنب
أو أن خدك سال من خجل — من قبلة فطفى على الحبب
سحر القلوب بلحظة أترى — هو ساحر أو آية لنبي

ومن أجمل ما قيل في الشعر التقليدي بموضوعه ، الجديد بظرفه ، شعر الحنين الذي لا يعتبر جديداً على الشعراء العامليين ، والشعر العاملي ، فان لقدمائهم القدح المعلى في العهود السابقة ، ويبدي شعراء جبل عامل في هذا الدور تعلقاً ببلادهم ، فيه من العاطفة الرقيقة ، أكثر ما فيه من الاعتزاز والشعور بالفخر ، وهذا ما جاء في شعر السيد محسن الأمين :

سقاك ياعامل فيض الغمام همى — على ربوعك آكاماً وغيطانا
لأنت أول أرض مس تربتها — جسمي وفيها قديماً منشأي كانا

١) ولد عبد الكريم بن حسين بن ابي خليل ... الزين العاملي الخزرجي سنة (١٢٨٤ هـ - ١٨٦٧ م) ، في جبع ودرس في مدرستها ومدرسة بنت جبيل الاوليات في اصول الفقه ، وهاجر الى النجف لطلب العلم مدة طويلة رجع بعدها مجتهداً كبيراً ، ليقيم في قرية جبشيت مشتهراً بالتقوى والصلاح .

وقد ترك مؤلفات عديدة ما زالت مخطوطة منها : ١ - ديوان شعر له . ٢ - مجموعة في مدح اهل البيت والمواعظ . ٣ - كتاب في الطب والحكمة . ٤ - رسالة في السفور والحجاب . ٥ - رسالة في الرد على الوهابية ، عدا رسائل في التوحيد والجبر والتفويض والفقه والاصول وقد توفي سنة (١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م) .

وأنت أول أرض قد رضعت بها — عصر الصبا من ثدي العلم ألبانا
لله أيامنا في عامل فلقد — كانت صباحاً وجوه العيش غرانا
أيام أنس تقضت لو تعود بها — كان الزمان قرير العين جذلانا (١)

أو ما جاء في هذه العاطفة من شعر للشيخ سليمان ظاهر ، نلاحظ في عاطفة التعلق بالوطن قدراً كبيراً من الرقة ، بعيداً من الحماس والاندفاع :

أعامل والجزيرة لي بلاد — ولي في أهلها أهل وصحب
لها حب بقلبي غير أن الـ — ذي لك فيه لم يشبهه حب
لئن صاحبت غير بنيك قوماً — فكم مستصحب من لا يحب
وعيشاً كنت أقطعه وثوباً — بأرضك ليت أني منه أحبو
وما وطني سوى جسدي وروحي — ومنه غذاهما جود وترب
اذا ما بي نبا ورحلت عنه — فان هواي فيه ليس يلبو
سأقضي ما حييت له حقوقاً — الى أن ينقضي أجل ونحب

وقد نجد هذه الرقة العالقة بالقديم ، من الشعر تسمو على الحب الوطني ، والحنين الى البقعة العاملية ، والغزل التقليدي ، الى غزل آخر فيه من الصوفية لمحات واضحة ، تستقي من نبع العقيدة الشيعية ، ومن تراث الأئمة الاثني عشر ، من أدعية وأوراد زاخرة بالحب الالهي ، عابقة بشذا العرفانيات ، وفي تقى علمائنا من التصوف درجات عالية ، يمليه معتقد راسخ ، وضمير طاهر ، ينقاد للارادة السماوية دون تردد أو تبصر للعاقبة ، وهذا ما جعل لحبهم خصائص مميزة ، وردت في شعر محمود مغنية (٢) :

ما أنت ذا عشق وان خفقت — منك الحشا وتحشرج الصدر

١) خطط جبل عامل ، الجزء الاول ص ٧٩ .

٢) محمود مغنية ولد في طيردبا ، وكان من علماء الشيعة الاتقياء ، وكان يقيم في النجف حوالي سنة (١٩١١ م) .

للعاشقين علائم ظهرت … ما فيك من آثارهم أثر
لا يبصرون سوى الحبيب ولا … لهم يمر بغيره فكر
خفضت نفوسهم فما لهم … في حكمها نهي ولا أمر
واستطيبوا ضر الهوى فغدوا … سيان إن نفعوا وإن ضروا
فلكل بلوى عندهم نعم … ولكل نعمى عندهم شكر
عرجت نفوسهم لمنزلة … من دونها العيوق والقمر
أمّوا الحبيب فلا ينهنههم … عن وصله ردع ولا زجر

واذا كان محمود مغنية قد تكلم بضمير النائب عن حال المتصوف ، فان العاطفة الدينية ، والحب الإلهي ، برز هيكله عارياً في شعر الشيخ عبد الكريم شراره [1] ، الذي وجد في تعذيب هذا الحب له ، عذوبة ، مستكيناً له على رضا ، وبالتالي معتصماً به من البلوى التي ينزلها فيه ؛ فكرة لم نقع عليها عند مشاهير الصوفية ، إن شعراءنا بقوا في نطاق الواقع والدين في عاطفتهم هذه ، دون أن يتخطوها الى مرحلة الاتحاد والوحدة ، فيشطوا كافرين ؛ إنه تصوف متشد ، بل مرحلة قصوى من التقوى ، سبيل النعيم :

كم تحجب عن خاطري … ان كنت عن طرفي محجب
عذّب فؤادي في هوا … ك فإنما التعذيب أعذب
يا مالكي عطفاً على … فانني الصبّ المعذب
واحكم علي بما تشاء … فان حكمك ليس يغلب
ولك اعتصامي من نوا … ك ومن جفاك إليك أهرب
هب أن عبدك كان أذنب … أوليس عفوك عنه أقرب

١) ولد عبد الكريم شراره سنة (١٢٩٧ هـ – ١٨٨٠ م) وكان فاضلاً شاعراً مجيداً ، توفي في بنت جبيل سنة (١٣٣٢ هـ – ١٩١٤ م).

لمحات الجديد في هذه المرحلة

●

الاتجاه الاجتماعي :

لم تخل هذه المرحلة التي عمدت الى احياء الماضي ، من همسات جديدة تدور في خلد شعرائها ، فقد أصبح هؤلاء يتطلعون الى الاحداث الواقعية التي تهم الجماعة ، ونصبح موضوعاً يحمل الموعظة والنصيحة ، ومن هذا الباب تسرب خلسة شعاع الجديد ، فواجه الشاعر العاملي الواقع سافراً ، وأخضعه لشاعريته فبدا ناجحا ؛ وممن تأثر بهذا الواقع الشيخ محمد حسين شمس الدين [1] الذي كان له في دنيا الشعر القديم جولات ، تخاله فيها ابن الصحراء والرمال ؛ ومن شعره الجديد ما نظمه مرة حينما زار مقام النبي يوشع في جبل عامل ، حيث يجتمع لديه أبناء الجبل للزيارة ، تأدية لطقس ديني ، وكثيراً ما ختم الشباب مستحبهم الشعائري هذا بلهو ورقص بدبكة ، مما يغيظ زاهداً متعبداً كالشيخ محمد حسين شمس الدين ليقول :

بئس الزيارة أيها السفهاء … رقص وفعل فواحش وغناء
لا دين يمنعكم ولا شرف ولا … بكم اذا ذكر الحياء حياء
أصبحتم بين الطوائف سُبّةً … فعليكم وعلى العقول عفاء
جئتم لحضرة يوشع زوّاره … إن الزيارة خشية وبكاء

١) ولد محمد حسين شمس الدين سنة (١٢٨٠ هـ – ١٨٦٢ م) ، في مجدل سلم ، وفيها وفي مدرسة شقرا تلقى علومه ، ونظم الشعر دون العشرين ، وفي اواخر حياته كاد يصاب بالعمى ، وهو في شعره ينتمي الى مدرسة القدماء بروحه وديباجته وله في الغزل والمدح والرثاء ، وفي مواضيع خاصة كثيرة ، ومن قصائده الخالدات ، الغديرية التي مدح فيها الامام علي مطلعها :

اليوم اكملت فيكم دينكم نزلت … ونعمة الله في الاسلام قد كملت
والسن الشكر آيات الثناء تلت … اذ حجة المرتضى بالنص فيه علت

وقد توفي في مجدل سلم سنة (١٣٤٣ هـ) في ٩ شوال / ٢ ايار ١٩٢٥).

لو كان يوشع حاضراً ما بينكم | لاستأصلتكم غارة شعواء
قل للذين تجوزوا [١] وتدفقوا | منكم جميع الأنبياء براء
فترى الرجال مع النساء ففرخة | في كف ديك والديوك رعاء

ولكن روحه التي طبعت بالقديم ، وضرب عليها بهر التقليد ، لا يمكن وقد تفلتت ، من تتبع القدماء في قصائدهم ، وأن تقع فريسة ما يعتقد الكثيرون حولها ، طالباً منهم السير على نهج الآباء ، فالخروج عنه خروج عن الشرف الرفيع :

أبدلتم الشرف الرفيع بجزمة | أفهكذا أوصتكم الآباء !

ويبقى مندفعاً في تيار تصوير الواقع ، فيأتي شعره سجلاً لأحداث تاريخية ، ووصفاً لحالة الوطن ، خاصة في الفترة التي ثار فيها العامليون على الافرنسيين سنة (١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠ م) ، ليقول راثياً حال هذا الوطن ، الذي تلقى ضربة المستعمر ، مستكيناً لأعماله المدمرة والقاتلة ، ولم يجرؤ شاعرنا وهو ذو مسؤولية أدبية على تشجيع قومه على المقاومة ، وتحريضهم على البذل ، فوصف متأسفاً لحال قومه :

سمعاً (فعامل) خطبه جلل | يكفيه عن تفصيله الجمل
لا تسأل الأطلال عن أحد | خفّ القطين وأوحش الطلل
ناخت على الجبل الخطوب ضحىً | فقل السلام عليك يا جبل
صبت عليه مصائب فعلى | أمثالها لا تبرك الإبل
وتدافعت ترمي مدافعها | كللاً تطاير تحتها القلل
والطير طير الحتف فوقهم | يرمي القنابل حيث ينتقل

هذا القديم الجاثم في الصدور ، الذي طبعت عليه الأنفس ، لم يقو حتى النهاية على ابعاد الجديد ، إن البيئة التي تحيط به قد أصمتها صرخات التجديد ، فساير العامليون هذه التطورات متطلعين الى كل ثورة ، محاولين الاسهام في كل انتفاضة ؛

١) تجوزوا استعملوا الجوز فنفخوا فيه = الشبّابة .

ولقد كان اعلان الدستور العثماني ، وخلع عبد الحميد ، موضوعاً تنفس فيه شعراؤنا الصعداء وأبدوا عن ابتهاجهم بهذا الحدث التحرري ، معبراً محمد حسين شمس الدين عن هذا الفرح :

تصرم الجور فقم منتجعاً | صفو الهنا لوردك المرتق
الى متى نوماً على الضيم فقم | منتهزاً في الدهر فرصة الرقي
ولا تخف إرصاد من جار فقد | أرهقه الخوف بما لم يطق
لو دام حال في الزمان لم يدم | ظلم فيا حاوي الضلال استفق
أنشوة الجور التي أعمتهم | أم نشوة الغي وحب الورق
تحكموا ظلماً وقالوا لدى | جورهم اللحمَ عن العظم اعرق

وقد كان من الجديد دعوة للنهضة العلمية ، التي كان يعتبرها العامليون أساس كل تقدم ورقي ، خاصة بعد اعلان الدستور ، الذي دعا للوحدة وأزال التفرقة ، فلا بد من البعد عن البغضاء المذهبية ، والعمل على التعاضد .

النقد الاجتماعي في الشعر :

اتجه الشعر في هذا الدور ، وجهة النقد الاجتماعي ، وكان هذا النقد يمتاز باحتوائه النكتة والطرفة ، فهذا عبد الحسين الأمين [١] يقول مداعباً أحد الجباة الذين سبق لهم ظلم الرعية ، وقد عزل هذا الجابي من وظيفته ، وكثيراً ما كان قد حجز أموال المقصرين ، في دفع الضرائب الباهضة ، فيعمد الى بيع خيولهم بالمزاد العلني :

تلقاك زمرة المفلسينا | باحتفال تراه دنيا ودينا
كنت فينا للجوع عضواً نشيطاً | ورسولاً الى العراة أمينا

١) عبد الحسين محمود الامين ، من شعراء هذه المرحلة ، له قصائد ترقى الى ايام الحرب العالمية الاول . توفي سنة (١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م) .

كم قلبت (الطربوش) ظهراً لبطن   كلما حـاف أو تغـيـر لونا
لـت أنسى مروركم (وأبوجوهر)[١]   يدعو لحبلنـا على (أونا)[٢]
يتهادى على ظهور مذاكينا اختيا   لاً وأنـتـم تسخرونا
فذق الذل والهوان كما ذقـ   نا ولا تمتي للهوان الهوينـا
فغداً تنتهي الرغيف فلا تد   ركه مثلمـا الرغيف اشتهينا

وقد كان الشعر الاجتماعي ، يبين عن تحسس بالظلم الاجتماعي ، الذي أحاط بجبل عامل ، وخاصة الضرائب الباهضة ، الأمر الذي أقلق الناس ، لطغيان الفساد ، فنادى الشعراء عالياً بصوتهم ، فجاء شعرا الشيخ عباس البلاغي نقداً لمساويء المشارين ، دون أن تحس منه الايجابية بالدعوة للتخلص من هذا الوضع الفاسد الظالم :

طغت سفهاء عامل في البلاد   وفيهـا أظهروا كل الفسـاد
لقد ظلموا العباد ولم يخافوا   من الرحمن في ظلم العبـاد
اذا (العشار) وافى نحو قوم   تراهم هائمين بكل واد
(وعاملة) بهـا عاثوا فساداً   كأنهم بقايا قوم عـاد
وإن بكا الأرامل واليتامى   رياح عاصفات في رمـاد

إننا نلاحظ أن هذه النقمة الاجتماعية لا يواكبها نشاط وتكتل للانتقام من الحاكمين ، فهناك استكانة وذل ، واذا كان لا بد من النقد الاجتماعي ، فهو عرض مؤسف للحال ، يدعو للأسى ويحمل على الحزن ، وهذا ما حدث لشعرائنا.

ولكن هذا الشعر الاجتماعي يبدو متسماً بصفة الواقعية لانهـا تعبير عن الحاضر ، وخلو من التعلق بالماضي ، وافتعال العاطفة والسير على الطريقة الكلاسيكية ، التي نراها ما تزال عالقة في أنواع المدح والرثاء ، وخاصة المدح الديني ، الذي يصبح في النهاية رصف نعوت ، وتكرار فضائل ، لا يسمح لها بالحياة الا شعور ديني أصيل .

---

١) ابو جوهر : الرجل الذي كان يتولى اعمال المزايدة في البيع .
٢) هل اونا (كلمة اوروبية محرفة ، تعني الواحد ، وقد كانت تردد مع غيرها من الاعداد ، في المزايدة .

الشعر العامي



ليس الشعر العامي جديداً في هذا الدور ، فلقد وقفنا على نماذج منه في الدور الماضي ، صورت الوقائع ، وأشارت الى أنواع الأوزان التي نظم عليها الشعر العامي ، وفي هذا الدور صوّر الشعر العامي الواقع في جميع الحالات ، ويبدو أن أفكاره مستحدثة ، فالشعراء العاميّون قلما يكونوا أصحاب ثقافات ، ترقى بتفكيرهم للغوص في ماضي التراث ، وقديم الفكرات .

ولقد كان من البارزين في ميدان الشعر العامي رجل يدعى محمود حدّاثا ، وهو من حاريص ، كان يتعاطى في فلسطين صنعة التبييض ، وفي دبكة أقيمت في إحدى القرى ، كان قوّالها مسيحياً يدعي داوود ، ما لبث أن استثار محمود حداثا ، فدار بينهما الحوار التالي وكلاهما شاعر بالعامية :

شو جـابك يامتوالي   جابي توقف اقبـالي
امشي روح من اقبـالي   أحسن ما دبك بالنار

قال محمود :

متوالي ومش متخبي   ربي أخبر فيّ وفيك
عيسى عنك متـأبي   لازم يجهنم يرميـك
لا لك في قلبو محبـة   ولا يبطيعك يامعتر

فقال داوود :

مذهبكم خامس مذهب   لازم أعمـالك تذهب
لا لك دين ولا مذهب   لازم أعمـالك تخسر

مرحلة التطور

•

ميزة هذه المرحلة :

يمتاز الشعر في هذه المرحلة بميزتين اثنتين ، اولاهما : تنديد بطريقة التقليد الأعمى للقدماء ، بأماتة التجربة الشعرية في ذات الشاعر ، ودعوة للتجديـــد ، وصرخة للثورة على الطلل والغزل الباكي ، تذكرنا الى حد بعيد بثورة أبي نواس على الوتد وبكائياته ، يمثل هذا الوضع شعر للعاملي محمد جابر صفا :

أرى الشعراء قد ملأوا الوهادا   وأوروا في قريضهم الزنادا
فذا شغف ذوى شوقاً لسعدى   وذا دنف غدا يهوى سعادا
خرافات مروا زمناً عليها   وما شمنا بها يوماً رشادا

★ ★ ★

سلكتم خطـــة التقليد حيناً   وكررتم لنا معنى معـــادا
أليس الشعر موهبـــة فهلا   صرفناها لما نفع العبـــادا
ألشغفنا عيون مهىً زروع   اذا أدمت لواحظهـــا الفؤادا

والميزة الثانية للأدب في هذا الدور الواقعية الواضحة التي اتسم بها، فقد خرج الشاعر ، وكسر الاطار الذي وضعه التقليد حدوداً لمدى انطلاقه ، فوصف مجتمعه ، والحال التي تردى فيها ، فبدا المجدد اجتماعياً لوسطه ، يدعو للنهضة ،

ويعمل شعره وشعوره خدمة للوطنيـــة . وقد برزت هـــذه الميزة في الشعر الاجتماعي والشعر السياسي والوطني .

الشعر الاجتماعي :

الوضع الاجتماعي في جبل عامل في الربع الأول من القرن العشرين كان على تأخر سافر ، سواء أكان من الناحيـــة المادية ، ام المظهر المعنوي ، كلاهما يبدي فقراً وتأخراً ، ولقد كانت وحداتهم الاجتماعيـــة قرى ومزارع ، زرية المظهر والعادات ، مما أثار شاعرية الشعراء ، فنقد بعضهم الوضع مجرحاً ، منددأ كما جاء في شعر لبعضهم واصفاً أحاديثهم وأعمالهم ومآكلهم وبيوتهم يائساً من رقيهم :

وكيف الترقي في القرى بين معشر   ذوي غلظة غبر الوجوه جفـــاة
أحاديثهم في كل وقت بدَيْنِهِم   وزرعهم والحرث والبقرات
ويروون ما (للزير) في سهراتهم   وعنترة العبسي من غزوات
وكم في الليالي يطربون بدقهم   على الارغن المشهور والقصبات
وأغنام من لا تجوع عياله   وأولاده في أغلب السنوات
واما تسلني عن صفات بيوتهم   فتلك لعمري مجمع الحشرات
وحيطانها بالزعفران تخالها   ملطخـــة من كثرة الدخنات
وأصبح تعليم الصنائع عنـــدهم   حرام على الفتيان والفتيات
وكلهم بالفهم لا فرق بينهم   وبـــين وحوش البر في الفلوات
فهذا مع الفـــدان يذهب عمره   وذاك مـــع العنزات والغنمات

المرأة :

وقد نرى في هذا المجال من يذهب منهم ايجابياً الى العمل في شعره ، فيعمد لا الى وصف الوضع مستاه من الحال متذمراً من الواقع ، وانما يعمد الى طريقة عقلية فيؤكد الموعظة بشعره ، على نهج سائر شعراء النهضة في مطلعها ، بلجاوزن الى الشعر والنثر أدباً يحمل الموعظة بين طياته ، وهذا ما نلاحظـــه لدى عبد

الرؤوف الأمين الملقب بحق الجليل (1) ، متوجهاً الى وعظ المرأة والدعوة لتثقيفها لتقوم في حقل عامل بدور حافظة ابراهيم في مصر :

ما ارتقت أمة من الناس إلا ... يوم ساوت بين الفتى والفتاة
إن للعلم في الحياة مقاماً ... فهي سر الرقي في ذي الحياة
علموا الأمهات كي يرتقي النشء ... فعقل الأبناء للأمهات

ويحوي بدعوة المرأة الى المعرفة ، وتثقف منها ما تشاء ، فتعود بنور العلم ، ثائراً على الذين منعوا عن العلم حقها ، ووضعوا الحجب في وجهها ، قائلين بأنه غير جائز للمرأة أن تتعلم ، متخذاً من الشيوخ في التاريخ الاسلامي ، مثالاً صارخاً على ذلك :

يا ابنة الشرق لا تني عن طلاب العلم ... فالعلم عم كل الجهات
أبصر النور الفتى سناه ... حيث يمحو غياهب الظلمات
ويحيي الضلال محواً حثيثاً ... إن هذا من أعظم السيئات
منعوا المسلمات عن طلب العلم ... وقضوا أبيح للمسلمات
فولادة وبنت طريف ... ونساء النبي والمسلمات
حجة تفحم المعارض زوراً ... وتجيب الجحود والجامدات

الفلاح :

ولقد كان المجتمع العاملي حافلاً بالمآسي الاجتماعية ، تزدحم فيه وسائل الظلم وخاصة حال الفلاح المزرية التي استثارت عاطفة الشعراء ، فسعى لوصف حالته وصفاً مفصلاً ، يتبع ذلك الشاعر محمد نجيب مروة ، ليحكي عن وضع الفلاح الدائم وحاله الاقتصادي المبكي فيخاطب أصحاب الأملاك :

يتقلب الفلاح حولاً كاملاً ... بين المتاعب في شقا وهوان

(1) عبد الرؤوف الأمين : من الشعراء العامليين.

حتى اذا جمع المحبوب بجيشكم ... مثل الأسير بقلة الفدان
فيطول بينكم الجدال وبينه ... حكمي لو صلوه لأخس الأثمان
فيبيعكم والمال يذهب بعضه ... بعد المبيع لصاحب الدكان
والبعض يرميه إذا رام القرى ... لخزانة الطباخ والفران
والبعض يذهب في سبيل دوابه ... لفتى مقيم منكم في الخان
والبعض يذهب في طلاء جماله ... حتماً عليه لبائع القطران
وكذلك البيطار يأخذ سهمه ... وكذا الحدد صاحب السندان
واذا بقي من بعد ذلك درهم ... في الكيس كان لصاحب الكوشان

الدعوة للعلم :

في مقدمة الدعوات للنهضة ، إحساس سيطر على شعراء العامليين بأن العلم هو أهم عوامل الرقي والتقدم ، فغدت الدعوة الى الأخذ بهذه الوسيلة موضوع قصائد شعرائنا ، فيها من الحث والتشجيع البارزين ما يحدو بأبناء عامة على المضي في طريق العلم والاغتراف من منابعه ، ولقد جاء هذا النوع من التشجيع لدى الشيخ محمد رضا الزين (1) في أبياته التالية مذكراً بنهضة الغرب :

سموا الغرب هل دانت لغير علومه ... أعاجيبه والعلم من بيننا نهب
هم صنعوا المنطاد يصعد طائراً ... كأن لهم ثاراً يحوك بأشهب
بغير جناح زف في الجو مسرعاً ... كأن الفضا أرض يسير بها الركب
وهم أبدعوا صنعاً لكل عجيبة ... فلا الحد يحصيها ولا العد والكتب
وليت شعوب الشرق يحدون عيسهم ... الى العلم كي يحظى ببغيته الشعب
فما العلم إلا منهج الحق في الورى ... وما الجهل إلا المأزق الحرج والترب

ويحث محمد علي الحوماني أبناء وطنه لأخذ العلم ، وسيلة لانقاذ الشعب والوطن ، فلا بد من الاسراع الى وسيلة الخلاص بالتكشف والمعرفة :

(1) الشيخ محمد رضا الزين كان فقيهاً وأديباً شاعراً ، له مجموعة من قصائده ، توفي سنة (١٣٠٥هـ).

بني وطني قول مستعطف   لكم دمعه رحمة ينسكب
خذوا كلمي وبه شنفوا   مسامعكم فهو درّ رطب
فإن العلوم بإحيائها   جلاء الهموم وفرج الكرب
أيثنيكم عن سباق العلا   مسارح لهو ونادي طرب
وتلك مواطنكم تستغيث   بكم بين أيدي الاعادي سلب

الاتجاه السياسي والوطني في الادب :

إن انصراف العامليين هذه المرحلة من دور النهضة الى الشعر السياسي والوطني ، كان تعبيراً عن مظهرين اثنين : واقع يفرض مناخاً سياسياً يعيش في فضائه الشاعر العاملي ، ونهضة وثابة تعبر عن الشعور الوطني الذي يجيش في في صدره مع احتفاظ قلق بشكل القصيدة القديم ، وفاءً لعمود الشعر ، ولقد ثار العلامة محسن الأمين على فكرة الانتداب والحماية والوصاية ، واجداً فيها بعداً وابتعاداً عن السلام الذي يدّعون اقامته ؛ ولكنه يدعو للثورة غير مكتف بالوصف الواقعي :

قالوا الشعوب تفكها من رقها   كلا بل استعبادها قد راموا
هبوا بني قحطان طال رقادكم   فإلام أنتم غافلون نيام
باسم الحماية والوصاية يجترى   حق لكم وتدوسكم أقدام

ومن القضايا المهمة التي كانت تعرض للشاعر العاملي آنذاك ، وهو يتأجج بالوطنية ، القضية الفلسطينية ووعد بلفور الذي طرح على العالم العربي بثقله ، فأثار النفحة القومية لدى شعرائنا ، ومنهم الوطني الشاعر سليمان ظاهر يقول :

لا يغترر بالمنى أبناء صهيون   فوعد بلفور وعد غير مضمون[1]
هيهات لا وعد بارون يبلغهم   لوم ملك ولا أموال قاسون

١) نشرت هذه القصيدة في جريدة المقتبس الدمشقية سنة (١٩٢٩ م - ١٣٤٨ هـ) .

سائل بريطانيا ماذا جنت يدها   وما تحاول من تمليك صهيون
جاسوا خلال ديار العرب مخصبة   بالغلب تحت اسم تثقيف وتمدين
تالله ليس لها في لندن فرح   ولا بروما وباريس وبرلين

ولقد كانت سائر الاحداث التي تقع في العالم العربي ، احداثاً عاملية ؛ إن ميسلون ، مكان الوقعة الخالدة بين أبطال سوريا والافرنسيين الطغاة ، ما زالت ذكراها للدمشقيين تهز فيهم الروح الوطنية ، وتثير اعتزازهم ، وفي يوم الواقعة كانت تقام على قبور الشهداء خطب وقصائد تتلى ، وقد أثارت هذه الذكرى الشاعر العاملي في تموز موعد الواقعة ، سنة ١٩٢٨ فقال مخاطباً وادي ميسلون :

حيّ الكماة الصيد من فتيانه   والناعمات الغيد من فتياته
إن الذي جعل الجمال مقسماً   في الكون خص الشام في روعاته
إيه ولي قلب عليك تصعدت   زفراته فالشعر من زفراته
أترى صلاح الدين يعلم ما جرى   من بعده في شامه وحماته
نزلت بعاصمة البلاد مصائب   أودت بعرش العرب قبل ثباته

وقد يكون انتقاد الوضع الديمقراطي والبرلماني في مطلع عهدنا بالبرلمانية ، موضوعاً جاهزاً للحوماني الشاعر في كتابه نقد السائس والمسوس ، غير ناسٍ التطلع الى قوميته ووطنيته كما تطلع الى مساوىء البرلمان ورجاله آنذاك :

فلا تسألوني عن البرلمان   وما ضم اذ ضم نوابه
فما أذنوا (اذ خلوا) بالدخول   لمن شاء بل أغلقوا بابه
بربك سل جُدُرَ البرلمان   وقد غلقت فيه أبوابه
أمن حجر شيد اذ شيد أم   على جثث قام بنيانه

* * *

ولا تسألوني عما وعيـ   ـت في ندوة الحي اذ جمجموا
فلم أدر اذ رطنوا بالكلا   م هل أعرب القوم أم أعجموا
فيا عجباً لم أجد بينه   غيوراً على كرم العنصر

* * *

أأبكي على لغتي فيك أم   على وطني أم على معشري

وفي هـذه القصيدة علاوة على جدة الموضوع الذي يعالجه الشاعر وهو تعريض بالبرلمان لخروجه على واجبه الوطني ، نجد خروجاً على القافية وعمود الشعر ، وهذا مما يدعو الى الاعتقاد بأن الشعر العاملي لم يعد في تطوره هذا عبداً للكلمة المنمقة يعدو وراءها لمجرد تحلية قصيدة بها ، انه الآن لا يأبه لها الا بقدر ما تعينه على التعبير الصحيح وبقدر ما تكون مناسبة في مكانها[1] .

ولكل من محمد علي الحوماني وفتى الجبل عبد الرؤوف الأمين ، دواوين اهتمت بمواضيع الاجتماع والسياسة والوطنيات ، فللحوماني ديوان نقد البائس والسوس ، تعرض فيه للبرلمان ، والوزارة والنواب ، والسياسة ، وسياسة الاستعمار ، ونكبات البلاد ، مصوراً جميع البائس ، أما في السوس فلم يتعرض فيه الا للاجتماع بينما لم يتعرض الا لماماً للسياسة التي ملأت الجزء الاول من ديوانه .

وقد كان لعبد الرؤوف الامين ديوان أحياه بالعواطف الثائرة ، جاءت اكثر قصائده في الحماسة والسياسة والاجتماع ، حول دمشق ، والجهل ، وميسلون والشام .

وعلى هذا نرى أن سائر الموضوعات التي الهمت الشعراء والأدباء مستمدة من واقع الحياة المحيطة بهم مع دعوة الى الجديد ، والاخذ بوسائل النهضة .

الاخوانيات والطبيعة والشعر المشترك :

ليست الإخوانيات والطبيعة أنواعاً أدبية جديدة على نتاج العامليين ، إنها قديمة قدم الشعر في أرضهم ، ولكنها إن دلت على شيء ، فهي تدل على المواهب الأدبية السامية التي برزت في كل مظاهر الحيـاة لدى العامليين ، وان كانت الإخوانيات عبارة عن تبادل الود والاخلاص ، فهي بالشعر أنبل وأسمى ، وهذا هو السيد محمد الحسن مكي[2] ، يبعث بقصيدة الى زميل له فارقه الى

١) فؤاد الامين ، الادب العاملي في النصف الاول من القرن العشرين ، صفحة ٥٠٤ .
٢) السيد محمد حسن يوسف مكي ، بلبل ناصية الشعر ، ويهوى النظم ، هو من كبار قضاة المحكمة الشرعية الجعفرية .

احدى قرى النبطية ألا وهو السيد نور الدين فحص ، مذكراً إياه أيام الصبا ، والمنادمة ، ورفقة الدرس :

غادرت روض العلم لما أينعت ... أثماره وزهت كأزهار الربى[1]
وهجرتنا لم ترع عهد ودادنا ... ومضيت عنا معرضاً متجنبا
أنسيت منتزه الجزائر والظبا ... تخذت بها تيك المسارح ملعبا

* * *

خلفت قلبك حائماً حول الحمى ... وذهبت (والآمال قدطارت هبا)
فاسلم عليك تحية من صاحب ... يصبو لذكرك كلما هبّ الصبا

فأجابه السيد نور الدين فحص ، بنفس العاطفة ، شعراً يفيض محبة ووداداً وإخلاصاً :

هيجت وجدي يا محمد عندما ... ذكرتني عهد الجزائر والربى
ما كان ظني أن تصعد زفرتي ... بعد القنوط من المنازل والظبا
إني على عهد الاخاء مثابر ... وغرار عزمي في المحبة ما نبا
غادرت روض العلم أهوى ربعه ... لكن دهري لم ينلني المأربا

أما شعر الطبيعة فإنـه جاء ضمن الشعر المشترك ، وهو كناية عن قصائد ينظمها جماعة ربطتهم الأخوة والصداقة ، فقصدوا منتزهات الجنوب ، أو الأخاذة من مناظر طبيعة لبنان ، فغمرتهم النشوة متمتعين بالجمال الطبيعي ، فترجمت هذه النشوة شعراً تعاونت قرائحهم ممتزجة متوحدة في نظمها ، وهذا نوع من قصيدهم على عذب الينابيع عند أجمل منازه الجنوب اللبناني ، بين ماء وخضراء ، وحسن رفقة ، واخلاص صداقتهم ، اجتمعوا في منتزه الميذنة قريباً من مجرى الزهراني ، وهم : أحمد رضا ، سليمان ظاهر ، أسد الله صفا ، محمد علي الحوماني ، وعارف

١) راجع العرفان ١١/٨٨٤-٨٨٥ .

انا رجعي كبيراً انا رجعي صغيرا
انا يا مائع رجعي صغيراً وكبيرا
مثلما كان أبي كنت مباهاً وترابا
وكما اختار من البز تخيرت ثيابا
حبذا الرجعى الى الماضي ولو كان سرابا
تملأ الأرض على الغاصب حرباً وحرابا

★ ★ ★

حبذا العود الى الماضي علوماً وفنونا
عالم كان أبا الرحمة والأم الحنونا
واذا افتن رأيشــاه على الفن أمينا
ينشد الشعر فيبنيه قلاعاً وحصونا

ولقد تمثل نشاط هذه الفترة بكبيرين من الأدباء العلماء هما الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، وكبير من الشعراء هو محمد علي الحوماني، ثلاثة هؤلاء يرمزون بعطائهم الى مرحلة التطور في القرن العشرين.



مرحلة التجديد

●

يمكننا اعتبار التوقيت الذي برزت فيه (عصبة الأدب العاملي) عام (١٩٣٥ م) موعداً لبدء هذه المرحلة في الدور الثائر، إذ تحملت هذه العصبة مسؤولية الدعوة للجديد، ولأول مرة يبرز في الجبل العاملي فكرة يدعو لها جماعة منظمة نسقت أعمالها في سبيل أهدافها، التي برزت واضحة في بيانها، وقد حمل مشعل البيان الثورة على النظم الأدبية، والوضع الاجتماعي، ولما كان للروح الإقطاعية والارستقراطية سيادتها المتغلغلة في هذه الربوع العاملية، إن في العلماء أو في الزعماء والحكام، سيادة يستحيل معها الوصول الى جو ديمقراطي يمكننا على ضوئه وحكمه أن تنشىء الجمعيات الرسمية، أو تعمل بموجب نظام حر، ما دامت أوضاعنا تلك الأوضاع، وقادتنا أولئك القادة، وأدباؤنا من الشباب أولئك الأدباء المتخلفين نزعة وذوقاً ورأياً.

إنه لما كان الأمر كذلك، وكان في نفوس تلك الفئة المخلصة من الشباب، حافز قوي يحفزها الى الاتحاد في الوجهة والعمل، تواضعوا على بعد الديار بينهم، وقرروا بعامل اليأس تحقيق الاجتماعات الرسمية والشك في نتيجة كل اتجاه غير الاتجاه الأدبي في بلاد كبلادنا ...»[١].

وهكذا حدد اعضاء العصبة غايتهم التي كانت ثورة على القديم ونهجه، وما في هذا النهج من تزلف في المدح، ومراءاة في الرثاء، وتصنع في الوصف، ولعله في عرضنا السريع لمبادئهم، ما يسمح لنا بالتعرف الى روح الثورة التي داخلت

١) العرفان، ٢٧/٢٤٣.

نفوس شباب عصبة الأدب العاملي وهي :

١) الفن للفن .

٢) صقل الأدب العاملي واظهاره بالمظهر الذي يقربه من المثل العليا في الأدب الحي الصادق في شعوره وفنه .

٣) الاشتراك والتعاون الصحيح على انصاف المواهب الفنية وتوجيه جهودها في البحث والقراءة والنظم والكتابة الى ما يكفل لها النمو والاستقامة والتفوق .

٤) الارتباط والتآلف بين الأدباء داخل البلاد العاملية .

٥) تشجيع النقد النزيه وتوسيع دائرته .

هذه هي المبادىء الكبرى التي تواضعوا عليها ، ولكن هل باستطاعة كل من الأدباء أن يكون في عداد أعضاء العصبة ، شروط عديدة لزم أن تتوفر فيهم ، فتواطأوا على أن لا يشركوا معهم في ذلك إلا من :

١) يعترون بمواهبه الفنية ، من ذوق وفكر وخيال وعاطفة الى غير ذلك مما يؤهله للنمو والتفوق .

٢) ويطمئنون الى ثقافته الأدبية والى ميوله في القراءة والاجتماع والحوار .

٣) ويثقون باخلاصه للأدب الصحيح والترفع به عن أن يكون رأس مال للاستغلال والتلبيس على الجمهور والتلاعب بأهوائه وبمقدراته السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والتاريخية كما هو الشأن في بعض الرجعيين .

٤) ثم لا يهمهم بعد ذلك أن يكون ناضجاً في نفسه وثقافته أو غير ناضج في ما دام له من بيئته الخاصة وظروف حياته المتسعة ما قد يؤهله لمثل ذلك في المستقبل القريب .

وعلى هذا نراهم يتطلبون استعداداً أدبياً نامياً ونزيهاً ، وكأني بهم يريدون اثارة حركة أدبية شاملة عرفوا أن لا سبيل الى اشعال نارها بدون ثقافة واستمرار اطلاع وبحث ، لان الثقافة حياة نامية .

ولقد كانت هذه الحركة الجماعية في جميع خطوط بيانها ، ونتاج اعضائها

ردة فعل في وجه الذهنية القديمة . واذا كانت عصبة الأدب العاملي قد استقطبت نشاط الأدب في جبل عامل خلال هذا الدور ، فليس معنى هذا أن كل الأدباء قد انتموا اليها ، فقد بقي للقديم أوكاره في البلاد .

ولقد جاء النتاج الأدبي هذا الدور ، متسماً بميزة الثورة على كل شيء ، في الأدب ، وفي الاجتماع ، حافظوا فيه أغلب الأحيان على الشكل القديم . ولكن الروح كانت متجددة متوثبة للحديث . ولقد اهتم الشعر والأدب في هذه المرحلة بالمجتمع بغية النهوض به ، فكان قطب الرحى .

النقد الاجتماعي ، وتلازمه بالاسى الرومانطيقي :

لعل عصبة الأدب العاملي بنشاط رئيسها الشيخ علي الزين[1] فتحت الباب أمام الجديد ولم تغلقه ، ولكنها لم تستطع تحقيق كل ما رمت اليه ، إنما نحس في أدب هذه الفترة انقلاباً في التفكير وعزوفاً عن المواضيع القديمة من مدح ورثاء آملين بالتزلف ، واذا كان شيء من هذا القديم ، فانه لا يخلو من نقد اجتماعي ، كان لاذعاً في توجيهه ، يحمل بين طياته تهكماً قاسياً ، وأسى مريراً على حال هذا الشعب ، يحمل صبغة رومانطيقية ، بما يداخله من يأس وقنوط ، تلمس النقد في رثاء موسى الزين شرارة للمخترع اللبناني الكبير حسن كامل الصباح يوم جيء بجثمانه من اميركا ، وقد تخلف بعض كبار القوم عن الحضور :

قال قوم ما بال شعبك أمسى ... لا يبالي بقاصمات الظهور
راضياً بالهوان والذل عيشاً ... لا شقاء يشكو ولا ثقل نير
جامد الدمع إن يمت كل يوم ... ألف فذ منه وألف كبير
قلت مات الشعور منه فماذا ... يرتجي الناس من عديم الشعور
أنا أخشى أن لا يلبي إذا ما ... نبه الله خلقه للنشور

* * *

١) علي الزين ، اديب ومؤرخ ، وهو خريج جامعة النجف الاشرف . له عدة مؤلفات أدبية وتاريخية منها – اوراق اديب ، ومع التاريخ العاملي –

لا تقل عنّ شعبه فقريضي لو تدبرت نفثة المصدور
إن شعباً يرى التمدن عاراً ويداوي عليله بالنذور
ويرى العلم والفنون فساداً لهو أولى الورى بسكنى القبور

ولعلنا نتبين الاسى والحزن العميق على هذا الشعب الفقير ، تتجاذبه قوى الزعامات المتنافرة، ويأكله الجهل والذل، في بقية القصيدة لموسى الزين[١] شرارة:

وضعتني الاقدار ما بين قوم لا يراعون ذمة للضمير
يعبدون القوي لا لخلال ساميات ولا لعلم وفير
قمت أبكي لما رأيت بلادي جنة الخلد مرتعاً للشرور
فاستشاطوا غيظاً وقالوا مضل ورموني بالبغي والتزوير
فاحتملت الأذى وقلت لنفسي حصنك الحق لا تراعي وثوري

ويتساوى الجميع في نقد الوضع الاجتماعي ، ولكننا قد لا نجد الثبات في المقاومة عند عبد الحسين العبد الله ، كما هي لدى موسى الزين شراره ، فقد تطلب الحرية بعيداً عن هذا التضارب الاجتماعي القلق : مؤثراً كالرومانطيقين العزلة قريباً من الطبيعة ، متمتعاً بالحرية :

أبيت حراً مناجي كل وارفة من الرياض ورأيي وحي وجداني
ولا أظل أقاسي الهم مع بشر موزع بين أحزاب وأديان
قويه يتحى والقصاص على ضعيفه فالضعيف الآثم الجاني

وقد نجد الثورة على أدب التقليد نفسه، وتحصيل ثقافته ، وحالته الاجتماعية ، في شعر المتمرد الساخر علي الزين الذي اسماه « أديب البيئة الخاملة» ، وصحيح أن النهضة الادبية لا تكون الا اذا آزرتها نهضة اجتماعية لأن الأدب والأديب ابن البيئة:

ترعرع بين سوام الحقول وشب عن الناس في معزل
وشاءت له عابسات الزمان بأن يقرأ النحو في جمل [٢]

١) موسى الزين شراره ، شاعر بالفطرة ، جلى في الشعر الوطني والاجتماعي .
٢) كتاب في النحو .

وأن يتحذلق في قوله وأن يتعنت في المشكل
وأن يقرض الشعر كالشاعرين وأن يتبجح في المحفل
فامسى بحكم الهوى والمحيط له خطر النابه الأمثل
اذا ما تشدق قالوا أجاد واما تنحنح قالوا علي
وليس عليهم بأن يفقهوا وحسبهم زجل المقول

ولا يداخل اليأس من النهضة والقنوط من امكانية الثورة على الوضع وتغييره سائر الشعراء، فمنهم من يسلك دربة الايجابية ، في هذا التحرر الشعري والأدبي، كما حدث لحسين مروه في قصيدته ثورة الشباب :

لا تيأسن وللرجاء مكانه بين الفؤاد الواثب الطماح
فاذا نزعت الى الحياة طليقة فاثر رفاقك وابتدر لكفاح
والداء إن أعيا البراعة طبه فاجعل يراعك مبضع الجراح

الشعر السياسي والوطني :

أدب هذا النوع ثورة على وضع ، أو دعوة لثورة وانقاذ حال ، ولقد سنحت هذه المرحلة بأحداث سياسية تمتد بجذورها الى القومية ، والكرامة الوطنية ، فجاء أدب هذه الفترة غنياً بالشعور القومي ، فقضية فلسطين تهز الحس في كل عربي ، وتتراقص أسى أوتار النفس الشاعرة فتفيض ثورة لدى زهرة الحر ، داعية الى تحطيم قيد العبودية . ونصرة هذا البلد السليب ، ففي تراث الاجداد اكبر المقاومة الدائمة ، وارجاع الحق الغصيب :

قم الى النير الذي أصلاك ناراً وارفع الكأس وحطمه جهارا
قتل الضعف وخابت أمة نحرت في هوة الضعف انتحارا
لن ينال المجد الا معشر تخذوا من قوة البأس شعارا

* * *

يا فلسطين اطمأني اننا أمة تحمي حماها والديارا

عشت يا لبنان فالمجد بقعة هامت الاسلام فيها والنصارى
شرفت أرضاً وطابت تربة في النبيين وفي خير العذارى

ولم يقتصر موضوع فلسطين على فئة دون فئة ، فلقد اهتم بها كل شاعر ، وكانت الجامعة العربية قد جسدت آمال العرب في الاجتماع موحدين ، فنظم كامل سليمان ، قصيدة يطالب بها الجامعة العربية بانقاذ فلسطين ، ويهيب بلبنان وجنوبه المبادرة :

يا حماة الأوطان هل ينفع القول والعهد عهد انقلاب
جردوا العزم في فلسطين صاحت واضياعاه بين ظفر وناب
نحن عرب ولا نثور لأخذ الثـ ـار من واترين أو غصاب

ويبلغ الاعتزاز بالوطنية لدى العامليين ، حداً كبيراً ، مفتخرين بالأرز رمزاً ، وباللبنانية نسباً منتقدين الوضع البرلماني ، ووعود ممثلي الشعب الذين يتعذر عليهم الوفاء ، كما قال الشاعر ابن شمس الدين :

أنا فرع من دوح لبنان ذي الأر ز ونفسي معدودة من نفوسه
التقى لما به من عناء وشقاء قضى بحفظ دروسه
وطني عامل وقد عشت دهري تحت أثمار أفقه وشموسه
كيف أرضى بأن أراه شقياً ولبوس الارهاق بعض لبوسه
كل ما نال واحد منه فلسا ضمه ظالم لداخل كيسه
أي شعب أحمى يقاد الى الحتـ ـف بحبال يبتاعه بفلوسه
أترى النائب الكريم بلبنا ن يفي بالوعود بعد جلوسه (١)
أم تراه ينسى ولا بدع فالنسـ ـيان للآدمي بعض طقوسه
سكرة الحكم شد ما جربوها تشغل المرء عن فراش عروسه

ويبقى موضوع الشهداء ، وقد فات أنه ، انما تتجدد ذكراه ، مثاراً

١) العرفان ٢٧ / ١٢١.

الوطنيين من شعرائنا ، وقد رافق الشيخ سليمان ظاهر فترة استشهاد الابطال ، وعادت ذكراهم ، فتكلم شاعراً باسم الشهيد عبد الكريم الخليل ، فجاء شعره ذا طابع إنساني شامل :

ما راعني قتلي ولا صلبي إن كان يجيبي مقتلي شعبي
والموت أشهى من نسيم الصبا يعتاد قلب المغرم الصب
إن ترق فيه أمتي مرتقى تنحط عنه هامة الشهب
من لم يرو أرضه من دم هيهات يجني ريق العشب (١)

الانسانية في الشعر العاملي :

لقد تدرج العامليون في شعورهم الاجتماعي من التزام لنقد مشاكل بعينها ، وضعها القلق ، عامدين الى حثها على النهضة ، وامتشاق حسام الجديد ، الى انفتاح على مشاكل الانسانية في شعر لا تحس فيه همة القومية ، أو نسيم الوطنية ، ونقد المشاكل المحدودة في الآن والمكان ، وتظل مسحة الأسى ، عالقة بشعورهم ، كما في شعر هاشم الامين ، وقصيدته شريد ، التي يصف بها شريد الانسانية جمعاء :

أطاف البلاد وجاب القفار ولا مستغاث ولا مستقر
كسكران تاه على ظلمة تقاذف في الربي والحفر
فلا السمع سمع على أذنه ولا نظر الزيغ منه نظر
وساوى لديه الضيا والظلام أسى خالط العيش حتى اعتكر

وهو يطالب الانسانية بأن تعمل على رفع حياة الانسان وكفكفة دمع الفقير المشرد ، وتهدئة خواطر الحيارى : قبل أن يركبوا الجو ويغزوا الفضاء .

لئن ركبوا الجو واستفسروا وراضوا الهواء وراموا القمر

١) العرفان ٣٣ / ٧٢٣ .

وطالوا الطبيعة في خدرها يبيحون من كنهها ما استتر
فهل كفكفوا عزب بكاءة تذود الدموع وتشكو السهر
وهل ردوا من حيارى النفوس عليلاً على جانبيها استقر

ويتناول الثورة الاجتماعية بعض المفاهيم المتواضع عليها ، ويرى هذه الثورة عابقة بالشذا الانساني ، فيندوون بالاقطاع ، وحياة البؤس ، وفقدان الحرية ، ومعنى الكرامة والاحسان ، وفي قصيدة ابن الريف لمرتضى شراره ، تبدو الثورة مزدوجة ، ثورة على الوضع الاجتماعي ، وثورة على عمود الشعر العربي ، فجاءت قصيدة منثورة كما يلي :

وضع رقبتي في النير
وشد عليها بحباله الغليظه
ثم ألهب جسمي بالسوط
فعدوت ... حتى وصلت واقتطفت الثمار
وقدمتها له
فأكلها ورمى لي القشور
تناولتها بذل ومضغتها على مضض
فقالوا لي : لقد أنقذك من الموت جوعاً
فقلت والسوط المهتز فوق رأسي
يوحي إلي ... أجل !

•

وبقيت أدور ... وأدور
كحمار الناعور
فأعياني السير ... وكاد يقتلني الظمأ
العرق يتصبب من جسمي

والمياه تتدفق بين يدي
ولكني ما زلت ظامئاً
وعندما أحس أن بيني وبين الموت خطوات
منحني قطرة من الماء العكر
لم تبلل شفتي
وبقي قلبي في أعماقي يستعر
فقالوا لي لقد أنقذك من الموت ظمأ
فقلت والسوط المهتز فوق رأسي
يوحي إلي ، أجل ... !

وابن الريف هذا يهزأ من الذين يغبطونه على نعيمه وعيشه ، يستغلون سذاجته لايهامه بأنه سعيد ومرتاح ، ولكنه يتساءل عن هذا النعيم أفي الجوع أم في الظمأ و :

يقولون : ان الحياة في الكوخ جميله
وان الريف جنة رائعة
ولكنهم لو ناموا ليلة واحدة من ليالي الشتاء
في هذا الكوخ المتداعي
لو رأوا الاطفال بأسمالهم البالية
يرتجفون من شدة البرد
لأدركوا مقدار غباوتهم
عندما يتغنون بهذا النعيم
عندما يحاولون أن يوهمونا أننا في نعيم .

التصوير الاجتماعي وصدق الشعور :

بعد أن انطلق الأدب العاملي في رحاب الجديد ، اكتسب خصائص جديدة ،

فقد ابتعد عن الزيف في العواطف ، والتلبيس في الأقوال ، صراحة مستحبة ، وصدق دون مواربة ، فبدا الوصف طبيعياً تهفو له النفس ، وقد يكون هذا الوصف تصويراً لمشاعر خاصة ، أو قد يكون منبثاً عن واقع العادات ، والمستوى الحضاري في البلاد العاملية ، ولقد امتاز في هذا الباب ، منصرفاً اليه بفطرته الأستاذ محمد يوسف مقلد ، فهو في قصيدته عن الهجرة ، يبين الفقر الذي كان يسيطر على جبل عامل ، والذي لا ينسجم مع طموح العامليين ، فيبيع الوالد كرومه ، مترددا في فراق ابنه ، كما يتردد الابن في فراق قريته ، وكيف يخلف الحبيبات ، وذكريات مسطاح التين ، وجرار الماء :

ركبت مع صحبي متون البحار   من بعد ما ضل ابي واستخار
ورحت عن داري الى غيرها   وبعت (كرم التين) داني الثمار
فيا خيام التين هل رجعة   اليك يوماً بعد شط المزار
حيث الصبايا من بعيد المدى   يحملن للظمآن فيك الجرار
يا خيمة (المسطاح) في التين   سلام من وراء البحار

وقد يبالغ في وصفه الدقيق المتحرك للحياة العاملية وما فيها من أفراح يفصل فيها النشوة ، ويبرز عادات الجبل ، ورمزاً من احب رموزه في افراح القرية ، وهو الدبكة ، وكيف تثير الشبابة من حماس الشباب ، يلهبه قرب الآنسات وزغرداتهن فتعيش القرية عرسها في نشوة ولا ابهج .. مصوراً هذه الرقصة اللبنانية العريقة :

(عجوز) يشد الخنان الى النفـ   ـس وشبابة تهز المشاعر
حلقات تدور محورها النقـ   ـاق كدور الرحى وفن ساحر
وحماس يطير في خلد القو   م ويذكي الاوار في كل ثائر
انها ثورة السرور المعرى   من رياء او اصطناع ماكر
بين جذب الى الوراء ودفع   راجف تبلغ القلوب الحناجر

• • •

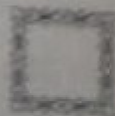
كلما زغردت مهاة وغنت   للهوى صدع الهتاف المزائر

صوت هذا الهتاف في كل اذن   إن تكن نائياً فإنك حاضر
بشر القرية الوديعة بالعر   س فان الأعراس خير البشائر
وتلطف يا صاحبي للصبايا   فالصبايا روح الشباب الناضر
ما تراهن آيبات عن (العيـ   ـن) كسرب من الحمام الطائر
سادرات الشعور مثل الافاعي   عاقفات على الجرار الخناصر
تلك في صدرها تجرجر نهديـ   ـن وذي خلفها تجر الضفائر

هذا هو مجمل النتاج الشعري في هذه المرحلة يساير النهضة في العالم العربي ، ويدعو لها العاملي في ربوعه ، وبعد النصف الاول من قرننا الحاضر ، وقد اتصور الجبل في نهضة ادبية تعم لبنان ، أسهم وما زال يسهم في البلبل سخياً بعاطفة ممتزجة شعراً مع كل لبنان .

أما في النثر وميدان القصة فلقد كان على ضآلة في النتاج ، ونظر الى القصة كفن ضحل القيمة ، فأعطى بعض ادبائه قصصاً على جانب من المكانة الادبية ، متأثرين بالجو القصصي العام ، فكتب حسن الامين ، وصدر الدين شرف الدين ، ووداد سكاكيني .

أما أدب المقالة فقد برع فيه حسن الامين وكتب عن الرحلات في العراق والادب الوصفي [١] .



(١) العرفان ، ٣/٣٢٢ – ٣٩٩ – ٤٢٨ .

خاتمة

صفحات كتاب كهذا تعجز عن أن تقدم كل نتاج الفكر للجبل العاملي ، ذاك أنه نتاج بقعة ملأنة ، وشعب سخي العطاء ، لأمد من العمر طويل ، جاء متنوع الوجوه ، متعدد الموضوعات

وأعجز من هذا الكتاب أسفار ، أن تحوي النتاج المهدور الضائع في خفايا الشرق وزواياه ، وأكثر منه في البقاع اللبنانية . شيء واحد نجرؤ على أن نقوله ، هو أن اليسير الذي قدمناه ، عينة عطاء ما أخطأت في أنها مجهدة بأمانة قد قدمت الصورة المصغرة عن الكل ، فاتسمت بسيماه ، واكتنزت ميزاته ، فأوضحت عن خصائصه التاليات :

١ – إنه نتاج أدبي وفكري دائم الحياة استمر بعد الفتح العربي بقرنين حتى يومنا هذا ، والعاملي يبذل ويعطي في دنيا الشعر والنثر ، وفي حقول الفقه والتشريع ، والفلسفة والمنطق والعلوم .

ويكمن وراء هذا البقاء باعثان اثنان ، اولهما فطرة ادبية ذات منحى شعري ، طبع عليها العاملي ، وتبدو لنا من خلال استعراضنا لنتاج العامليين الادبي الذي هو من دنيا الشعر في غالبه . وإن العامليين حتى اليوم يمتلكون مزاجاً شعرياً رقيقاً برز في ماضي نتاجهم ، وفي الحاضر على ألسنة شعرائهم المثقفين والزجليين ؛ ومن يعايش المجتمع العاملي اليوم ، يحس بجو عابق بالشعر ، زاخر بالعاطفة ، فهم ينطقون بالشعر متحاورين او مستشهدين مستجيدين ، وتعمر به ساحات قراهم

إبان رقصاتهم الشعبية التي يلزم ان يواكبها القصيد العاطفي ، ينطق به عفو الخاطر وسرعة البديهة ، وتغني نساؤهم في زفاف العرائس بشعرهن الحالم ، الذي ما مر في رؤى شرود الضمير ، فكأن الرتابة والانسجام في طبيعة البقعة العاملية ، وانعزالها ما يوحي لهم بالشعر والوزن ، ولا تخلو اليوم قرية عاملية من زجّال او شاعر مثقف كدليل واضح على الشاعرية الصارخة ، عدا أن شعرهم هذا من رائق القول وصفي الكلام ، أثار اعجاب النقاد ، واجتذب الذواقة من الأدباء ، والكتاب ، حتى قال فيه الكاتب اللبناني شكيب أرسلان :

« لم أجد أصدق من قريض أبناء عاملة صورة الشعر العربي الصميم ، ولا أخلص منه عرقاً في نسب اللغة التي امتازت بها سعد وثقيف وسفل هوازن وعليا تميم ، ولقد أراني أشرب ولا أرتوي ، حتى اذا وقعت في يدي بعض قصائد من نظم العامليين شبعت كبدي رياً وامتلأ دماغي بياناً عبقرياً ، نعم هو الشعر الذي ينبغي أن يبقى في العرب مرفوعاً شعاره ، مضيئاً مناره ، زاهراً نواره ، مهتزة أوتاره حتى لا تتنكر اللغة على أهلها ولا يختلط هجينها بعتيقها وتكسها بفحلها ...... »[1] .

وثاني الدوافع الكامنة وراء دوام البذل الفكري ، هو ارادة العاملي المعلاقة وعصاميته المفردة التي رغبت في دعم مذهبه الفرد المستهان الضعيف لنأيه عمن يشاكله في المعتقد ، قرب بيئات كانت ترى في معتقده خروجاً على الاسلام ، بل وزندقة تستحق الفناء أكثر الاحيان ؛ فلا بد والحالة هذه أن ينشطوا لاثارة حركة علمية ، تعمد الى تركيز الدين في نفوس أبنائهم ودعم التشريع بمؤلفاتهم الدينية ، والهجرة العلمية في سبيل التوسع بالتثقف الديني ، وعلى هامش علوم الدين قامت علوم واستتبعتها حركة نشيطة تنمو دون توقف .

٢ – ولقد كان هذا النتاج تقليدي النهج كلاسيكياً ، اكتسب من واقع

(١) العرفان ، ٤٥/١٤ .

الأدب العربي سماته ، فبذل في التعارف من فنونه وخاصة ما كان منه غنائي الباب ؛ ما عرف الجديد وما أعطى في التمثيل والملاحم ؛ ورغم الجهد المبذول في سبيل العلم ، لم نجد لدى العامليين ابتكاراً في الأدب ، ولعل السبب في هذا هو أن العامليين لم يكونوا قد فتحوا للأدب فقط نفوسهم ، انما جاء على هامش العلم والمعرفة الدينية لديهم .

ولقد استطاع البهاء العاملي أن يأخذ عن الفرس في الشعر طريقة الدوبيت والرباعيات التي نظم بها شعره الاهلي . لقد برعوا في أدبهم ولكنهم ظلوا ضمن الحدود المرسومة للشعر العربي عامة .

٣ – لقد كان هذا الأدب وسائر نتاج الفكر ،بطيء التأثر بالجديد المستحدث والتيارات الاجتماعية والفكرية الناهضة ، وما كانت الاستجابة مباشرة لكل ما يجدّ في عواصم الأدب العربية ، فلقد جاء تاريخ الفكر في جبل عامل بأربعة أدوار ما تساوقت والأدوار التي مر بها الفكر العربي بأجمعه ، والنهضة بدأت في ربوع العالم العربي منذ ما يقارب مائتين من الأعوام وهي في الجبل العاملي لا تزيد في العمر عن نصف قرن .

٤ – ويمكن لنتاجهم هذا أن يكون أصلاً تاريخياً يكشف عن الغامض من تاريخنا ، والشيء الشرف من مفاخرنا ، ويعزز علاقاتنا بالشعوب القريبة والبعيدة ، ويبدي عن مستوى حضاري يزخر بالجهد الانساني .

ولكن هؤلاء العامليين أسهموا الى حد بعيد في حضارة الشرق ، ولم يحصروا نشاطهم في جبلهم ووطنهم فقط بل جاوزوه موغلين نحو مطلع الشمس – لا تحدهم الوطنية في سبيل العلم – فانطلقوا في العراق ، وايران وأفغان والهند وأبعد ، ينشرون فيها اللغة العربية ، ويبثون شعرها ونثرها ، ويتولون فيها أعلى المناصب ؛ حفنة من علمائنا تولوا مشيخة الاسلام في ايران ، وكانوا أصحاب الفتيا هناك ، وهم الذين أقاموا المذهب الجعفري في فارس عمده ، وحموه فاعتمد عليهم الصفويون كأكثر من نديوهم لمهمة الدين ، فعمروا لهم حركة فكرية فتية .

وتركوا للشرع الجعفري ذخائر فكرية ، إرثاً ضخماً من المؤلفات ، اعتبرت القمة فيما أعطى معاصروهم ، فاعتمدت مؤلفاتهم مراجع لكل فقيه مجتهد ، وما زالت في جامعاتهم اليوم ، اعلاماً كأشهر ما يفخر به ، كاللمعة للشهيد الأول ، والمدارك لمحمد نور الدين الجبعي ، والمعالم لحسن زين الدين الشهيد ، والوسائل للحر العاملي ، ودائرة المعارف الواسعة في الفقه ، ومفتاح الكرامة لجواد الحسيني .

وفي اللغة ، ما يمكن أن يضاف الى العلي من مفاخر نتاجنا اللغوي ، شرح الشواهد لحيدر العاملي ، ومتن اللغة لأحمد رضا .

وحسن كامل الصباح ترك للانسانية جمعاء ، تراثاً خالداً ، أسهم في سعادتها اليوم ، ببارع اختراعاته ، والبهاء العاملي العبقري الذي أغنى المكتبة العربية والفارسية بمؤلفاته في الفقه والفلك والرياضيات . عدا عن العديد من الرجالات والكريم من العطاء ، الذي لم نستطع الاشارة اليه في دراستنا ؛ في السياسة كان محمد علي خاتون قد تولى الصدارة العظمى في حيدرآباد لدى ملكها محمد قطبشاه ، وكذلك علي الزين فيما بعد .

هذه أسطر قليلة أظهرت لنا جهداً إنسانياً مضاعاً ، قيمته ليس أنه بالنسبة لنا اليوم لا يشكل معيناً علمياً ، إنه جهد والعلم الحاضر يرتكز الى الجهود السابقة ، وجهود عشرة قرون يجدر أن لا تضيع .

لقد خدموا وطنهم فتعلقوا به ، وخدموا لغتهم فنشروها بأدبهم ، وخدموا مذهبهم فدعموه بمؤلفاتهم في التشريع ، وخدموا الانسانية فأضافوا الى يم الجهود البشرية رافداً صغيراً ، ما نضبت ماؤه ، بهذا نستطيع وقد أكدنا أن في جبل عامل قد قامت حركة شابت نواصيها ، وما زالت تزخر بشبق الحياة ، نستطيع أن نتوقف قائلين :

ان جبل عامل ، هذه البيئة الصغيرة بأرضها وسكانها المتواضعة بما وهبته لها الطبيعة ، قد تميزت على غيرها من سائر بقاع العالم العربي في أنها عرفت دواماً في

الادب وزخماً فكرياً لم ينقطع .

حركة الفكر ما شهدناها اطالت البقاء في بقعة واحدة غيرها من بقاع العرب ، لقد تنقلت بينها تنقل العواصم تبعاً للسياسة ، كما تأثرت بالسياسة في لمعان نجمها ، وفي خفوت نورها ، بشيء من هذا لم تتأثر حركة الفكر والادب في جبل عامل ، لقد سلكت بعصامية دربة الخط البياني الصاعد نامية لطبيعتها .

لقد كانت انموذجاً ومثالاً كيف يحق لنا أن لا نسعى الى نشر عطائها وتداوله مفخرة لنا . ففي جبل عامل لبنان حكى ولكن بصمت وما زال .



فهرس تراجم الاعلام

مصادر الكتاب

أبو الفرج الاصبهاني - الاغاني - ج ٨ - بيروت ١٩٥٥

ابن خلكان : وفيات الاعيان الجزء الثاني - مطبعة السعادة مصر ١٩٤٨ .

ابن عساكر : تاريخ ابن عساكر جزء ٢ و ٣ و ٤ طبعة دمشق .

ابن معصوم : سلافة العصر محاسن الشعراء بكل مصر - ١٣٢٤ هـ - مصر .

ابن العماد الحنبلي - شذرات الذهب جزء ٢ و ٣ .

آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - طبعة ثالثة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر .

ابو شقرا : الحركات في لبنان - بيروت ١٩٥٢ - مطبعة الاتحاد .

ايليا حاوي : من الشعر الحري - دار الشرق - بيروت - ١٩٦٠ .

بطرس البستاني - دائرة المعارف جزء ٤ و ١١ .

البهاء العاملي : الكشكول دار الفكر - بيروت ١٩٦١ .

- المخلاة - طبعة مصر ١٩٠٩.

- أسرار البلاغة مصر ١٨٩٩ .

البلاذري : فتوح البلدان - دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٧ .

الثعالبي : يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر - الجزء الاول / مطبعة دمشق .

الزبيدي : تاج العروس ج ٨ المطبعة الخيرية مصر ١٣٠٦ هـ .

جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ و ٤ طبعة دار الهلال مصر ١٩٥٧ .

الزركلي : الاعلام ، من جزء ١ - ٧ .

زينب فواز : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، بولاق (١٣١٠ هـ - ١٨٩٣ م) الرسائل الزينبية - المطبعة المتوسطة - مصر .

عبد الحسين شرف الدين : الفصول المهمة ، ١٣٢٧ هـ .

« « « : أجوبة مسائل جار الله .

الشهيد الثاني : منية المريد في آداب المفيد والمستفيد مطبعة الحسيني - بمباي ١٣٠١ هـ .

الشريف المرتضى : امالي المرتضى - القسم الاول - مصر .

علي الزين : مع التاريخ العاملي مطبعة العرفان – صيدا ١٩٥٤ .
« « : اوراق اديب – دار الفكر بيروت ١٩٥٥ .
« « : من امالي الوحدة مطبعة العرفان – صيدا ١٩٤٣ .
عباس القمي : الكنى والالقاب ٣ أجزاء مطبعة العرفان صيدا ١٣٥٧ ه .
عارف الزين : تاريخ صيدا – مطبعة العرفان
طنوس الشدياق : أخبار الاعيان في جبل لبنان : جزءان – بيروت ١٩٥٤ .
علي بن محي الدين الحارثي : الوجيز في تفسير القرآن العزيز – النجف ١٩٥٣ .
عيسى اسكندر المعلوف : دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف – المطبعة العثمانية ببعبدا ١٩٠٨ .
عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ١٣ جزءاً ، دمشق .
شهاب الدين الخفاجي : ريحانة الالباء وزهرة الحياة الدنيا القاهرة ١٢٧٣ه – ١٨٥٧ م .
المقري : نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب الجزء الرابع – مصر .
يوسف سركيس : معجم المطبوعات – مصر ١٣٤٦ه – ١٩٢٨ م .
القلقشندي : صبح الاعشى – الجزء الاول – القاهرة ١٩١٤ .
كرنيلوس فانديك : المرآة الوضية في الكرة الارضية – طبعة ثالثة – بيروت ١٨٦٦ .
فؤاد البستاني : دائرة المعارف – المجلد الثاني – بيروت .
المجلسي : بحار الانوار – المجلد الرابع عشر .
محمد المحبي : خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر – ٤ اجزاء – القاهرة ١٢٨٤ .
محمد المرادي : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر – ٤ أجزاء – بولاق ١٢٩١ – ١٣٠١ = ١٨٧٤ – ١٨٨٤ .
فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية – الجزء الرابع .
محمد كرد علي : خطط الشام ، الاجزاء ١ – ٢ – ٤ – ٦ دمشق ١٩٢٥ – ١٩٢٨م .
محمد البناني : آداب النفس – جزءان – طبعة ايران .
محمد الحر العاملي : امل الامل – ايران ١٣٠٣ .
محمد باقر الخوانساري : روضات الجنات – ٤ أجزاء – الطبعة الثانية ١٣٦٧ .
محمد تقي الفقيه : جبل عامل في التاريخ – جزءان – بغداد ١٣٦٤ ه – ١٩٤٥ م .
محمد رفيق ومحمد بهجت بك : ولاية بيروت – القسم الجنوبي – مطبعة الاقبال – بيروت ١٣٣٥ .
عبد الحسين الاميني – الغدير ٤ و ١١ .
– شهداء الفضيلة – النجف ١٣٥٥ ه – ١٩٣٦ م .
محسن الامين : خطط جبل عامل – الجزء الاول – بيروت – مطبعة الانصاف .
اعيان الشيعة : الاجزاء : ١ – ٥ – ٧ – ١١ – ٢٣ – ٢٦ – ٢٨ – ٣٣ – ٣٩ – ٤٤ – ٤٦ .
الخوري يوسف الدبس : تاريخ سوريا – الجزء السادس .

ياقوت : معجم البلدان . الاجزاء ٢ – ٣ – ٤ – ٥ – بيروت .
دائرة المعارف الاسلامية – الجزء السادس – طبعة مصر .
اسد رستم : محاضرات النهضة العربية في لبنان .
احمد رضا : معجم متن اللغة – ج ١ .

مجلات :

العرفان – ١ – ٢ – ٥ – ٨ – ١٠ – ١١ – ٢٣ – ٢٤ – ٢٦ – ٢٧ – ٢٨ – ٣١ – ٣٢ – ٣٣ – ٣٤ – ٣٥ – ٣٦ – ٣٧ – ٤٩ .
الابحاث : السنة ١٣ – الجزء الثاني ١٩٦٠ .
المقتطف : المجلد ٢٨ .
الامالي : الاعداد : ٣ – ١٥ – ٢٣ – ٢٧ – ٣٠ – ٣١ – ٣٢ – ٣٧ – ٤٠ – ٤٣ – ٤٧ – ٥٠ – ٥١ .
جريدة الهاتف العراقية .
الهلال : المجلد ٢٢ .
الشرق : المجلد ٣٠ .
الدراسات الادبية : سنة ٣ عدد ٣ – سنة ١٩٥٩ عدد ٢ – ٣ .
« « : السنة الثانية – العدد الاول .

المخطوطات :

– ديوان عبد المحسن الصوري .
– رياض العلماء – للاصفهاني ٤ اجزاء المكتبة الحسنية – دمشق .
– مخطوطة سليمان ظاهر – عن ابراهيم الحاريصي ١٩٢١ م .

المراجع الاجنبية

- Brockelmann, Geschichte der Arabishen, Litteratur,S II.
- Lammens : sur la frontière nord de la terre promise, Paris 1921.
- Lammens : la Syrie : précis Historique, V I. II
Imprimerie Catholique 1921.
- D. Lortet : la Syrie d'aujourd'hui, Paris Hachette 1884.
- E. Renan : Mission de Phénicie, Imprimerie périale, Paris 1884
- Houtsma, Encyclopédie de l'islam, A. I.
- Encyclopédie de l'islam I-A-B. Leiden.

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الصفحة

الفصل الخامس

الصفحة



الصفحة

الحركة الفكرية والأدبية

في جبل عامل

جبل عامل بقعة غامضة التاريخ، منسية الأدب، مهملة في مفاخر لبنان.
وأي دراسة تتعلق بالجبل العاملي، وهو اليوم يجتاز أصعب ظروفه التاريخية، التي تطال مصيره، وتمتحن وجوده، هي استجابة وطنية قبل أن تكون ثقافية، خاصة وأن الجبل العاملي كان المجاز الذي عبرت منه، وتفاعلت فيه، أعرق حضارتين في الدنيا، وأوسعها انتشاراً على الأرض، عنيت المسيحية والإسلام.

وإن الكلام على تفاعل هاتين الحضارتين في لبنان، لا ينفصل عن الكلام على بقعة المجاز الحضاري، عنيت الجبل العاملي، الذي لا بد من إبراز الأهمية الحضارية التي يمثلها، بإقامة الدراسات، ونشر الكتب، وتوسيع الأبحاث، التي هو محورها، علنا نتمكن أن نبرز أمام العالم العربي والأجنبي الدور الحضاري للبقعة العاملية، فيهبوا للمحافظة على الجبل العاملي، حصن لبنان في جنوبه، حفاظهم على الحضارة المشتركة، والتراث الواسع.



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع